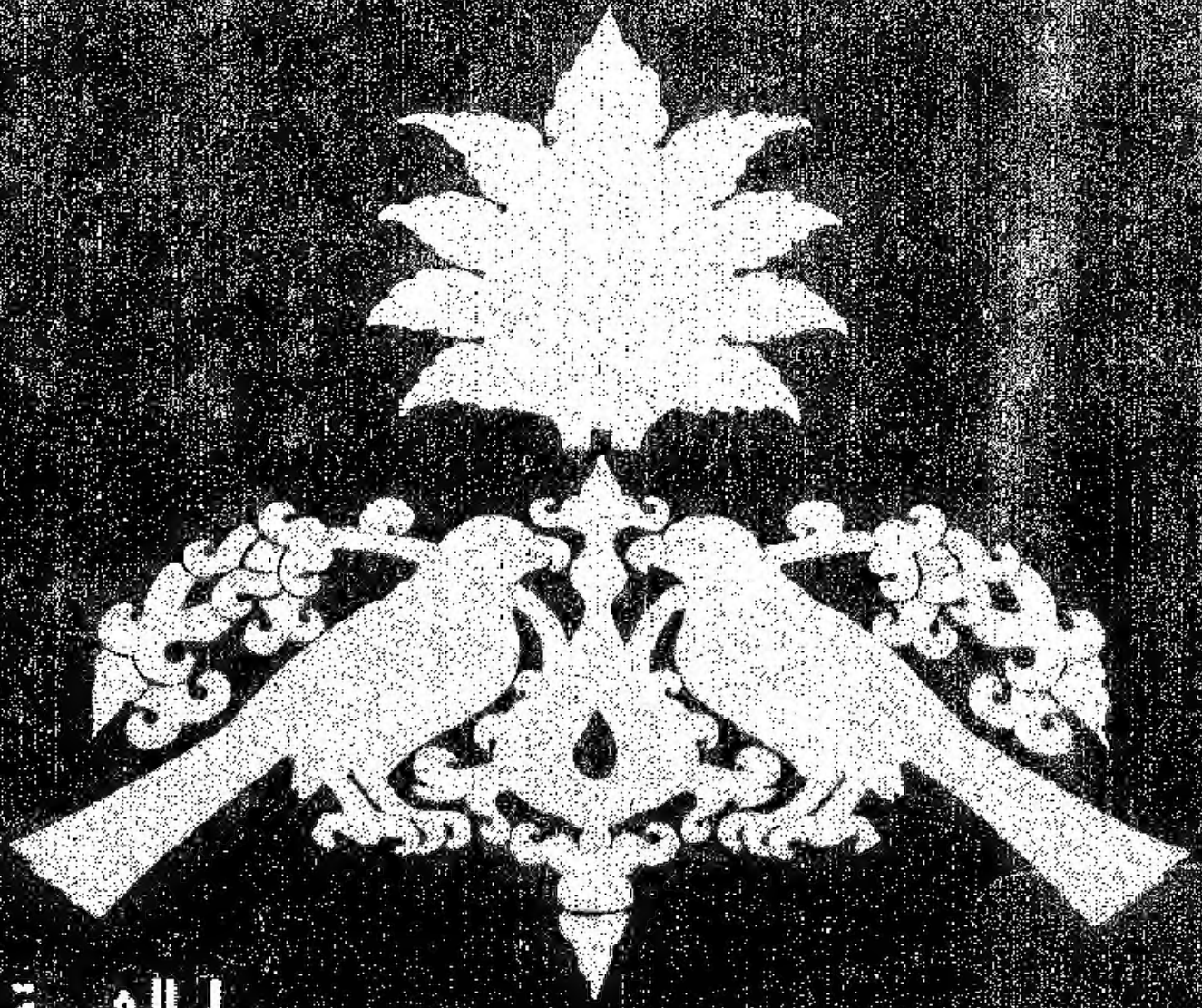


الدكتور محمد عمارة



دار الشروق

المعروف العربية



الإسلام والعروبة

الطبعة الأولى

١٤٠٨ - ١٩٨٨ م

جميع حقوق الطبع محفوظة

• دار الشروق

[illegible]

الدكتور محمد عمارة

الإسلام والعروبة

دار الشروق

تمهيد

عندما يكون الحديث عن الإسلام ، وموقفه من « العروبة » ، و « القومية العربية » ... وموقفه من « الوحدة العربية » .. فلا بد من التنبيه والتنبية إلى أننا بإزاء أكثر من « إسلام » !؟ ..

● فهناك « الإسلام : الدين » ، كما تمثل ويتمثل في النص القرآني الموحى به من الله ، سبحانه وتعالى ، إلى الرسول محمد بن عبد الله - صلى الله عليه وسلم - وفي « السنة النبوية التشريعية » ، التي جاءت تفصيلا لمجمل القرآن وشرحاً لموجزه ، وفتاوى في قضايا الدين ... وهذان المصدران هما اللذان تجسدا ، ثمرة « الاجتهاد » ، في « علوم الوحي » ، أي « العلوم الشرعية » .. هذا هو « الإسلام : الدين » ..

● وهناك « الإسلام : الحضارة » ، كما تمثل ويتمثل في ثمرات « العقل » المسلم و « تجربة » المسلمين في مختلف مناحي الحياة الدنيا ، التي يستطيع العقل الإنساني أن يدرك حسناتها أو قبحها ، نفعها أو ضررها ، دون عجز أو قصور يضطره إلى أن يستلهم فيها رأى الوحي وكلمة السماء ..

ولقد عرف العرب المسلمون « الإسلام : الحضارة » منذ تأسيس دولتهم الأولى ، دولة المدينة ، تلك التي كانت « بيعة العقبة » عقداً تأسيسياً لها ، والتي

تبلورت « مؤسساتها » تدريجيا ، منذ هجرة النبي - صلى الله عليه وسلم - إلى المدينة ..

فلم تكن الدولة هدفا من أهداف الوحي . ولا مهمة من مهام النبوة والرسالة ، ولا ركنا من أركان الدين ، وإنما اقتضتها ضرورة حماية الدعوة الجديدة ، والدفاع عن الدعاة المؤمنين ضد اضطهاد المشركين ، فكان تأسيسها وتدعيمها الحجازا سياسيا وحضاريا وقوميا ، حفظ الدين ، ودافع عنه ، وساعد على انتشاره . على الرغم من أنه ليس جزءا أصيلا من مهام النبوة والرسالة ولا هو أصل من أصول الدين ! ..

وفي ظل هذه « الدولة » . وعلى مر التاريخ تبلورت الحضارة الإسلامية في المحيط العربي أولا ، ثم في محيط الشعوب التي أسلمت ولم تتعرب .. وكانت « العلوم العقلية » وثمرات « التجربة الإنسانية » ، من كل ما يستطيع العقل المسلم إدراك حسنه أو قبحه ، نفعه أو ضرره ، البناء الذي تجسدت فيه هذه الحضارة ، التي هي : « الإسلام : الحضارة » ... أو مانسميه : « الحضارة الإسلامية » . وفي محيطنا العربي تؤثر أن نسميها : « الحضارة العربية الإسلامية » ..

● وهناك « الإسلام : التاريخ » ، الذي عاش المسلمون في ظله بعد جسود حضارتهم وتوقفها عن النمو والأزدهار والإبداع والعطاء .. وعلى وجه التحديد منذ سيطرة الجند الترك المماليك المجلوبين على مقاليد الأمور في الدولة العباسية تلك السيطرة التي ظهرت آثارها الأولية منذ عهد الخليفة العباسي المتوكل (٢٣٢ - ٢٤٧ هـ - ٨٤٧ - ٨٦١ م) ..

فند ذلك التاريخ تراجعت - تدريجيا - القسائم الجوهرية « للإسلام : الدين » ، وبرزت الزوائد والشوائب والبدع والخرافات ، وشهد المجتمع الإسلامى مرحلة اجتراح الجوانب المتخلفة من تراثه الدينى ، وساد « النصوصيون » وعبداء المآثورات ، واخذ « الجامعون والملمون والمصنفون » يوجزونها فى المتون ويفصلونها فى « الحواشى والشروح والتعليقات ، وشروح الشروح والنهششات على التعليقات ! » ... وتراجعت كذلك القسائم الجوهرية « للإسلام : الحضارة » ، وفى مقدمتها قسمة « العقلانية » وقسمة « العروبة » . اللتين مثلتا وجهى عملة الحضارة العربية الإسلامية فى عصر العطاء والازدهار ..

ولقد كان وراء هذا التراجع « للإسلام الدين » و « الإسلام الحضارة » غربة السلطة العسكرية الحاكمة عن حضارة الأمة ، الأمر الذى انتكس بقسمة « العروبة » ... وأيضا جهلها - بسبب من طبيعة اهتماماتها . وأساليب تربيتها كجند محاليك - جهلها بحقيقة جوهر الإسلام ..

فعندما تقصر المدارك عن أن تعي الإسلام ببراهين العقل ، فلن تستطيع هذه المدارك أن تدرك ديننا جعل العقل حاكما ، فى شريعته ، حتى على النصوص والمآثورات ! ..

● وأخيرا .. فإن هناك - وبالأحرى هنا - « الإسلام : المعاصر » .. ذلك الذى تمثل ويتمثل فى حركة البعث والتجديد والنهضة والاحياء التى ظهرت فى القرن الميلادى التاسع عشر ، وهى الحركة التى استنفرتها الهجمة الاستعمارية الأوروبية الحديثة ، تلك التى بدأت بحملة بونايرت على مصر سنة ١٧٩٨ م ..

ولقد تجسد هذا « الإسلام : المعاصر » في تيار عريض ، هو تيار البعث الإسلامي ، وإن تكن قد تميزت في محيط هذا التيار العريض الدعوات والحركات والمذاهب إلى حد ما ، حيناً ، وإلى حد كبير في بعض الأحيان .. فن (الوهابية) .. إلى (السنوسية) .. إلى (المهدية) .. إلى (الجامعة الإسلامية) التي بلورت تيارها جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده .. الخ .. الخ .. وثمرات هذا البعث والتجديد ، إن في العقائد أو في الحضارة ، هي التي نسميها : « الإسلام : المعاصر » ! ..

* * *

وإذا كان الأمر كذلك ، فلا بد لنا كي نعي حقيقة موقف الإسلام من « العروبة » و « القومية العربية » ... وحقيقة موقفه من « الوحدة العربية » .. من أن نبحث عن الموقف من هذه القضية لدى : « الإسلام : الدين » و « الإسلام : الحضارة » و « الإسلام : التاريخ » ... و « الإسلام : المعاصر » وذلك حتى لا نقع في الغموض والتعميم !

الإسلام : الدين .. والعروة

صحيح أن « الإسلام الدين » يتميز « بعالمية لا تعرف الحدود ولا الفواصل التي ترسمها . على الأرض الأجناس والقوميات والحضارات .. وأنه لأفضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى .. ذلك أن أصول هذا « الإسلام الدين » تتمثل أساساً في .

● توحيد الألوهية ، التي بلغت في تصوره الاعتقادي ، أرقى صور « التثنية » و « التجريد » ...

● والإيمان بالبعث الأخروي ، حيث الحساب والجزاء ..

● والعمل الصالح ، المؤسس على التكليف ، المرتب على امتياز الإنسان بالعقل والرشد والتمييز والاختيار ..

وهذه الأصول الدينية إنما تأتي ، في « الإسلام الدين » وحياً خالصاً ، وهي قد نزلت على نبيه محمد - صلى الله عليه وسلم - على النحو الذي نزلت فيه على من سبقه من الأنبياء والرسل الذين بعثوا إلى غير العرب من الأمم والشعوب .. والقرآن الكريم . في هذه الأصول الدينية ، إنما جاء مصداقاً لما بين يديه من التوراة والإنجيل . ولما سبق رسالة محمد من رسالات .. (ومن قبله كتاب

موسى إماما ورحمة ، وهذا كتاب مصدق لسانا عربيا (١) .. وهو - أى القرآن - قد نزل (يا ذن الله مصدقا لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين) (٢) .

إذن ، فالإسلام ، كدين ، ومن حيث أصوله الاعتقادية ، ليس « خصوصية عربية » ، حتى يكون قسمة من قسما العرب القومية .. وإنما هو ، من هذا الجانب ، وفى هذه الأصول - علاوة على كونه « وضعيا إلهيا » ، وليس إفرازا بشريا - ذو قسمة عالمية وإنسانية ، وذو طابع عام يتعدى الأم والشعوب والقوميات والحضارات .. إنه ، فى مجاله ، كالقوانين العامة ، التى - لعلميتها - تتعدى بصلاحياتها وتوجهها كل ما على الأرض من حدود وفواصل وتقسيمات وسدود ..

إننا هنا يلزأ « الإسلام الدين » ، الذى لا يعنى « بالقومية » . أية قومية لكن هذا لا يعنى أنه ينكر « القومية » أو يناصرها العداء ، كما توهم ذلك واهمون كثيرون .. ذلك أن عالمية الإسلام - كدين ، لا تعنى إنكاره أو تنكره « للواقع » الذى يعيش فيه الناس - « والقومية » بعض من هذا الواقع الذى تعيشه الجماعات البشرية ، يستوى فيه المسلمون وغير المسلمين ! ..

* * *

بل لعلنا واجدون بين « الإسلام الدين » وبين « العروبة » ما هو أكثر من « تعايشه » معها . كحقيقة ، وقبولة لها ، كواقع ... واجدون بينهما روابط وعلاقات ، لاتنفى « التناقض » بينهما ، فقط ، وإنما تجعل منهما مزيجا يبدو منه

(١) الأحقاف : ١٢ .

(٢) البقرة ٩٧ .

الإسلام وبه - في بداياته الأولى - وفي واقع أمتنا العربية - ديننا عربيا .. كما تبدو
أمتنا - في هذا الضوء : شعب الإسلام المتميز بين كل الشعوب التي شرفت
بالتدين بهذا الدين ' .

● فالشريعة الإسلامية ، التي نزل بها وحى الله ، قد نزلت على محمد بن
عبد الله : العربي . ومعجزة هذا الدين وآيته الكبرى ، وهي القرآن الكريم
قد جاءت بلسان عربي مبين . بل وعلى نحو من البلاغة والإعجاز جعل
محاكاتها مستعصية على بلغاء العرب . على مر التاريخ ، كما جعل فهمها ووعيتها
وفقها مستعصيا بأية لغة أخرى غير العربية . فإذا كانت ترجمة معاني القرآن
محدية في فهم بعض هذه المعاني ، فإن ترجمة نصه إلى أية لغة أخرى إنما يشوه
هذا النص ويذهب بما للألفاظ من معان ودلالات وإيحاءات ' .

فها نحن نعود ، فنجد « الإسلام الدين » ، رغم عالميته التي تتعدى
وتتخطى حدود القوميات والحضارات والأجناس . يحده يطلب من أتباعه
أن هم أرادوا فقه معجزته ووعى آيته الكبرى . أن يتعربوا ؟ !
وتلك ، ولا شك ، « خصوصية عربية » للإسلام . لا ريب فيها ولا
إيهام . رغم « عالمية هذا الدين » !

● والجماعة البشرية العربية ، الذين ظهر فيهم الإسلام أولا . والذين
حملوا عبء التبشير مهديه والدعوة إلى نهجه والدفاع عن عقائده ، والذين
أقاموا لذلك : دولة ، وبلوروا لتلك المهمة : حضارة .. هؤلاء العرب قد
غدوا ، حتى بإراء هذا « الدين العالمي : « الطليعة » ، التي أحدثت على
عائقها ، بتكليف واصطفاء من السماء ، نشر هذا الدين وحفظه . وإذا كان

الله هو الحافظ للذكر الذى أنزله . فإن طلائع خلفاء الله فى النهوض بهذه المهمة القدسية كانوا هم العرب المسلمين .

ومرة أخرى . نعود فنجد أنفسنا يازاء « دين عالمى » . الخطاب به موجه إلى الكافة . والدعوة فيه إلى الناس أجمعين . عربا وغير عرب . ولكن للعرب فى دعوته العالمية مكان « الطليعة والقيادة » . يحكم عروبة النبي . وعروبة القرآن . ونهوض الواقع العربى - من حيث هو « سبب نزول الوحي » - بدور المذكرة التفسيرية « للنص القرآنى . وبدء الدعوة إليه فى المحيط العربى ونهوض العرب بدور « الكتيبة الأولى المقدمة » فى جيش دعوته .. وتلك . ولا شك ، « خصوصية عربية » خصهم بها الإسلام . واصطفاهم لها شارع هذا الدين ! ..

● بل إننا لواجدون فى « عالمية الإسلام » . كدين . مايزيد من « خصوصية العرب واختصاصهم » فى هذا المجال .. فإذا كانت الديانات السابقة على الإسلام قد تميزت - وفق التصور الإسلامى - بالمحلية والإقليمية فى إطار أمة أو شعب أو قرية أو قبيلة .. على حين تميز الإسلام وامتاز بالعالمية فإن موقع العرب - « كطليعة » للدين الإسلامى . يتعدى نطاق وطنهم وموطنهم إلى حيث يصبحون « طليعة » لهذا الدين على نطاقه العالمى ..

وفى ذلك . ولاشك ، « خصوصية للعرب » . تميزهم وتمتاز بهم على الأمم الأخرى . حتى فى إطار الدين ! .. لكنه تميز وامتياز « حامل المسؤولية » و « الأمين » على الامتياز !؟ .

* * *

الإسلام : الحضارة .. والعروبة

والحضارة . في لغتنا وتراثنا . هي ذلك الطور الأرقى الذى بلغه الإنسان العربى عندما تجاوز حياة البداوة : فاستقر وتوطن ، وأصبح « حاضرا » فى المكان . الأمر الذى صحبه امتلاكه « لقيم ونظم وعادات وأعراف وأفكار وعلوم » مثلت بناء الحضارى ..

هذا هو مفهوم الحضارة . ونقطة بدئها فى تراثنا العربى ..

ففى مقابل « البداوة » والترحال كانت « القرية - والمدينة » حاضرة متحضرة .. وفى القرآن الكريم : (واسألهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر)^(١) ..

و « الحضارة » و « البداوة » نمطان متمايزان . بل ومتقابلان فى كل الميادين . تقريبا .. وعند شاعرنا أبى الطيب المتنبى (٣٠٣ - ٣٥٤ هـ ٩١٥ - ٩٦٥ م) نجد :

الناس للناس من بدو وحاضرة
بعض لبعض وإن لم يقصدوا معنوا
وعنده أيضا . حتى فى الذوق والحس الجمالى :

(١) الأعراف : ١٦٣

ما أوجه الحضرم المستحسنات به كأوجه البدويات الرعايب
حسن الحضارة مجلوب بتطرية وفي البداوة حسن غير مجلوب !

وإذا كان الإسلام قد ظهر في أكثر البيئات العربية تحضرا ، في مكة (أم
القرى) ، فلقد ميز ، حتى في الإطار الديني ، بين « البدو » وبين « الحضرم » .
بين الأعراب وبين المتحضرين ، حتى لقد كاد أن يقول قرآنه الكريم : إن السمة
الأساسية والغالبة هي ملائمة « الإيمان » بالإسلام للحضرم والحضارة
والمتحضرين .. وأنه إذا كان (من الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر)^(١)
فإن (الأعراب أشد كفرا ونفاقا)^(٢) (ومن الأعراب من يتخذ ما ينفع
مغرم)^(٣) (ومن حولكم من الأعراب منافقون)^(٤) و (سيقول لك المخلفون
من الأعراب شغلنا أموالنا وأهلونا)^(٥) و (قالت الأعراب : آمنا ، قل : لم
تؤمنوا ، ولكن قولوا : أسلمنا ، ولما يدخل الإيمان في قلوبكم)^(٦) .

وإذا كانت الهجرة من مكة إلى المدينة قد مثلت نجاة نواة الأمة المؤمنة بدينها
من الاضطهاد والحصار ، فلقد استمرت الدولة العربية الإسلامية ، بالمدينة
وهي قاعدة « الإسلام : الحضارة » ، وبأكورة انجازات العرب المسلمين

(١) التوبة : ٩٩

(٢) التوبة : ٩٧

(٣) التوبة : ٩٨

(٤) التوبة : ١٠١

(٥) الفتح : ١١

(٦) الحجرات : ١٤

الحضارية . استمرت في دعوة الأعراب والبدو إلى الهجرة للمدن والتوطن فيها وفيما حولها . أي الهجرة إلى التحضر والحضارة . وتجاوز النقيض ، الذي هو البداوة . حتى لقد اعتبرت السنة النبوية الشريفة رجوع المهاجرة من المدينة - الحاضرة - الحضارة - إلى « البداوة » : « ردة » ! .. فاستخدمت مصطلح « الردة » في وصف العودة عن « الحضارة » إلى « البداوة » .. حتى لقد سأل الحجاج بن يوسف الثقفي (٤٠ - ٩٥ هـ - ٦٦٠ - ٧١٤ م) « سلمة بن الأكوع » . مستنكرا : « يا ابن الأكوع . ارتددت على عقيلك ؟ تعربت ؟ ! .. » - أي ارتددت أعرابيا بدويا ؟ ! - فقال له سمة : « لا . ولكن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أذن لي في البدو .. » (١) .. وفي حديث عبد الله بن مسعود : « ... والمرند أعرابيا . بعد هجرته . ملعون على لسان محمد - صلى الله عليه وسلم - » (٢) !

ولذلك ، فلم يكن غريبا أن تكون « الدولة » العربية الإسلامية . التي تأسست بتعاقد « بيعة العقبة » ، وبدأ بناؤها باهجرة . هي نقطة البدء في بناء الحضارة العربية الإسلامية .. ولا غريبا أن نجد « للعرب والعروبة » المكان المتميز في هذه الحضارة .. حضارة الإسلام . كما وجدنا ذلك لهم في هذا « الدين » دين الإسلام ! .

فماذا في « الإسلام : الحضارة » عن « العروبة والعرب » - مادة القومية العربية وموضوعها - ؟؟ ..

(١) رواه البخاري ومسلم والسنائي

(٢) رواه السنائي وأحمد بن حنبل

من القضايا التي انعقد عليها إجماع العلماء والباحثين أن جوهر « الإسلام » هو « التوحيد » .. ونحن نستطيع أن نقول . إن أبرز « عملة » سكها الإسلام ، عند ظهوره في شبه الجزيرة العربية ، قد حمل وجهها الأول : « التوحيد الديني » في الألوهية ، ووجهها الثاني : « التوحيد القومي » في الحضارة والدولة والسياسة والهوية .. ولقد اتصل التأثير وتبادل بين الوجهين فساعد « التوحيد الديني » على اتساق هوية الجماعة البشرية العربية ، قوميا وسياسيا ، بعد أن كان تعدد الآلهة يجسد تمزقها القومي والسياسي ، كما أسهم « التوحيد القومي والسياسي » . في الدولة الجديدة ، أسهم في حفظ الدين ونشره ، الأمر الذي مد في عمر « التوحيد الديني » ومداه حتى رفرت أعلامه على عالم الإسلام الفسيح .

فالرامل ، منذ البداية - وليس الانفصام - فضلا عن التناقض - كان طابع العلاقة بين « التوحيد الديني » و « التوحيد القومي والسياسي » في حركة الإسلام .

● فالقرآن الكريم يتحدث عن أثر « التوحيد الديني » في « تأليف قلوب » العرب ، بعد أن كان تمزقهم وتناحرهم قد جعل منهم فريسة للقوى التي أحاطت بهم واقتطعت الأجزاء تلو الأجزاء من وطنهم ، حتى كادت تختويهم جميعا .. الروم البيزنطيون من الغرب والشمال . والفرس من الشرق والأحباش من الجنوب .. (وادكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن يخطفكم الناس ، فأواكم وأيدكم بنصره)^(١) ... كما يتحدث عن

(١) الأنفال : ٢٦

ذلك « التآليف » للعرب ، الذى صعبه « الدين » الجديد . فى موطن آخر
 فيقول مخاطبا لهم : (وادكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم
 فأصبحتم بنعمته إخوانا ..)^(١) .. وفى صراع الإسلام ودولته ضد أعدائهما
 يتحدث الله ، سبحانه ، عن دور « الدين » فى « تأليف العرب قوميا
 وتآلفهم » . مشيرا إلى استحالة هذا الإنجاز ، بدون « الدين » فى ذلك المحيط
 القبلى البدوى المتناحر ، فيقول لنبىه : (... إن حسبك الله ، هو الذى أيدك
 بنصره وبالمؤمنين . وألف بين قلوبهم ، لو أنقمت ما فى الأرض جميعا ما ألفت
 بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم ، إنه عزيز حكيم)^(٢) .

● ومع بداية البعثة النبوية ، حدث أول نصر للعرب على الفرس ، فى
 « يوم ذى قار » . فلم يدع النبى - صلى الله عليه وسلم - فرصته تمردون أن يشر
 العرب بدلائته ، فقال : « اليوم أول يوم انتصف فيه العرب من العجم ، وبى
 نصرنا .. »^(٣) !

وعندما يحدث الرسول عمه أبا طالب عن « التوحيد الدينى » يؤكد على أثره
 فى « التوحيد القومى العربى » . الذى سيحول للعرب رمام قيادة الشرق
 فينتصفون وينتقمون من الدين أذلوههم - قوميا - كثيرا وطويلا الفرس
 والروم . والأحباش .. يقول : « يا عم ألا أدعوهم إلى كلمة يقولونها

(٢) آل عمران - ١٠٣

(٢) الأنفال ٦٢ - ٦٣

(٣) ابن عبد ربه « العقد المريد » ج ٥ ص ٢٦٢ . نقيب د أحمد أمين ، أحمد الريس ، إبراهيم
 الأبيارى طبعة القاهرة سنة ١٩٧٣ م

تدين لكم بها العرب ، وتؤدى إليكم العجم الجزية ؟! - .. والله لتنفقن كنوز
كسرى وقيصر في سبيل الله ؟ ...

وفي موطن آخر يؤكد النبي هذه النبوءة فيقول : « إن أمتي ستظهر على
« الحيرة » وقصور كسرى ، وأرض الشام والروم ، وقصور « صنعاء » .. وبشر
المسلمين بذلك ؟ »^(١)

● والله ، سبحانه وتعالى - في عقيدة « التوحيد الديني » الإسلامية - ينتزه
عن المكان ، ويستعصى عن التحيز في جهة من الجهات .. وأينا يول المسلم
وجهه في الدعاء أو الصلاة فثم وجه الله .. لكن النبي - صلى الله عليه وسلم -
وصحابته كانت قلوبهم تهفو إلى أن تصبح الكعبة ، قدس أقدس العرب منذ
القدم ، ومقصد حبيبهم على مر العصور ، وفي ظل مختلف العقائد . كانت
تهفو قلوبهم إلى أن تكون الكعبة هي قبلتهم في الصلاة ، فيها يتميزون عن
أصحاب الديانات التي مثلت بالنسبة إليهم في الماضي فكرا غازيا يمهّد الأرض
لنفوذ الروم والأحباش ؟ .. ولقد استجاب الله لرغبتهم ، فأذن لهم بالانصراف
عن التوجه إلى بيت المقدس ، وأصبحت الكعبة لهم قبلة (قد نرى ثقلب
وجهك في السماء ، فلنولينك قبلة ترضاها ، فوّل وجهك شطر المسجد
الحرام . وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره)^(٢) .

● ومنذ اللحظة الأولى لبناء الدولة العربية الإسلامية الأولى ، في المدينة -

(١) ابن الأثير « الكامل في التاريخ » ج ٢ ص ٦٧ . ٢٤ . ١٢٣ .

(٢) البقرة . ١٤٤

وهي الانجاز الأول والأعظم « للإسلام : الحضارة » - وضح طابعها القومى للعبان .. فلقد تألفت « رعيته السياسية » من : العرب المؤمنين بالدين الجديد مهاجرين وأنصارا ، وأيضا من أهل يثرب العرب الذين كانوا يتدينون باليهودية . من قبائل : بنى الحارث ، وبنى ساعدة . وبنى جشم . وبنى النجار . وبنى الأوس .. أى أن « الرعية السياسية » لهذه الدولة قد تكونت من العرب . رغم اختلاف الدين . أى وفق معيار قومى عربى . فضمت المهاجرين والأنصار - من المؤمنين بالإسلام وضمت معها الأجزاء التى نهدت من قبائل المدينة ، وهى على يهوديتها .. ولقد عبر الدستور السياسى لهذه الدولة - وهو الذى يسميه المؤرخون : « الصحيفة » - و « الكتاب » - عبر عن هذه الحقيقة القومية عندما نص على أن ... « ... المؤمنين والمسلمون . من قريش ويثرب ومن تبعهم ولحق بهم وجاهد معهم : أمة واحدة من دون الناس ... » وأن اليهود أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم .. » ^(١) . على حين لم يدخل فى هذه « الرعية السياسية » اليهود العراقيون . من سكان الواحات الزراعية والذين « حالفوا » الدولة الجديدة حينما . ثم نقضوا عهدهم معها . فكانت الحرب التى أجلتهم عن هذه الواحات .

● وفى هذه الدولة الجديدة قدم « الإسلام : الحضارة » مفهوما للعروبة يتجاوز عصبية الجاهلية ويرفضها . ويتجاوز النعرات العرقية وينهى عنها ويضع محل كل ذلك مفهوما حضاريا . يعتمد الفكر واللغة والعلائق القومية بين أبناء هذه الجماعة البشرية معيارا لمن هو العربى .. فيخطب الرسول - صلى

(١) اسورى - « نهاية الأرب فى فنون الأدب » ج ١٦ ص ٣٤٨ - ٣٥١ طبعة دار الكتب المصرية

الله عليه وسلم - في الناس قائلا : « أيها الناس ... ليست العربية بأحدكم من أب ولا أم ، وإنما هي اللسان - (اللغة) - فمن تكلم العربية فهو عري » ^(١) !

وعندما يسأله الصحابي واثلة بن الأسقع :

- يا رسول الله ، أومن العصبية أن يحب الرجل قومه ؟

- يحبيه :

- لا ، ولكن من العصبية أن ينصر الرجل قومه على الظلم ؟ ^(٢)

فهذه هي عصبية الجاهلية ، القائمة على الرباط العرقى وحده ، والتي نجعل المرء ينصر بني جلدته ، حتى ولو كانوا ظالمين ، وهي التي سماها الرسول - صلى الله عليه وسلم - : « دعوى الجاهلية » . وقال لقومه : « دعوها ، فإنها منتنة ! » ^(٣) .

وفي هذه الدولة العربية الإسلامية ، تحدث الرسول ، أيضا ، عن مكان العرب ، فقال ، في الحديث الذي يرويه عنه علي بن أبي طالب : « لا يغيض العرب إلا منافق ! » ^(٤) .

ولقد تأكدت الرابطة « الحضارية - القومية » بالاعتراف للمواثي ، الذين أصبحوا عربا باللغة والهوية والولاء ، رغم ولادتهم من أصول عرقية غير

(١) « تهذيب تاريخ ابن عساکر » ج ٢ ص ١٩٨ طبعة دمشق .

(٢) رواه ابن ماجة وابن حبل .

(٣) رواه البخاري والترمذي .

(٤) رواه أحمد بن حنبل .

عربية ، بالاعتراف لهم بأنهم عرب ، وعلى قدم المساواة ، في العروبة ، مع العرب الاقحاح !... ذلك أن « الإسلام الحضارة » قد جعل اللغة والتعرب والولاء للجماعة الجديدة رباطا هو والرباط العرقى والنسبى سواء بسواء ، وفي ذلك جاءت الأحاديث النبوية التي عبرت عن هذا التنظيم « الاجتماعى - القومى » الجديد ، الذى توحدت به الجماعة البشرية العربية ، رغم اختلاف أصولها العرقية . فطالعنا أحاديث الرسول - صلى الله عليه وسلم - التى تقول : « مولى القوم منهم .. ^(١) والولاء لحمه كلعمة النسب .. » ^(٢) .. فاندمج الموالى فى القبائل العربية ، أو كونوا قبائل مستقلة ، وقرر لهم « الإسلام : الحضارة » كامل المساواة القومية - فضلا عن الدينية - مع العرب الاقحاح !.

● وعندما جاءت الفتوحات العربية لتمتد بحدود الدولة إلى حيث يشحر العرب الذين أخضعهم سلطان الفرس والروم ، وقف العرب فى العراق والشام . وكذلك المصريون - ذوو الأصول السامية - مع العرب المسلمين رغم خلافهم الدينى مع الفاتحين ، واتفاقهم فى الدين مع الفرس والروم !... فأسهم الجميع - جميع العرب - فى بناء الدولة العربية ، التى ظل الإسلام والمسلمون فيها أقلية عديدة لنحو قرنين من الزمان !... فكانت إغازا عربيا قوميا ، ولم تكن « دولة دينية » . كما يتوهم ذلك الذين لا يعلمون !.

● وعندما بدت فى الأفق مظاهر الانتكاس لهذه المفاهيم القومية العربية التى ألقاها فى تربة الدولة العربية « الإسلام : الحضارة » ، بفعل « العصبية

(١) رواه البخارى .

(٢) رواه أبو داود والدارمى

القبلية » ، التى أحيها الأمويون ، وبفعل « الشعبية » ، التى غذاها دهاقنة
الفرس ، برزت فى الساحة : التيارات الفكرية العربية التى أمسكت بخيط
الفكر القومى اللاعرقى . تم ذهبت تسعى لبلورة فكر قومى عربى . لا عرق
يؤلف بين أبناء الدولة الكبيرة فى كل قومى واحد .. وكان التيار العقلانى -
والمعتزلة فى طليعته - رائد هذا المسعى وذلك الإحراز .

والجاحظ (١٦٣ - ٢٥٥ هـ - ٧٨٠ - ٨٦٩ م) - من المعتزلة - يفرد لهذا
الغرض - غرض التأليف القومى لعناصر الدولة وشعوبها - بعض تأليفه ، ويعلم
فى مقدمة أحدها عن ذلك فيقول : « وكتابنا هذا إما تكلفناه لتؤلف بين قلوبهم
إن كانت مختلفة ، ولتزيد الألفة إن كانت مؤلفة . ولنخبر عن اتفاق أسبابهم
لتجتمع كلمتهم . ولتسلم صدورهم . وليعرف من كان لا يعرف منهم موضع
التفاوت فى النسب . وكم مقدار الخلاف فى الحسب . فلا يغير بعضهم مغير ولا
يفسده عدو بأباطيل مموهة . وشبهات مزورة . فإن المنافق العليم ، والعدو ذا
الكيد العظيم . قد يصور لهم الباطل فى صورة الحق . ويلبس الإضاعة فى ثياب
الحزم ...! »^(١)

فهو يتحدث عن مهمة التأليف القومى بين الجماعات المنحدرة من أصلاب
متعددة ، والتى كانت تنتسب أصولها إلى حضارات مختلفة ، والتى غدت الآن
رعية واحدة للدولة العربية ، يتحدث عن هذه المهمة باعتبارها ضرورة يحيط
بها الأعداء والمناهضون . من أصحاب « العصبية القبلية » ومن دعاة

(١) « رسائل الجاحظ » ، ج ١ ص ٢٩ تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون طبعة القاهرة سنة
١٩٦٤ م

« الشعوبية » . ويتربصون بها الدوائر . طمعا في الحيلولة دون التآلف القومي العربي الجديد .

ثم يتحدث الجاحظ عن الروابط التي نشأت ونمت بين رعية الدولة العربية . والتي أخذت تمثل خيوطا قومية تشدهم جميعا لمركز واحد . وتكون منهم « كلا قوميا واحدا » وفي مقدمة هذه الخيوط والقسمات روابط اللغة الواحدة . والفكر الواحد .. والعادات والتقاليد والشمائل . والتكوين النفسى ... ويرى الجاحظ أن هذه الخيوط والقسمات قد عدت من المتانة والرسوخ والوضوح بحيث فاقت « وحدة النسب » ! ؟ ... فالذين يتحدثون في النسب ، مثل العرب والعبرانيين - أبناء إسماعيل وإسحق ، وَلَدَيَّ إبراهيم - قد صاروا أمتين ، قوميا ، لاختلاف السمات القومية . على حين وجدت هذه السمات بين ذوى الأصول العرقية المختلفة ، مثل العرب العدنانيين والعرب القحطانيين ! ..

يقول الجاحظ : « إن العرب قد جعلت إسماعيل . وهو ابن أعجميين - (إبراهيم وهاجر) - ، عربيا . لأن الله فتح لهاته ^(١) بالعربية الميية . ثم فطره على الفصاحة . وسلخ طباعه من طبائع العجم .. وسواه تلك التسوية . وصاغه تلك الصياغة . ثم حباه من طبائعهم ومنحه من أخلاقهم وشمائلهم . وطبعه من كرمهم وأنفتهم وهمهم على أكرمها ... فكان أحق بذلك النسب . وأولى بشرف ذلك الحسب ... وأن العرب لما كانت واحدة . فاستووا في التربية وفي اللغة ، والشمائل ، والهمة ، وفي الأنفة والحمية . وفي الأخلاق

(١) اللهاة : جزء من أقصى سقف العم ، مشرف على الخلق .

والسجية . فسبكوا سبكا واحدا . وكان القلب واحدا . تشابهت الأجزاء وتناسبت الأخلاط . وحين صار ذلك أشد تشابها في باب الأعم والأخص وفي باب الوفاق والمباينة . من بعض ذوى الأرحام . جرى عليهم حكم الاتفاق في الحسب . وصارت هذه الأسباب ولادة أخرى . حتى تناكحوا عليها وتظاهروا من أجلها . وامتنعت عدنان قاطبة من مناكحة بني إسحق . وهو أخو إسماعيل . وجادوا بذلك في جميع الدهر لبني قحطان ... إن هذه المعاني قد قامت عندهم مقام الولادة والأرحام الماسة!؟ ...»^(١) .

فاللغة . والطبائع . والأخلاق والشماثل . والولاء المتحد لهذه الروابط الجديدة الجماعة . قد غدت قالبا واحدا . سبكت فيه هذه الجماعة البشرية سبكا جديدا وواحدا . حتى صارت هذه العلائق والسمات القومية : « رحما ماسة » . ولدت منها هذه الجماعة « ولادة أخرى » . رغم اختلاف أصولها العرقية والحضارية السابقة على هذا التآلف القومي الجديد .

● وفي « الإسلام . الحضارة » . يلفت أنظارنا ، كذلك . موقف الفقهاء والمتكلمين وأعلام الفكر السياسي الإسلامي ، عندما يتحدثون عن « عروبة الدولة » وسببها العليا - (الخليفة - الإمام) - كموقف « إسلامي » ، وشرط من شروط « الإسلام » فيمن يتولى رئاسة الدولة الإسلامية ... فكثيرون منهم قد اشترطوا أن يكون الخليفة والإمام عربيا من قريش ...

وجدير بالذكر والملاحظة أن هذا الشرط لم يظهر في الفكر السياسي

(١) « رسائل الحافظ » ج ١ ص ٢٩ - ٣١ - ١١ - ١٤

الإسلامي إلا عندما بدأ تغلب الأسر الأعجمية والاتجاهات الشعبية على الخلافة العربية العباسية . وظهرت آثار السطرة المملوكية التركية على الدولة منذ عصر المتوكل العباسي (٢٣٢ - ٢٤٧ هـ - ٨٤٧ - ٨٦١ م) .. فكان اشتراط « قرشية » الخليفة تعبيرا عن موقف قومي عربي ضد عجمة الدولة . مثلة في رأس سلطتها وقائدها الأعلى .

وحتى الذين لم يشترطوا « قرشية » الخليفة . أى عروته النسبية . براهيم قد اتفقوا مع غيرهم . من الذين اشترطوها . اتفقوا جميعا على أن يكون الخليفة بالغا في الفقه والعلم درجة « الاجتهاد » - إذا توفرت هذه الدرجة فيمن يصلح لهذا المنصب - .. ومعلوم أنه لم يبلغ امرؤ مرتبة الاجتهاد . في عرف الإسلام إلا إذا وصل في فقه القرآن العربي والسنة النبوية العربية . وفي علوم العربية اللازمة لفقه مصادر الشريعة حدا يجعله . بالمعايير الفكرية والثقافية والحضارية . عربيا ١٩ ..

فخلف هذا الشرط - شرط « قرشية » الإمام . أو اجتهاده . أو هما معا - كان موقف « الإسلام : الحضارة » مع عروبة « الدولة » . وضد سيطرة العجمة والشعبية على مقاليدها ! ..

فإذا أضفنا إلى ذلك أن شرط « الاجتهاد » مطلوب ومعتبر فيمن يتولى سلطات التشريع في الدولة الإسلامية . علمنا أن الطابع العربي لهذه الدولة هو أمر مقرر ومطلوب ! ..

~ * ~

هكذا .. وقف « الإسلام : الحضارة » مع العروبة . ومع السمات والقسمات التي أخذت تشد الجماعة البشرية العربية إلى حيث الطريق المؤدى إلى امتلاكها قسمات القومية العربية الواحدة ..

ومن قبل رأينا كيف وقف « الإسلام . الدين » مع العروبة . عندما جعل للعرب مكانا متميزا في دعوته وحركته - رغم عالميته في أصول الاعتقاد - . وصدق الله العظيم عندما جعل القرآن الكريم . وهو آية الإسلام الكرى ومعجزته الخالدة . فخرا للعرب . كأمة . كما هو فخر محمد . كرسول . فقال سبحانه ، مخاطبا نبيه : (وإنه لذكر لك ولقومك) ... ثم أضاف . منها العرب على أنه سائلهم ومحاسبهم على هذه النعمة التي اصطفاهم طليعة لدعوتها . أضاف قائلا : (... وسوف تستلون) ..^(١) صدق الله العظيم . فأين هو ، إذن . ذلك « التناقض » ، الذي يتحدثون عنه . بين « العروبة » وبين « الإسلام » !! ..

لكن .. متى .. ولماذا ظهرت دعوى التناقض هذه ؟؟ :

حدث ذلك في الحقبة التاريخية التي توقفت فيها حضارتنا العربية الإسلامية عن التطور والإبداع والعطاء . وعندما أسلمها هذا التوقف إلى الجمود فدخلت في طور التراجع والامحطاط .

ولقد بدأت هذه الحقبة عندما ظهرت آثار سيطره « المؤسسة العسكرية -

(١) الزحرف ٤٤

المملوكية - التركية » - التى لجأت إليها الخلافة العباسية كى تكون أداة الخلافة الطيعة ، فلما تمت وتضخمت حولت الخلافة إلى أداة لها !! - بدأت هذه الحقبة عندما ظهرت آثار سيطرة هذه المؤسسة العسكرية فى الميدانين الفكرى والحضارى ، وبدأت الأمة أولى خطواتها - وإن ببطء - نحو عصورها المظلمة تلك التى استمرت عصرى المماليك والعثمانيين ، وحتى مطلع العصر الحديث .. وفى هذه الحقبة لم يبق للأمة من « الإسلام : الدين » ولا من « الإسلام : الحضارة » سوى الشكل والرسوم والطقوس ! . اللهم إلا حركات ضعيفة ومحدودة للمقاومة ، حفظت نبض الدين والحضارة ، دون أن تقوى على مغالبة عوامل الانحطاط ومظاهره التى طبعت المجتمع بطابعها العام .

• ويومئذ :

● وقفت اهتمامات « الدولة » - عالما وأساسا ، عند الأشكال والمظاهر والأوعية والقشور . فاهتمت بعمارة المساجد والمدارس ، وزخرفتها .. على حين كانت « العلوم » التى تدرس فى هذه المدارس والفكر الذى يلقى فى هذه المساجد مثقلا بالجمود والشعوذة والحرافات ! ..

● وانتشرت تكايا التصوف وخوائقه .. على حين انحسر التصوف العاسق ليفسح المكان والميدان « للطرق » الصوفية ، التى لا علاقة لها بالتصوف الحقى والتى امتلأت بالأدعياء وأصحاب الحيل ، المقبلين على الدنيا من دروب الارتراق ! .

● وفى الادب ، استبدلت المحسسات اللفظية والشكلية - (البديعية) - بالجوهر والمعنى الراقى والمصمون العميق .

● وفي « الفكر » سادت « الحرفة » . وتراجع الخلق والإضافة والإبداع فكان عصر « المدونين والمصنفين والتأريخين والمعلقين وأصحاب الحواشي والمتون وحكايات الألفاظ ! » .. الذين أخذوا في اجتراح التراث . وكان إنجازهم الأعظم هو تصنيف الموسوعات التي حفظت علوم السلف وتراثهم . خصوصا بعد دمار مكتبات بغداد يوم اجتاحتها التتار ..

وفي هذا المناخ . الذي جمدت فيه الحضارة وتراجعت وكفت عن العطاء . كانت « الدولة - السلطة » أعجمية ، أو قرية من العجمة . غريبة عن روح الحضارة العربية الإسلامية ، أو في أحسن الحالات عاجزة عن الارتقاء إلى آفاق روح هذه الحضارة .. استوى في ذلك المماليك والعثمانيون . ولذلك تراجعت أهم قسما هذه الحضارة ، وهي : « العروبة » و « العقلانية » .

ولقد كانت هذه « السلطة » صاحبة مصلحة حيوية في تراجع قسمة « العروبة » . لضعف الخيوط التي تربطها بها . أو انعدام هذه الخيوط .. لكن هذه « السلطة » كانت مسلمة - على الأقل من حيث الشكل - فساد العصر ذلك الفكر الذي جعل رابطة الإسلام والمعتقد الديني بديلا لرابطة العروبة حتى كاد أن يجعلها نقيضين ! .

وإلا فمن كان يتصور أن حكاما من أمثال : « وصيف » ، و « بغا » و « كيغلغ » ، و « ياجور » ، و « بايكبالك » ، و « بكالبا » ، و « يارجوخ » ، و « أصفجون » ، و « كاستمر » ، و « كنجسور » . و « تكين » ، و « اغرنش » . و « ابن كنداجيق » ، و « أساتكين » ، و « خمارويه » .

و« كاهور » ، و« كتبعا » ، و« كجك » ، و« جفمك » ، و« حوشقدم » ،
و« تمربغا » ، و« حاير بك » ، و« حسروا » ، و« خورشيد » ،
و« جركس » ، و« الكرجى » ، و« كولكيران » ، و« ارنافوط » ... الخ ...
الخ ... الخ ... من كان يتصور أن حكاما من أمثال هؤلاء الغرباء عن روح
الأمة وقوميتها وحضارتها ، تردهم في عهودهم ، وتحت سلطانهم ، فسما
العروبة القومية ، فتفعل فعلها ، وفي مقدمة هذا الفعل مصارعة هؤلاء
الحكام ، والثورة ضد استبدادهم تحكيم أمة هم عن قوميتها وروحها وطاقاتها
الحضارى غرباء .. غرباء ..!؟ ..

لقد كانت رابطة الملة والدين والاعتقاد هي الحيط الوحيد الذى يجمع بين
هؤلاء الحكام وبين الرعية العربية ، فأبرزوه وحيدا ، وجعلوا منه البديل ، بل
والنقيض ، الذى يبقى الرابطة القومية العربية .. وذلك خلافا لما استقر عليه
الأمر ، فكرا وتطبيقا ، فى تراثنا الدينى والحضارى ، قبل عصر الحمدود والحجة
والانحطاط ! ..

أما كيف استطاع هؤلاء الحكام « الأعاجم » أو « أشباه الأعاجم » أن
يشيعوا فى المناخ « الفكرى » دعوى تناقض « العروبة » مع رابطة
« الإسلام » ؟! وكيف استطاعوا تطويع بعض « علماء » الأمة و« فقهاء »
لهذه الدعوى ؟! .. فإن لذلك صلة وثيقة بذلك التطور الذى أصاب المؤسسات
الدينية خلال تلك العصور .

لقد اهتم هؤلاء الحكام ، من الإسلام ، بالشكل والرسوم ، فشهدت عمارة
المؤسسات الدينيه فى ذلك العصر تطورا جعل إقامة المساجد والمدارس والتكايا

والخواتق ، وصيانتها والإنفاق عليها ، أمرا عظيما . يتطلب الكثير من الأموال والجهود والنفقات .. الأمر الذى حتم اختصاص « الدولة » بتلك المهام .. ثم أوقفت على هذه المؤسسات الأوقاف الواسعة ، فكان أن تحول كثير من « العلماء » و « الفقهاء » - مثقفى ذلك العصر - إلى متفعين بريع هذه الأوقاف ، أى إلى « موظفين » لدى الدولة ، ففقدوا الاستقلال الذى كان يعيهم على النقد والاعراض على تجاوزات الحكام . وعرف العصر « وعاظ السلاطين والأمراء » - أولئك الذين برروا للسلطة تجاوزاتها ، ونظروا - أو على الأقل صمتوا - لاستبعاد قسمة العروبة أو دفعها للخلف . فكان أن اعتبرت الرابطة الإسلامية بديلا - وأحيانا نقيضا - للرابطة القومية العربية . ونظر البعض إلى العروبة نظرتهم إلى « العصبية الجاهلية » !! .. بل وعدت هذه المقولات الشاذة من المسلمات ! ..

هكذا - وفى ارتباط بالعصور « المملوكية - العثمانية » المظلمة - بدأت دعوى « التناقض » بين (العروبة) وبين (الإسلام) . ومن ثم فلقد كان لابد لهذه الدعوى أن تنهار بانقشاع ليل تلك العصور المظلمة عن حياة الإنسان العربى عندما استيقظ واستنار فى عصره الحديث .

الإسلام المعاصر .. والعروبة

لقد بدأت الدولة العثمانية في آسيا الصغرى . قوة عسكرية . فقط 1.. وظلت تلك ميزتها الأساسية . بل الوحيدة . إلى زمن طويل . و يوم فقدت هذه الميزة كانت قد فقدت كل ما لديها من رصيد ؟!..

ولقد استطاع العثمانيون . في عهد قوتهم . أن يقضوا مضاجع أوروبا بفتوحاتهم الأوروبية . كما ضموا لسلطنتهم أغلب أجزاء الوطن العربي في القرن السادس عشر الميلادي . ولعدة قرون كانت دولتهم الجدار الذي أنحر احتياح الغرب الاستعماري الطامع للوطن العربي . لكن هذا الجدار لم يستند إلى حضارة تدعم بنيانه . وترمم ثغراته . وتعهده بالمساندة والتجديد

وراد من خطر هذه السلبية ازدياد تجاوزات « الجند » ومظالمهم . والقوضى التي أشاعوها في الأقاليم والولايات . وذلك لإحساسهم بأنهم كل مالمدي « الدولة » من رصيد وإمكانيات .. تم كانت محاولات « الدولة » موازنة قوة « الجند » بنفوذ « الولاة » وسلطة بقايا « المالك » . الأمر الذي أشاع عدم الاستقرار وتضارب المصالح والأهواء في ربوع السلطنة . فاستفحلت مظاهر التخلف والجمود الحضاري في البلاد ...

وزاد الطين بلة أن العثمانيين قد اتخذوا موقفا شذوا به عن « الأسر »

و « الدول » غير العربية ، التي بسطت سلطانها على العرب من قبلهم ، فتلك قد تعرضت - على تفاوت نجاحها في امتلاك القسائم العربية ، وارتقاءها وعمقها فيها - أما العثمانيون فلقد شذوا عن هذا السبيل عندما احتفظوا بتركيتهم ، حتى لقد احتقروا العرب والعروبة ، بل لقد راودتهم أحلام « تبريك » الرعية العربية ، فكانوا البادئين لتلك المأساة التي تلقفها وزادها دعما وبلورة وتشجيلا أعداء العروبة والإسلام ، مأساة « التناقض » بين العروبة والإسلام ! .. كما كان صراعهم ضد العرب وقسماتهم القومية من أعظم العوامل الداخلية التي عجلت بزوال سلطنتهم المترامية الأطراف ! ..

ومضافا إلى عوامل الضعف الذاتية والداخلية هذه ، كان سعى أوروبا الاستعمارية للإجهاد على هذه الدولة العثمانية ، التي تحتفظ بذلك « الرمز » الذي أرق الغرب ، تاريخيا ، ولا يزال يؤرقه ، وهو وحدة الشرق والعرب تحت أعلام الخلافة والإسلام .

ولقد تضافر هذان العاملان ، الداخلي والخارجي ، فزادا من ضعف العثمانيين ، حتى غدا الجدار الذي مثله أمام أطماع الغرب ، لعدة قرون ، مليئا بالثغرات ! .. ولقد كانت الامتيازات الأجنبية التي منحها السلاطين العثمانيون للبورجوازية الأوروبية ودولها واحدة من صور التسلل الاستعماري إلى عالم العروبة والإسلام من ثغرات هذا الجدار ... هذه الامتيازات التي منحت « للبلندقية » سنة ١٥٢١م ، و « لفرنسا » سنة ١٥٧٩م ، و « لإنجلترا » سنة ١٥٧٩م ، و « لهولندا » سنة ١٥٩٨م ، و « لروسيا القيصرية » سنة ١٧٠٠م ، و « للسويد » ١٧٣٧م ، و « لبابلي » سنة ١٧٤٠م ، و « للدانمارك » سنة

١٧٥٦م . و «لبروسيا» سنة ١٧٦٧م . و «لأسبانيا» سنة ١٧٨٢م .
و «للولايات المتحدة الأمريكية» سنة ١٨٣٠م ، و «لبلجيكا» سنة
١٨٣٧م . و «لبرتغال» سنة ١٨٤٣م . و «لليونان» سنة
١٨٥٤م !!٢٢! (١) ..

ثم تطور هذا التسلل وتزايد هذا النفوذ الاستعماري حتى أجبرت الدول
الاستعمارية الدولة العثمانية على التنازل - عمليا - عن العديد من ولاياتها ، بعد
أن تحول النفوذ الاستعماري فيها إلى احتلال سافر وغاشم ففي فترة لم تتجاوز
الأربعين عاما ، ومنذ اعتلاء السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٤٢ - ١٩١٨م)
عرش السلطنة في سنة ١٨٧٦م وحتى اندلاع الحرب العالمية الأولى سنة
١٩١٤م . أجبرت الدولة العثمانية على أن تتنازل - رسميا أو واقعا - لروسيا
القيصرية عن عدد من المقاطعات الغنية في آسيا الصغرى . ولبريطانيا عن
قبرص ومصر - ومن قبل ذلك عن عدن - وفرنسا عن تونس والمغرب - ومن
قبل ذلك عن الجزائر ، وإيطاليا عن ليبيا ، وللمنمسا عن البوسنة والهرسك ...
وذلك بالإضافة إلى المقاطعات البلقانية التي خلعت النير العثماني في خضم المد
الاستعماري الزاحف على دولة الرجل المريض ! (٢) .

* * *

وعند هذا الحد من الضعف والعجز العثماني . وأمام هذا الخطر الاستعماري

(١) د محمد عمرة «محر اليقظة القومية» ص ٣٦٩ . ٣٧٠ طبعة القاهرة . الثانية . سنة ١٩٧٥ م
(٢) جورج أنطويوس «يقظة العرب» ص ٢٧٠ . تعريب على جيدر الركاسي طبعة دمشق سنة
١٩٤٦ م .

الذى بدأت طلائعه العسكرية ، ممثلة فى حملة بونابرت سنة ١٧٩٨م . رحفها خلف أعلام التجارة ومصالح التجار ... أمام ذلك الضعف وهذا الخطر بدأت انتفاضة جسد الأمة العربية ويقظة عقلها . فأخذت سبيلها للبحث عن الذات . فكانت حركة يقظتها وتحددتها الدافى . محاولة لتجاوز الواقع . بما فيه من عوامل الضعف الداخلى والتخلف الحضارى الذى كرسه طول الليل العثمانى . ومواجهة للخطر الاستعمارى الخارجى . الذى مهد الطريق أمام زحفه ضعف العثمانيين ..

هنا . وفى هذا المنعطف التاريخى المصرى واجهت الأمة العربية ذلك الموقف الذى واجهه أسلافها قبيل ظهور الإسلام . يوم عجز الفرس - وهم شريقون - عن قيادة الشرق فى صراعه التاريخى ضد الغرب . برعامة الروم البيزنطيين . فكان أن تكرس الاحتلال والقهر الحضارى والقومى الذى بدأ بانتصار الاسكندر الأكبر (٣٥٦ - ٣٢٤ ق م) ... ويومها . ونحاه هذا الخطر الغربى . انتزع العرب . بالإسلام وتحت أعلامه . زمام قيادة الشرق من الفرس . فأزاحوا الخطر الغربى عن المنطقة بالفتح والدولة والحضارة التى بنوها . بل وطاردوا هذا الخطر . عبر البحر المتوسط . فى بعض مواطنه ذاتها ! ^(١) ..

لقد سيطرت . منذ القرن الثامن عشر الميلادى . على العالم العربى ملابسات هذا الموقف . فبدأ العرب سعيهم . على طريق اليقظة والنهضة

(١) انظر فى ذلك كتابنا « العرب والتحدى » ص ٢٣ - ٤٩ طبعة الكويت سلسلة « عالم المعرفة » مايو سنة ١٩٨٠م

لانتزاع زمام قيادة الشرق من آل عثمان . الذين عجزوا عن حماية المنطقة من الغرب الطامع . فكانت اليقظة العربية . وروابط العروبة . والقومية العربية وحركتها . الطريق الذى فرضه عليها الأعداء ! . وكان ذلك السباق والرهان الذى قام . من حول دولة الرجل المريض . بين حركة العروبة والقومية العربية وبين الغرب الاستعماري . أيهما يسبق فيكسب الرهان ؟!

كانت تلك هى القضية التى حركت عوامل المقاومة فى روح الأمة العربية وعقلها وجسدها .. ولذلك وجدنا معالمها فى ثنايا كل دعوات اليقظة والتجديد والاصلاح والثورة . مهما تغايرت الأسماء واختلفت الأقاليم والديار

لكن الواقع المتخلف الذى واجهته قوى اليقظة والتحديد . وتقديا فكرية العصور الوسطى والمظلمة . عصور السيطرة المملوكية العثمانية . والتعصب القومى التركى المعادى للعروبة والقومية العربية . وسعى العرب الاستعماري الحثيث كى لا تتحد جهة شعوب الشرق بقيادة العرب .. كل ذلك قد حرم حركة اليقظة والتجديد من نقاء الفكر . ومن ثم من الوحدة . فذرت فى الساحة بذور التناقض والصراع « المفتعل » ما بين العروبة والإسلام . وبدلا من تبפור التضامن الإسلامى . بقيادة الأمة العربية . فى مواجهاة التحلف الداخلى والجمود الحصارى والخطر الاستعماري - كما سبق للشرق وتضامن بقيادة العرب المسلمين . ضد البيزنطيين . عندما ظهر الإسلام - بدلا من ذلك برزت - إلى جانب التيارات التى امتلكت الموقف الصحيح - تيارات قدمت الرابطة والجامعة الإسلامية كمقيص للرابطة والجامعة العربية . وانحاز بعضها لحده ضد تلك . أو لتلك ضد هذه ! .. فكانوا صورة عصرية - من حيث النتائج

والآثار - لشعوبى الأمس البعيد - أولئك الذين افتعلوا بين الإسلام والعروبة
تناقضا - أرادوا من ورائه هزيمة العروبة والإسلام جميعا؟! ..

* * *

● حصن الإسلام السلفى ... وحركاته التجديدية :

قسمة من قسبات هذه الأمة . تبغ أصالتها فى أبنائها حد « الفطرة » . هى
العودة إلى الإسلام . كدين وحضارة . تتحصن بحصنه . وتلوذ بأعطافه
وتستلهمه العون والرشاد . أمام المخاطر الكبرى التى تهدد منها الكيان وتزلزل فيها
الأركان ! ... ولذلك فلم يكن غريبا أن تكون طلائع حركات اليقظة العربية
التي أفرزتها أمتنا تجاه الخطر الذى أشرنا إليه . طلائع إسلامية . سكت سبيل
الإصلاح الدينى لبعث روح المقاومة فى كيان الأمة كى تواجه العثمانيين
وشعوذتهم التي سموها اسلاما . وتتصدى للغرب الاستعماري الزاحف على ديار
الإسلام ...

وإذا كنا لانستطيع تصنيف هذه الحركات السلفية - التي ارتادت ساحة
اليقظة - فى عداد نيارات المد القومى العربى . بالمعنى الدقيق لهذا المصطلح
فإننا لانستطيع . كذلك . أن نغفل عن رؤية « البعد القومى العربى » الواضح
فى فكر هذه الحركات وممارساتها ...

● فالوهابية : التي قادها مؤسسها محمد بن عبد الوهاب (١١١٥ - ١٢٠٦هـ

١٧٠٣ - ١٧٩٢م) . والتي شهد الواقع العربى الإسلامى حركتها حوالى
منتصف القرن الثامن عشر . قد مثلت . على جبهة العروبة . واحدة من بواكير
حركات اليقظة الإسلامية . ذات البعد القومى والطابع العربى . التي تصدت

للعثمانيين .. فهي لم تقف عند التجديد السلبي لعقائد الاسلام - وهو موقف معاد لنمط الفكر العثماني المثقل بالشعوذة والخرافة - وإنما تقدمت فأقامت « دولة عربية » . وحاربت في سبيلها آل عثمان .. وعلى جبهة الفكر « الإسلامى - السياسى - القومى » كان نبى الوهاية لشرط « قرشية » الخليفة يعنى تبنيها لضرورة « عروبة الدولة » . أى الدعوة لإسقاط سيطرة العثمانيين وسلطانهم عن الأمة العربية .. ومعلوم - وهو أمر ذو مغزى ولا بد من الانتباه له - أن اشتراط « قرشية » الخليفة - أى عروبة الدولة وقيادتها - لم يظهر في تراثنا « الفقهي - السياسى » إلا عندما بدأ تغلب غير العرب على مقاليد الدولة ، في العصر العباسى الثانى . وبعد سيطرة العسكر الترك المالك في خلافة المتوكل العباسى (٢٠٦ - ٢٤٧ هـ - ٨٢١ - ٨٦١ م) .. فكان هذا الشرط موقفا قوميا . مع عروبة الدولة . وضد خضوع العرب لسلطان أعجمى . حتى ولو ندين بالاسلام ! ..

ومن هذا الباب كانت ريادة الوهاية - بالبعد القومى الذى كان لفكرها وممارساتها - على درب اليقظة العربية في عصرنا الحديث !^(١)

● والسنوسية : التى أسسها محمد بن على السنوسى (١٢٠٢ - ١٢٧٦ هـ - ١٧٨٧ - ١٨٥٩ م) في ليبيا والجزائر ومصر . والتى خاضت الحروب الطويلة والمريرة ضد الزحف الاستعمارى على أفريقيا . شمال الصحراء وجنوبها .. قد تعدت . هي الأخرى . نطاق التجديد الدينى . الذى امتزجت فيه السلفية

(١) انظر دراستنا عن « موقع الوهاية من حركة التجديد » مجلة « الموقف العربى » أكتوبر سنة ١٩٧٩ م والفصل الذى كتبناه عنها بكتاتنا « نيارات الفكر الإسلامى » طبعة بيروت سنة ١٩٨٥ م

بالصوفية ، إلى حيث كانت موقفا من مواقف اليقظة العربية . بما مثله من موقف غير ودى تجاه الضعف العثماني أمام الغرب الاستعماري وتجاه سيطرة العثمانيين !^(١)

● والمهدية : التي أسسها ، بالسودان ، محمد أحمد « المهدي » (١٢٦٠ - ١٣٠٢ هـ - ١٨٤٤ - ١٨٨٥ م) .. قد مثلت . هي الأخرى - ضمن ما مثلت - ثورة ضد الأتراك العثمانيين . ومن ثم رافدا من روافد حركة اليقظة العربية الإسلامية الحديثة . حتى لقد كان المهدي يقول لأنصاره : إن النبي - صلى الله عليه وسلم - قد « حرضني على قتال الترك .. وجهادهم . فالترك لا تطهرهم المواعظ ، بل لا يطهرهم إلا السيف ! »^(٢) . ويدعوهم إلى مخالفة الأتراك حتى في العادات والتقاليد والسلوك والأزياء !^(٣)

وإذا كان النطاق المحلي قد حد من فعاليات حركات اليقظة هذه . فحجب تأثيرها عن أن يعم فيتحول إلى تيار عربي إسلامي عام . وذلك لبداءة « الوهابية » . التي جعلتها غير ملائمة لما وراء « نجد » من المجتمعات العربية ذات المواريث الحضارية والتي بلغت شأنا بعيدا على درب العقلانية والمكر الفلسفي والمركب . فلم تعد ظواهر النصوص والمأثورات قادرة على أن تقدم لمشكلاتها الحلول ... ولاستغراق « السوسية » في مناهضة التحديات التي أثقلت كاهلها

(١) « العرب والنجد » ص ١٦١ - ١٧٥

(٢) « منشورات المهدي » ص ٧٤ - ٣٣٩ ، ٣٣٢ تحقيق د محمد إبراهيم سليم . طبعة بيروت سنة ١٩٦٩ م

(٣) المصدر السابق ص ١٦٦ . وانظر « العرب والنجد » ص ١٧٥ - ١٩٤

حتى أعجزتها .. ولاتخاذ « المهديّة » من الأسطورة سبيلا ألّفت به وحدة شعب لم يتوحد قبل هذا التاريخ ! .. إذا كان هذا هو الحال مع هذه الحركات الثلاث ، فإن الأمر لم يكن كذلك مع تيار اليقظة والتجديد الذي قاده جمال الدين الافغانى (١٢٥٤ - ١٣١٥ هـ - ١٨٣٨ - ١٨٩٧ م) . تيار : (الجامعة الإسلامية) ..

الجامعة الإسلامية .

فهذا التيار التجديدى . قد بدأ فى صورة محاربة مع المد الاستعمارى الغربى . لا فى ولاية أو إقليم . وإنما على امتداد الشرق العربى الإسلامى بأكمله .. ولقد أخذت حركة « الجامعة الإسلامية » هذه تجدد حياة الأمة الإسلامية وتوقظها وتسليحها . عن طريق تجديد الإسلام . لينتجول من شعوبة وخرافة تميّت روح الأمة . إلى طاقة ثورية تجابه بها الأمة أعداءها . ولقد كانت المستويات الحضارية التى بلغتها أكثر بقاع الشرق تحضرا يومئذ . وخاصة فى مصر . من العوامل التى حددت نمط التجديد الدينى الذى تميز فى فكر هذا التيار . فدعا أعلامه إلى :

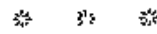
● « سلفية دينية » . تعود إلى المنابع الأولى والنقية والسيطة للإسلام . متجاوزة ومتخطية ومستقطبة الدغ والخرافات التى أثقلت العقل العربى الإسلامى بالقيود والأغلال .

● و « عقلانية إسلامية » : تستخدم العقل ورايهنه فى فهم الدين وفقه نصوصه ووعى مقاصده ومراميه .

● و «تحدد ذاتي» : يبعث من ترسانة الأمة الفكرية وتراثها الحضاري خير ما يعيها على مواجهة المهام المعاصرة ومحاربة التحديات .

● وإلى « النظر في الحضارة الغربية » ، من موقع مستقل ومتميز : لمعرفة أسرار تفوق الخصوم . وذلك حتى يمتلك هذه الأسرار . وتمثلها . ونستعين بها في الصراع ! ..

فكان أن تمثل في فكر هذا التيار الطابع المتوازن الذي ذهب مثلاً وعموداً للشخصية الحضارية لهذه الأمة على مر التاريخ ... سلفية في الدين ... وعقلانية في فهمه . ومن باب أولى في فهم سائر أمور الدنيا ... وبعث ذاتي تتألف قسامته وأسلحته من كل ما يصلح للتحريك نحو المستقبل وللعطاء في تراث الأمة . ومن كل جديد مستحدث تدعو إليه الحاجة . ولا يتنافر مع الطابع الحضاري المتميز لهذه الأمة ذات الميراث والتاريخ العريق ..



الموقف من العروبة :

أما موقف تيار (الجامعة الإسلامية) هذا من (العروبة) و (الجامعة العربية) و (القومية العربية) فإنه متميز كل التميز عن التيارات التي رفعت في تلك الحفظة أعلام الإسلام ورايات (الجامعة الإسلامية) ثم أهملت رابطة العروبة القومية أو اتخذت منها موقف العداء .. بل لا نغالي إذا قلنا إن هذا التيار قد قدم أصبح الصيغ الفكرية التي نفت التناقض ما بين العروبة والإسلام وذلك عندما قصد إلى بقضة إسلامية . وقضاض إسلامي . ووحدة فكرية

ونضالية للملة الإسلامية ، يقودها العرب ، المتميزون قومياً في المحيط الإسلامي الكبير ! ..

نعم .. لقد دعا هذا التيار إلى « الوحدة الإسلامية » ، بل وإلى « الجنسية - (أى القومية) - الإسلامية » .. لكن هذا لم يعن قط التسكر أو الإنكار لتمايز العرب القومى في المحيط الإسلامى . أو الغرض من شأن القومية العربية . أو الاعتقاد بوجود أى تناقض بين العروبة والإسلام ...

فهذا التيار يتبنى مصطلح « القومية » الإسلامية ، انطلاقاً من مضمون مصطلحات « القومية » و « الأمة » في تراثنا الحضارى ، لا من مضامين هذه المصطلحات في التراث القومى الأوروبى - وتلك قضية يغفل عنها الكثيرون - .. ومضمون مصطلحات « القومية » و « الأمة » في تراثنا الحضارى تعنى . ضمن ما تعنى : الجماعة : فجماعة المسلمين هم . إذن . « القومية » الإسلامية و « الأمة » الإسلامية . دون أن يعنى ذلك توافر قسائم الأمة أو القومية - كما هو حالها في الفكر القومى الأوروبى - في جماعة المسلمين ... ودون أن يعنى هذا الاستخدام لمصطلحات « القومية الإسلامية » و « الأمة الإسلامية » إنكار تمايز العرب . كقومية وأمة . في المحيط الإسلامى الكبير ..

ويشهد لهذا الذى نقول دعوة هذا التيار إلى الجنسية والقومية والوحدة الإسلامية . في ذات الوقت الذى تحدث فيه عن العرب كقومية وأمة متميزة قومياً : بل وقائدة . في محيط المسلمين ! ..

ففي مجلة (العروة الوثقى) يكتب جمال الدين الأفغانى عن (الجنسية والديانة الإسلامية) . فلا ينكر رابطة الجنس القومية - أى القومية بالمعنى الذى تتداوله

اليوم - .. وإنما ينكر أن تكون هذه الرابطة من « الوجدانيات الطبيعية » التي تدوم أبدا . دون أن ترتبط . في الوجود والزوال . بالأسباب والضرورات وإنما يعتبرها من « الملكات العارضة على الأنفس » ترسمها على ألواحها الضرورات ! .. » . ثم يتحدث عن « غناء » - وليس « عداء » - الرابطة والجامعة الإسلامية . بالنسبة للمسلمين . عن الرابطة والجامعة القومية . ولكنه يضع لذلك شروطا تبلغ في مثالياتها حدا يجعلها إحدى المستحيلات في الواقع الذي كان يكتب فيه . بل والذي نعيش نحن فيه .. شروطا من مثل : أن يكون الحكم لله . والسلطان لشريعته . بحيث يتنى أثر تميز الحاكم قوميا عن المحكومين . فلا ينفرد العربي من سلطة التركي . ولا الفارسي من سيادة العربي ولا الهندي من رئاسة الأفغانى .. الخ^(١) ومعلوم للكافة أن الافغانى وتيار (الجامعة الإسلامية) إنما كان يناضل لتحرير هذه القوميات المسلمة من الاستبداد ، داعيا إلى اختيار الشعب الحاكم الذي يريد !

وعندما كتب الأفغانى في (العروة الوثقى) عن (الوحدة الإسلامية) وضع يدنا على مفهوم « للوحدة » التي تنبع من رابطة الملة والدين . فإذا هي « التضامن » . تضامن الملة الإسلامية ، وتساندها ضد أعدائها ، واستلهاها القرآن لتجديد حياتها الدينية والدينية . وليست « الوحدة السياسية » المتجسدة في « الدولة » .. فهي إذن رابطة أعم وأوسع من تلك التي تقف فيها « الوحدة السياسية » عند حدود « الدولة القومية » : ومن ثم فلا تعارض بين « الوحدة

(١) « الأعمال الكاملة لحلال الدين الأعمش » ص ٣٤٨ - ٣٥٠ دراسة وتحقيق د محمد عمارة . طبعة القاهرة - الأولى - سنة ١٩٦٨ م

الإسلامية » . هنا وبهذا المعنى . وبين « القومية » و « دولتها » . بأى حال من الأحوال ... فبعد أن تحدث الأفغانى عن المخاطر الاستعمارية التى تستفز المسلمين إلى التقارب والتضامن والاتحاد . والتى لا بد من توظيف « الأخوة الدينية الإسلامية » فى سبيل دفعها . وذلك حتى يقيم المسلمون . بالوحدة سدا يحول عنهم هذه السيول المتدفقة عليهم من جميع الجوانب ؟ ! بعد هذا . وعقبه حدد مفهومه لهذه « الوحدة الإسلامية » . فقال : « لا ألتبس بقولى هذا أن يكون مالك الأمر فى الجميع شخصا واحدا . فإن هذا ربما كان عسيرا . ولكى أرجو أن يكون سلطان جميعهم القرآن ووجهة وحدتهم الدين . وكل ذى ملك على ملكه . يسعى بمجده لحفظ الآخر ما استطاع ، فإن حياته بحياته . وبقاءه ببقائه . ألا أن هذا . بعد كونه أساسا لدينهم . تقضى به الضرورة . وبحكم به الحاجة فى هذه الأوقات ! »^(١)

وفى موطن آخر . يتحدث الأفغانى عن « وحدة النوع الإنسانى » . الذى يتخذ الكرة الأرضية له « وطنًا » .. ثم يصيف : إن اختلاف الأقاليم قد أثر اختلاف الخواص التى تتميز بها الشعوب ، وهذه الخواص هى : « اللغة » - (اللسان) - . و « الأخلاق » ، و « العوائد » ، و « الإقليم » - (الأرض - الوطن - البيئة) - . وهى نابعة من طبيعة الإقليم الذى تعيش فيه الجماعة البشرية .. ثم يضاف إليها عامل خارجى هو « الدين » ... هو وحدة النوع الإنسانى . تعود فتوزع إلى « أقوام » و « شعوب » بفعل هذه الخواص والقسمات « وتحت هذه المؤثرات تحصل للأقوام ميزة . وتتأصل فيهم محبة

(١) المصادر السابقه ص ٣٤٥

البقاء على ماؤلفهم ، والدود عنه ، واعتبار من خالفه أنه ليس منهم ، بل هو
غيرهم بمعنى الغيرة المطلقة ! »^(١)

فهناك ، إذن - عند الأفغانى - دوائر ومستويات - فالنوع الإنسانى
واحد ، لكن الخواص القومية توزعه إلى شعوب وقوميات ... وبين الملة
الإسلامية روابط مصلحة ووشائج اعتقاد لكنها لا ترقى إلى الحد الذى تجعل
الممكن والأصلح بالنسبة لهم هو الوحدة الاندماجية للدولة ، الأمر الذى يترك
الباب مفتوحا على مصراعيه للرابطة القومية ودولتها ...

ولحسن الحظ فإن فكر هذا التيار قد تناول هذا الموضوع صراحة ، ولم يتركه
لمجرد الاستنتاج والاستنباط ، وذلك عندما تحدث الأفغانى ، وغيره من أعلام
تيار (الجامعة الإسلامية) - من أمثال عبد الرحمن الكواكبي (١٢٧٠ -
١٣٢٠ هـ - ١٨٥٤ - ١٩٠٢ م) وعبد الحميد بن باديس (١٣٠٥ - ١٣٥٩ هـ -
١٨٨٧ - ١٩٤٠ م) - عن الموقف من العروبة والقومية العربية ، وعلاقة هذه
الرابطة والجامعة بجماعة الإسلام ورابطته ..

● فالأفغانى قد أدرك أن الدولة العثمانية قد فشلت فى تطوير الأقاليم العربية
التي حكمتها ، لأن الأتراك ، كقوم وجنس - كانت تغلب عليهم « البداوة »
و« خشونة العسكر » - لا يحسنون التعمير ، وهم ليسوا كالعرب الذين أجادوا
كقوم وجنس ، النهوض بهذه المهمة فيما فتحوا من أقاليم .. بل وأدرك أن هؤلاء
العثمانيين قد غدوا عقبة أمام نهضة هذه الأقاليم وعمرانها .. « فالدولة العثمانية ..

(١) المصدر السابق . ص ٤٢٧ ، ٤٢٨

بقيت سدا منيعا للأمم الخكومة منها ، يحول بينها وبين الأخذ بأسباب الحضارة
ومجاعة الأمم الراقية في مدنيّتها وعلومها وصنائعها .. »^(١)

● وهو يركز على السمات القومية ، وفي مقدمتها قسمة « اللغة » -
(اللسان) - فيرى فيها المعيار الذي يميز أمة عن أمة ، والرباط الذي يحفظ
وحدة الأمة ، والسبيل الذي يعيد هذه الوحدة إذا أصابها ما يصيب الأمم المجزأة
والمقهورة من تفتت وشتات .. وأيضا فهو يؤكد أن العرب أمة ، بصرف النظر
عن المذاهب والاديان التي تربط بين بعضهم وبعض الأمم الأخرى ، والتي تميز
بين بعضهم والبعض الآخر ، فيقول ، معلنا هذه الحقيقة القومية ، ومؤكدا على
بدايتها ! : « إنه لا سبيل إلى تمييز أمة عن أخرى إلا بلغتها .. والأمة العربية
هي « عرب » قبل كل دين ومذهب . وهذا الأمر من الواضح والظهور للعيان
بما لا يحتاج معه إلى دليل أو برهان ! »^(٢)

ثم يفصل الحديث عن دور اللغة القومية ، وكيف أن لها تأثيرا معويا
بجانب تأثيرها المادى ودورها كأداة تخاطب ، فهي وعاء الحضارة ، ومظهر
الوحدة النفسية ، وقبلة الفخر والولاء ، ثم هي الرباط الذي يشد الوحدة
القومية ويدعمها ، ويسر عودة هذه الوحدة في حال التفرق والتجزئة ، ذلك
أن « للسان - (اللغة) - غير تأثيره المادى - تأثيرا معويا .. ويكفى أنه من أكبر
الجوامع التي تجمع الشتات ، وتنزل من الأمة منزلة أكبر المفاخر ، فكم رأينا
دولا اعتصب ملكها الغير ، فحافظت على لسانها محكومة ، وترفت العرس

(١) المصدر السابق . ص ٢٣٢ . ٢٣٣

(٢) المصدر السابق . ص ٢٣٧

ونهبست بعد دهر ، فردت ملكها ، وجمعت من ينطق بلسانها إليها ، والعامل في ذلك إنما هو اللسان قبل سواه ، ولو فقدوا لسانهم لفقدوا تاريخهم ، ونسوا مجدهم ، وظلوا في الاستعباد إلى ما شاء الله !..»^(١)

● ولم تكن العروبة عرقاً أو تعصباً للجنس عند الأفغانى ، بل لقد خاض صراعاً فكرياً ضد المستشرق الفرنسى أرنست رينان Renan (١٨٢٣ - ١٨٩٢م) عندما انطلق من مطلق عرق فزعم أن « أكثر الفلاسفة الذين شهدتهم القرون الأولى للإسلام كانوا ، كتابه السياسيين ، من أصل حرانى أو أندلسى أو فارسى أو من نصارى الشام .. وليسوا عرباً .. » . خاض الأفغانى صراعاً فكرياً ضد هذا المفهوم العرقى ، وخلص - وهو العربى نسباً وفكراً - إلى أن كل الذين تعربوا ، وأصبحت العربية لغتهم ، والولاء لحضارتها موقفهم هم عرب ، بصرف النظر عن الأصول العرقية لأسلافهم والمواريث الحضارية لأجدادهم ، فلفت نظر رينان إلى « أن الحرانين كانوا عرباً ، وأن اللغة العربية كانت إلى ما قبل الإسلام بعدة قرون لغة الحرانين ، وكونهم قد حافظوا على ديانتهم القديمة ، وهى الصابئة ، ليس معناه أنهم لم ينتموا إلى الجنسية - (القومية) - العربية .. وأن العرب لما احتلوا أسبانيا ظلوا عرباً .. وقد كانت أكثرية نصارى الشام عرباً عسائين ، اهتموا بالنصرانية .. أما ابن ماجه وابن رشد وابن طفيل ، فلا يمكن القول بأنهم أقل عربية من الكندى بدعوى أهم لم يولدوا في جزيرة العرب ، وخصوصاً إذا اعتبرنا أنه لا سبيل إلى تمييز أمة عن أخرى إلا بلغتها .. »^(٢) .

(١) المصدر السابق . ص ٢٢١

(٢) المصدر السابق . ص ٢٠٩

فالعروبة ، إذن ، ليست عرقا ولا نسا ، وإنما هى لغة وآداب وتكوين
نفسى وحضارة وولاء ، وذلك كله أمر مكتسب ، وليس وفقا على التوارث
المحكوم ببقاء الدم الجارى من الأصول إلى الفروع ، وهذا الأمر المكتسب هو
الذى نعبر عنه « بالتعرب » .. وهو ما حدث لأبناء الشعوب التى قطنت فى
الوطن العربى ، من المحيط إلى الخليج ، بعد عصر الفتوحات ، سواء منهم من
دان بالإسلام أو بقى على دينه القديم « فلقد سارعوا ، جميعا ، عن طيب خاطر
وارتياح عظيم إلى التعرب .. فمصر ، بينما هى هرقلية رومانية .. أصبحت فى
قليل من الزمن إسلامية فى الأغلب ، عربية بالصورة المطلقة فى كافة مميزات
العرب ، وهكذا القول فى سوريا والعراق .. وأصبح المسلم أو المسيحى أو
اليهودى ، فى مصر والشام والعراق ، يحافظ كل منهم قبل كل شىء على نسبته
العربية ، فيقول : « عربى » . ثم يذكر جامعته الدينية .. والأغرب أن التركى
والجركسى والأرمن ورومى وغيرهم من العناصر ، يستعرب متى وجد أو سكن
فى بلاد العرب بأقرب الأوقات . ويمتزج فى المجموع ، حتى نحال أنه (عربى
قح) .. »^(١) .

● ولم يقف إيمان تيار (الجامعة الإسلامية) - ممثلا فى مجال الدين
الأفغانى - عند حد الحديث عن أهمية القسماة القومية العربية ، وتمايز العرب
قوميا فى المحيط الإسلامى .. ولا عند حدود الدعوة لانصاف العرب من الترك
ومساواتهم بهم فى إطار السلطنة - وهى الدعوة التى وقف عندها (تيار
العثمانية) - بل أراد الأفغانى أن يستل من الواقع أسباب الصراع ما بين العرب

(١) المصدر السابق . ص ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢٣ .

والترك - وهو الصراع المضعف للطرفين ، والمهد للغزوة الاستعمارية الحديثة - لا بمجرد المساواة بين القوميتين ، بل بالدعوة إلى « تعريب الترك » ، وتحولهم إلى جزء من « الأمة العربية » .. أى حسم الصراع لحساب العروبة وقوميتها . ذلك أن هذا التيار كان يسعى لتجديد حياة الشرق والشرقيين ، دينيا وسياسيا ، وفي ذمه النموذج الذى صممه الإسلام بهذا الشرق فى عصر الفتوحات ، يوم قاد العرب شعوب الشرق ضد البيزنطيين ، ثم تعربت هذه الشعوب ، وصغت كأمة جديدة ، الحضارة العقلانية الشابة التى علمت أمم الدنيا وشعوبها .. فكما دعت الضرورات العرب ، بالأمس البعيد ، إلى قيادة المنطقة ، بعد أن عجز الفرس الساسانيون عن قيادتها ، كذلك تدعو الضرورات العرب اليوم إلى قيادة عالم الإسلام ، فى المواجهة مع الغرب الاستعمارى ، بعد أن عجز عن ذلك الأتراك العثمانيون ! ..

ولقد رأى الأفغانى فى « شدوذ » الأتراك عن أن يتعربوا - كما تعربت من قبلهم « الدول » : الأيوبية ، والمملوكية ، والبوسنية ، ومحمد على وأسرته .. إلخ .. إلخ - رأى فى ذلك العقبة المانعة من إحراز هذا التحول التاريخى فسعى إلى السلطان عبد الحميد ليقنعه بأن تعرب الدولة العثمانية ، ذاكر أنه إن هذا المشروع كان من رأى السلطان محمد الفاتح (١٤٢٩ - ١٤٨١ م) والسلطان سليم (١٤٦٧ - ١٥٢٠ م) .. لكن السلطان عبد الحميد رفض هذا المشروع القومى العربى ، واستراب فى مسعى الأفغانى بهذا السبيل ، فسجل الرجل موقفه الفكرى هذا فى صفحات كثيرة قال فيها : « لقد أهمل الأتراك أمرا عظيما .. وهو اتخاذ اللسان العربى لسانا للدولة ، ولو أن الدولة العثمانية اتخذت اللسان العربى لسانا رسميا ، وسعت لتعريب الأتراك لكانت فى أمنع قوة ..

ولكنها فعلت العكس ، إذ فكرت بتريك العرب ، وما أسفها سياسة واسقمه من رأى ؟! إنها لو تعربت لانتفت من بين الأمتين النعرة القومية ، وزال داعي النشور والانقسام ، وصاروا أمة عربية ، بكل ما فى اللسان من معنى . وفى الدين الإسلامى من عدل . وفى سيرة أفاضل العرب من أخلاق . وفى مكارمهم من عادات . لكن . مع الأسف ، كان عدم قبول فكرة تعميم اللسان العربى خطأ بينا ... لو أنصف الأتراك أنفسهم . وأخذوا بالحزم واستعربوا ... فمن كان من دول الأرض أغنى منهم مملكة ؟ أو أعز جانباً ؟ أو أمتع قوة ؟! .. إننى أحزن وأتأثر كلما افتركت بما ارتكبه من الخطأ فى عدم قبولهم اللسان العربى ، لسان الدين الطاهر والأدب الباهر ، وديوان الفضائل والمفاخر ، باللسان التركى !! .. ذلك اللسان الذى لو تجرد من الكلمات العربية والفارسية لكان أفقر لسان على وجه الأرض . ولعجز عن القيام بحاجات أمة بدوية . ولولا أنه خليط من ثلاثة ألسن لما رأينا للأتراك شعراً يقرأ أو بياناً يترجم عن جنان ، وهو فى حالته هذه إذا وزن مع لسان من الألسنة الحية تجده قد خف وزناً وانحط معنى ... فكيف يعقل تترك العرب ، وقد تبارت الأعاجم فى الاستعراب وتسابقت ، وكان اللسان العربى لغیر المسلمين ، ولم يزل . من أعز الجامعات وأكبر المفاخر ، فالأمة العربية هى « عرب » قبل كل دين ومذهب ... لقد كاشفت السلطان عبد الحميد فى أكثر هذه المواضع ، فى خلوات عديدة ، ولكنه كان قليل الاحتراف بكل ماقلته له .. فحولت وجهى عن مالا يمكن إلى مايمكن ، وفيه وقاية مانق من أملاك السلطنة العثمانية فى غير أوروبا ! .. »^(١) .

(١) المصدر السابق ص ٢٢٤ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧

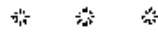
وعبد الرحمن الكواكبي - وهو من أبرز أعلام تيار (الجامعة الإسلامية) في المشرق - يواصل السعي على هذا الدرب الذي عبده الأفغاني ، فيدين شنود الأتراك العثمانيين عن « التعرب والاستعراب » ، على عكس ما صنعت الدول غير العربية التي سبقت وحكمت جماعات عربية ، فلقد « تحلقت - تلك الدول - بأخلاق الرعية ، وتكلمت بلغتها ، فأخلاقها ، فجنسيتها .. كآل بويه ، والسلجوقيين ، والأيوبيين - والجراكسة ، وآل محمد علي ، فإنهم مالبتوا أن استعربوا . وتحلقوا بأخلاق العرب ، وامتزجوا بهم ، وصاروا جزءا منهم ... ولم يشد في هذا الباب غير المغول الأتراك ، أي العثمانيين ، فإنهم بالعكس يفتخرون بحفاظتهم على غيرية رعاياهم لهم ... »^(١)

أما الأمر الذي انصرف إليه الأفغاني ، كي يحققه ، ورآه ممكنا ، بعد أن عجز عن إقناع السلطان العثماني بتعريب الدولة ... وهو إنقاذ الولايات العثمانية غير الأوربية ، أي الولايات العربية ، فلقد كان ، بكلمات أخرى ، وفي الممارسة والتطبيق ، ما سعى إليه هذا التيار التجديدي من إقامة الخلافة العربية على أنقاض خلافة آل عثمان ، ومن بناء الدولة العربية التي تصبح مركز جذب للأمة العربية ، والتي تبدأ مسيرة هذه الأمة نحو امتلاك أمرها بيدها كي تعود إلى قيادة المنطقة والتصدى لمد الاستعمار ..

لقد أدرك هذا التيار التجديدي أن (الجامعة الإسلامية) لا تعنى العداء (للجامعة العربية) ، بل إنها تعنى : عقد لواء قيادة المحيط الإسلامي الكبير .

(١) « الأعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبي » ص ٣٢٣ دراسة وتحقيق : د محمد حمزة طبعه بيروت ، الثانية سنة ١٩٧٥ م

للأمة العربية .. « فالعرب - (كما يقول الكواكبي) - هم الوسيلة الوحيدة
لجمع الكلمة الدينية . بل الكلمة الشرقية . العرب أنسب الأقوام لأن يكونوا
مرجعا في الدين وقدوة للمسلمين . حيث كان بقية الأمم قد اتبعوا هديهم
ابتداء . فلا يأنفون عن اتباعهم أخيرا .. »^(١)



وكذلك صنع الجناح المغربي تيار (الجماعة الإسلامية) - التي تمثل في
ابن باديس . و (جمعية العلماء المسلمين بالجزائر) . عندما واحهوا المأساة التي
أقامها الاستعمار الفرنسي بالجزائر . مأساة السحق القومي والقهر الحضاري
وفرنسة الجزائر . كي تصبح الامتداد الفرنسي عبر البحر المتوسط تلك المأساة
التي كان من قسماتها :

● استبدال الفرنسية بالعربية حتى يصبح « الجزائريون »
« فرنسيين » ! .

● ومطاردة الإسلام . والحديث عن « أن عهد الحلال في الجزائر قد عبر وأن
عهد العليل قد بدأ » وأنه سيسمر إلى الأبد .. » .

● والسعي إلى جعل الجزائر مهجرا للرجل الأبيض . حتى يصنع بالعصر
الوطني ما صنع بالهنود الحمر في الدنيا الجديدة . وبعبارة الكاتب الصهيوني
ماكس بوردو « فإن شمال أفريقيا سيكون مهجرا ومستوطنا للشعوب الأوربية .. »

(١) المصدر السابق ص ٣٥٨

أما سكانه الأصليون فسيُدفعون نحو الجنوب ، إلى الصحراء الكبرى ، إلى أن
يفنوا هناك ! » ^(١) .

أمام هذه المأساة ، وفي مواجهتها ، كان نضال التيار التجديدي ، الذي
قاده ابن باديس ، ممثل (الجامعة الإسلامية) بالمغرب العربي .. وكان اعتماد هذا
النضال على امتزاج العروبة بالإسلام ..

● فالعروبة مضمون حضارى ، غير عرقى ، إذ « تكاد لا تخلص أمة من
الأمم لعرق واحد » .. واللغة هي أهرر جامعات العروبة ، كأمة ، إذ « تكاد
لا تكون أمة من الأمم لا تتكلم بلسان واحد ، فليس الذى يكون الأمة ويربط
أجزاءها ويوحد شعورها ويوجهها إلى غاياتها هو هبوطها من سلالة واحدة
وإنما الذى يفعل ذلك هو تكلمها بلسان واحد .. » .. وهذا المعيار الحضارى
للعروبة أصيل وقديم - كما يتحدث عنه ابن باديس - فنذ ظهور الإسلام
حدد الرسول - صلى الله عليه وسلم - العربية وآدابها وعاء تنصهر فيه وبه
الطوائف والأجناس التى تعربت ، وجعلت ولاءها لهذا الوليد القومى العربى
الجديد ، وذلك عندما قال : « أيها الناس ، إن الرب واحد ، والأب واحد وأن
الدين واحد ، وليست العربية بأحدكم من أب ولا أم ، وإنما هى اللسان فن تكلم
العربية فهو عربى .. » ^(٢) .

(١) د محمد عمار « الأمة العربية وقضية التوحيد » ص ٩٤ . ٩٥ طبعة القاهرة سنة ١٩٦٦ م و

« العرب والتحدث » ص ٢٨٠

(٢) ابن باديس « كتاب آثار ابن باديس » ج ٤ ص ١٩ . ٢٠ إعداد وتصنيف الدكتور عمار

الطالبي طبعة الجزائر سنة ١٩٦٨ م

● واخزائر : عربية مسلمة .. وكما يقول ابن باديس فإنه « لا رابطة تربط ماضيا المجيد بحاضرنا الأعز والمستقبل السعيد إلا هذا الحبل المتين : اللغة العربية . لغة الدين . لغة القومية . لغة الوطنية المحروسة .. »^(١) .. ومهمة هذا التيار هي حراسة العروبة والإسلام . والعودة بالجزائر إلى الحصن المشيد من مزيجها ! .

● أما عن علاقة العروبة بالإسلام . والرباط بينهما . فإن ابن باديس يفيض في الحديث . فيقول - ضمن مايقول - : إنه « حق على كل من يدين بالإسلام . وزيتى . يندى القرآن . أن يعتنى بتاريخ العرب ومدنيتهم وما كان من دولهم وخصائصهم قبل الإسلام . وذلك لارتباط تاريخهم بتاريخ الإسلام . ولعناية القرآن بهم . ولاختيار الله لهم لتبليغ دين الإسلام وما فيه من آداب وحكم وفضائل إلى أمم الأرض . وما كان الله ليجعل هذه الرسالة العظيمة لغير أمة عظيمة . إذ لا ينض بالجليل من الأعمال إلا الجليل من الأمم والرجال ! . »^(٢)

وليس في هذا الاختصاص الإلهي للعرب والميزة الإسلامية لقوميتهم ما يتعارض مع عالمية الدين « فمحمد - صلى الله عليه وسلم - وهو رسول الإنسانية . كانت أول عنايته موجهة إلى قومه .. فكان أول دعوته لعشيرته .. ثم وجه دعوته إلى بقية العرب .. ثم عمم دعوته .. ولقد أخره الله أن القرآن -

(١) د . محمد عمار « مسلمون ثوار » ص ٢٦١ طبعة بيروت سنة ١٩٧٩ م

(٢) « كتاب آثار ابن باديس » ج ٤ ص ٥٩

(الذى هو للناس كافة) - شرف له ولقومه العرب . فقال تعالى : (وإنه لذكر لك ولقومك) .. «^(١)

بل لقد جاءت عروبة القرآن في الإسلام ، سييلا لنشر العربية بين الذين يتدينون بهذا الدين ، إذ بدونها لن يكون هناك الفقه الحق لهذا الكتاب العربى المبين ، ومن ثم كان الإسلام سييلا لاتساع دائرة العروبة . بالمعنى القومى . ذى المضمون الحضارى ، وتلك قمة الامتزاج بين العروبة والإسلام .. وبعبارة ابن باديس « فإن العرب قد رشحوا لهداية الأمة ، وإن الأمم التى تدين بالإسلام وتقبل هدايته ستتكلم بلسان الإسلام . وهو لسان العرب . فينمو عدد الأمة العربية بنمو عدد من يتكلمون لغتها ، ويهتدون مثلها بهدى الإسلام .. » ولذلك كان محمد - صلى الله عليه وسلم - بنظر ابن باديس « هو رسول الإنسانية .. ورجل القومية العربية ، والأمة العربية ، فى آن واحد .. نهتدى بهديه . ونخدم القومية العربية خدمته ، ونوجهها توجيهه . ونحيا لها ونموت عليها ؟ .. »^(٢) .

لكن ابن باديس لا يغفل عن أن الواقع لم يشهد امتداد العروبة إلى المدى الذى بلغه الاسلام . فهناك شعوب أسلمت ولم تتعرب . على حين تعربت الجماعة التى تقطن اليوم ما بين المحيط والخليج .. فما هى إذن طبيعة العلاقة بين العرب وبين غير العرب من المسلمين ؟

ها نجد ابن باديس واضحا ومحددا ... فالعرب : أمة فى القومية .. وفى

(١) الرحوف : ٤٤

(٢) «كتاب آثار ابن باديس» ج ٤ ص ١٧ - ١٩ . ٢١

السياسة .. والوحدة السياسية ، بمعنى وحدة الدولة ، أمر وارد ، بل واجب بين من يتمتعون منهم بالاستقلال عن مناطق نفوذ الاستعمار ... أما الأمم التي تجمعها رابطة الملة والاعتقاد الديني ، دون رابطة العروبة القومية ، فإن رابطة الدين تثمر لها وحدة في النواحي الأدبية والاجتماعية - دون السياسية - ومن ثم دون الدولة الواحدة - فلا بد . والحال كذلك من التمييز بين نوع الرابطة التي تربط أصحاب القومية الواحدة ، وبين تلك التي تربط بين قوميات يجمعها الدين بذات الدين .. فالعرب أمة ، في القومية والسياسة .. على حين كان المسلمون أمما في هذا الباب . يجمعهم جميعا رابطة الاعتقاد الديني ، وما اثمرت وتثمر من روابط أدبية واجتماعية .. ومن ثم فإن وجوب الوحدة السياسية ، في الدولة القومية ، لا يجب تعميمه في المحيط الإسلامي ، الذي يجب أن نقف بوحدة أممه وقومياته عند أشكال التضامن العقائدي والأدبي والاجتماعي ، تلك التي تنهض بها أمة الإسلام ، ممثلة في علمائها ومفكرها . لا في سياستها ورجالات دولها ! ..

أما نصوص ابن باديس التي ضمنتها افكاره هذه عن العلاقة بين « الإسلام العربي » و « الإسلام غير العربي » . فإنها تقول : « إذا قلنا : العرب . فإننا نعي : هذه الأمة الممتدة من المحيط الهندي شرقا إلى المحيط الاطلانطي غربا والتي تتعلق بالعربية . وتفكر بها . وتتغذى من تاريخها . وتحمل مقدارا عظيما من دمها . وقد صهرتها القرون في بوتقة التاريخ حتى أصبحت أمة واحدة هذه الأمة تربط بينها - زيادة على رابطة اللغة - رابطة الجنس . ورابطة التاريخ . ورابطة الأمل ، ورابطة الأمل فالوحدة القومية والأدبية متحققة بينها لا محالة .

ولكن .. هل بينها وحدة سياسية ؟

الوحدة السياسية لا تكون إلا بين شعوب تسوس نفسها .. وإذا نظرنا إلى الأمة العربية ، على ضوء هذه الحقيقة ، فإننا نجد منها شعوبا مستقلة استقلالاً حقيقياً . فهذه تمكن بينها الوحدة السياسية ، ونجب ... ثم نجد شعوبا أخرى مصابة بالاستعمار . فهذه لا وحدة سياسية بينها ولا بين غيرها .. مع شعورها التام بالوحدة القومية والأدبية العامة . والحفاظ عليها والمجاهرة بها ... »

أما المسلمون . الذين تتوزعهم عدة قوميات ، فإن علاقتهم شاملة للاحيتين . حددهما ابن باديس : « ناحية سياسية دولية وناحية أدبية اجتماعية .. فأما الناحية السياسية الدولية . فهذه من شأن أمهم المستقلة . وأما الناحية الأدبية الاجتماعية فهي التي يجب أن تهتم بها كل الأمم الإسلامية المستقلة وغيرها .. ١-٢ مهمة جماعة المسلمين . وهم أهل العلم والخبرة الذين ينظرون في مصالح المسلمين من الناحية الدينية والأدبية . ويصدرون عن مشاور ما فيه خير وصلاح . فعلى الأمم الإسلامية جمعاء أن تسعى لتكون هذه الجماعة من أنفسها ، بعيدة عن السياسة وتدخل الحكومات ، لا الحكومات الإسلامية ولا غيرها .. » (١) .

هكذا ميز ابن باديس بين طبيعة الرابطة القومية العربية ، وطبيعة الرابطة التي تربط بين عامة المسلمين .. فبين العرب رابطة سياسية . رابطة دولة واحدة .. على حين تقف الرابطة بين الأمم الإسلامية عند حدود الدين

(١) المصدر السابق ج ٣ ص ٣٩٨ ، ٣٣٩ ، ٤١١

والأدبيات والاجتماعيات ، ترعاها وتنظمها جماعة المسلمين ، ممثلة في قادة الفكر والرأى والعلم ، دون ان ترقى لوحدة الدولة ، ودون أن تصبح « ورقة » بيد الساسة يستغلون بها مشاعر التدين عند عامة المسلمين ؟..

* * *

هكذا ارتبطت « العروبة » بـ « الإسلام » في فكر تيار (الجامعة الإسلامية) ذلك الذى بنوره وقاده جمال الدين الأفغانى . وكان هذا الارتباط واحدا من الأدلة على أصالة هذا التيار ، الذى انطلق من التراث العقلاى للحضارة العربية الإسلامية ، وسعى ، بالتجديد الذاتى للأمة ، وبمضا عليها مع الحضارات الأخرى من موقع مستقل ومتميز وراشد ، إلى استشراف أكثر الآفاق استنارة وتقدما .. فانتفى ، فى فكر هذا التيار أى تعارض ما بين « العروبة » و « الإسلام » . بل أصبحتا مريجا يعكس مكانة « العروبة » فى الإسلام « الدين » ، والإسلام « الحضارة » ، ومكانة « الإسلام » باعتباره الرسالة الخالدة التى جعلت الجماعة العربية مركز القيادة لشعوب الشرق منذ نزل الوحي بهذا الدين على رسوله الأمين .

العثمانية السياسية :

وقريب من تيار (الجامعة الإسلامية) هذا ، كان التيار الذى نسميه تيار (العثمانية السياسية) .. والذى رأى أصحابه :

● أن العروبة رابطة قومية تجمع بين أبناء العرب ، الذين يكونون أمة واحدة ، بالمعنى القومى والسياسى ..

● وأن الرابطة الدينية ليست بديلا عن الرابطة القومية .. بل ولا هي بالصالحة ، منفردة ، لتأسيس الوحدة السياسية للجماعة والدولة ..

● وفي ذات الوقت فإن مطامع الغرب الاستعماري في الشرق تفرض على القوميتين ، العربية والتركية ، إقامة بنيان الدولة العثمانية على أساس من « الرابطة العثمانية » ، باعتبارها رابطة سياسية ، وليست دينية ، تملئها ضرورات التضامن والاتحاد في مواجهة الخطر الاستعماري الغربي . مع ضرورة المساواة بين هاتين القوميتين في الحقوق والواجبات ، وترشيح « اللامركزية » إطارا يضمن « الحرية القومية » في إطار « اتحاد الدولة » ..

ولقد تبلور العرب المناصرون لهذا التيار وانتظموا في عديد من الجمعيات والأحزاب ، التي لم تسلم من ملاحقة الدولة العثمانية واضطهاداتها ومن هذه الجمعيات :

١ - (جمعية الإخاء العربي العثماني) التي أعلن العرب تأسيسها بالقسطنطينية ، في ٢ سبتمبر ١٩٠٨ م . عقب عودة الدستور العثماني ، وفي بداية حكم (جمعية الاتحاد والترقي) العثمانية ..

ولقد أعلنت (جمعية الإخاء العربي العثماني) هذه أنها تسعى إلى : ● حرية الدستور ● وولاء مختلف الأجناس للسلطان ● وتحسين أحوال الولايات العربية العثمانية . على أساس المساواة بين العرب وغيرهم من أجناس الدولة ● ونشر التعليم باللغة العربية في المناطق العربية ● والسعي للمحافظة على العادات العربية .

لكن عمر هذه الجمعية لم يبلغ الثمانية أشهر ، إذا اصطدمت بتيار التعصب

التركي . الذي قاده (الاتحاديون) . والذي اتخذ من « المركزية » و « التريك » سيطرا ألهم بها ظهور القوميات غير التركية في الدولة . وخاصة القومية العربية . وظهر البون شاسعا بين دعوة هذه الجمعية إلى المساواة بين القوميات وبين انتخابات البرلمان التي أجراها الاتحاديون . فصنعوا بها برلمانا نسبة الترك فيه إلى العرب ٢٠٥ على حين كانت نسبة السكان العرب للترك هي ٣ : ٢٢! .. أما « مجلس الأعيان » ، المعين ، فلقد ضم ثلاثة من العرب . من أصل أربعين عضوا ٢٢! (١)

وبعد حل (جمعية الإخاء العربي العثماني) تبلور (تيار العثمانية السياسية) في :

٢ - (الجمعية القحطانية) التي تأسست - كجمعية سرية - في أواخر ١٩٠٩ م .. وسعت إلى تحويل الدولة العثمانية إلى دولة لا مركزية ، تضم مملكة عربية ذات برلمان خاص وإدارة خاصة . ولعبتها الرسمية العربية .. وفي ذات الوقت تظل هذه المملكة العربية جزءا من المملكة العثمانية ، التي يمثل سلطانها امبراطورية مزدوجة ، عربية وتركية . فيضع على رأسه تاجين يمثلان ممكيتها كما كان حال إمبراطور هابسبورج ، في فيينا ، والذي كان يحمل تاجي النمسا وأخر معا .. (٢)

وبعد أن حكمت الظروف بحل (الجمعية القحطانية) تحسدت فكرة « اللامركزية » في :

(١) « يقطله العرب » ص ١٠٩ - ١١٢

(٢) المصد. الثاني . ص ١١٩

٣ - (حزب اللامركزية الإدارية العثمانية) الذى تأسس ، بالقاهرة ، من العرب العثمانيين ، فى أواخر ١٩١٢م^(١) وهو الحزب الذى رعى « المؤتمر العربى الأول » الذى عقده ممثلو العناصر النشطة فى الحقل القومى بباريس من ١٨ - ٢٣ يونيو ١٩١٣م .. وفى هذا المؤتمر تبلور الفكر القومى العربى لتيار (العثمانية السياسية) فى :

- أن العرب أمة متميزة قوميا ..
- وأن العثمانية رابطة سياسية ، وليست دينية ، ذلك « أن الرابطة الدينية قد عجزت دائما عن إيجاد الوحدة السياسية » .
- وأن الهدف هو « إيجاد مجموع عثمانى قوى ، يرتقى فيه العرب ، بدون حائل يقف فى طريقهم ، وحكومة رشيدة يشارك العرب فى أمورها » .
- وأن قيام هذا المجموع العثمانى رهن باستجابة السلطنة العثمانية لهذه المطالب .. فإن هى رفضت ذلك ، فإن الاستقلال العربى ، وطرح الرابطة العثمانية هما الطريق ..^(٢)

وبتصاعد المد « الطوراني » ، و « المركزية » ، و « التتريك » ، الذى قاده « الاتحاديون » أخذت تذبل الآمال فى قيام (رابطة عثمانية سياسية) تجمع العرب والأتراك فى دولة اتحادية ... فسياسة التتريك التى بدأت منذ سلطنة

(١) المصدر السابق ص ١١٧

(٢) « المؤتمر العربى الأول » ص ٢٠ ، ٢١ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ . - من أحاديث

وحط رئيس المؤتمر عبد الحميد الزهاوى . وعبد الغنى العريسي طعة القاهرة سنة ١٩١٣ م

السلطان عبد الحميد قد عدت سيفاً بآترا ومصلاً على عرو العربية . أهم الجامعات وأعرها عند الأمة العربية .. وسعى السلطان عبد الحميد التاريخي . لتوظيف شعار (الجامعة الإسلامية) - كما فهمه وكما أرادته - في خدمة إحكام سيطرة الترك على غيرهم من القوميات التي تضمها الدولة . وعلى العرب خاصة هذا السعى قد أصبح . عند (الاتحاديين) قهراً وملاحقة ومحاکمات للقيادات المستيرة والنشطة في الحقل القومي العربي .. حتى بلغ الأمر الذروة بالإعدامات الشهيرة التي نفذها السماح التركي جمال باشا - بدمشق وبيروت . عامي ١٩١٥م و١٩١٦م . والتي علق فيها على أعواد المشاقق كوكبة من ألمع زعماء الحركة القومية العربية في ذلك التاريخ ..

وهكذا أغلق العثمانيون السبل أمام الحركة العربية والقوميين العرب .. بل وأمام المستنيرين العرب عامة .. فلم يعد هناك مجال للحديث عن (رابطة عثمانية) تجمع العرب والترك . بعد أن أصبح أولها شهيداً والثاني سباحاً ! . بل لقد خفت صوت (الجامعة الإسلامية) إذ لم يكر قد بقي من مضامين شعارها - خصوصاً بعد موت الأفغانى . وبعد يأسه من استجابة العثمانيين لهجه في الیقطة القومية العربية - لم يبق من مضامين شعارها - كما يفهمه الاتحاديون - إلا ما يعنى « التريك » ؟ ..

وعندما أغلقت كل السبل أمام الساعين لرابطة مانجمع العرب والترك انخرطت كل فصائل العمل القومي العربي على طريق (الجامعة العربية) وحدها . وفقط . فانعطفت الحركة القومية العربية بعيداً عن الحركة الإسلامية . وعاد الحديث عن « التناقض » بين (الجامعة الإسلامية)

و(الجامعة العربية) إلى الظهور . خصوصا وأن الحديث عن «الرابطة الإسلامية» كان . يومئذ . «سيئ السمعة !» - إن جاز التعبير - لارتباطه بدولة ظالمة ومستبدة ومريضة ومتهارة . ولما أصبح يعنيه . عند العرب . من قهر وسجن وشتق و«تريك» .

العروبة .. فقط :

وكسمة عامة . فلقد اشتركت فصائل اليقظة القومية . التي استبعدت ربط «العروبة» «بالإسلام» . ووقفت عند «العروبة» فقط .. اشتركت جميع هذه الفصائل في تبني (العلمانية) - صراحة أو صمتا - لأنها عندما خاضت معركتها ضد الدولة العثمانية . التي كانت تبرر مظالمها ونسائها على العرب بראطة الدين . لم «تميز» بين «إسلام آل عثمان» وبين «الإسلام الحق» .. فهي وإن ظلت على تدينها . إلا أنها قد طرحت «الإسلام السياسي» عندما طرحت الارتباط بالأتراك العثمانيين ! .. واشتركت هذه الفصائل أيضا في «الإعجاب» بالحضارة الأوروبية المتألقة . ورأت في طريقها السبيل لهضة العرب الحديثة .. وبهذين الموقفين المبدئين تميز هذا التيار عن تيار (الجامعة الإسلامية) الذي قاده جمال الدين الأفغاني .. فالعروبة عند تيار (الجامعة الإسلامية) كانت تعني تمايز العرب قوميا . وقيادتهم للمحيط الإسلامي الذي يرتبطون معه بروابط اعتقادية ومصلحية لا يصح قطعها ولا إغفالها .. والبعث الحضاري عند هذا التيار . وإن لم يعقل الاستفادة من إنجازات الحضارة الأوروبية . إلا أنه كان حديثا عن بعث حضاري عربي إسلامي متميز . تميز الإسلام بالنهج الوسطى الذي يوازن بين أقطاب في الظواهر يحسبها آخرون متناقضات لا سبيل إلى الجمع بينها ! .. أما التيار الذي وقف عند

(العروبة .. فقط) ، فإن ميبه إلى النهج العربى فى التحديث والإحياء كان واضحاً ، وعماماً فى فصائله كلها !..

وإذا شئنا أن نسلك معالم هذا التيار فى خيط يبرز مسيرته ، ويحدد ما طرأ عليه من تطورات ، فإننا نستطيع أن نكتشف ذلك فى اشارات تجمعها نقاط :

● فالهدايات الأولى لهذا التيار تمثلت فى « المشروع العربى » لامبراطورية محمد على العربية !.. فقسمه العروبة والإحياء القومى العربى كأننا سلاحاً من أسلحة محمد على فى صراعه مع العثمانيين - وذلك بصرف النظر عن المصدق وعن الدوافع - المهم أن صراع محمد على ضد العثمانيين قد أطلق العامل القومى العربى من عقاله ، للمرة الأولى فى العصر الحديث ..

فإبراهيم باشا (١٧٨٩ - ١٨٤٨ م) قائد الجيش المصرى فى حرب الأتراك بالمشرق (١٨٣١ - ١٨٤١ م) يعلن ، فى الجواب عن : الحدود التى ستقف عندها جيوش فتحه ؟ فيقول : « إلى مدى ما يتكلم الناس وأتفاهم وإياهم باللسان العربى ! »^(١) ... وعندما يقابله « البارون ليوالكونت » قرب « طرطوس » ١٨٣٣ م ، يكتب ، فى وصف فكره القومى العربى فيقول : « إن إبراهيم باشا يجاهر علناً بأنه ينوى إحياء القومية العربية ، وإعطاء العرب حقوقهم . وهو لا يفتأ يذكر جنوده بمفاخر الأمة العربية ومخدها التالى .. إن فكر إبراهيم باشا أن يجعل من الإمبراطورية التى أسسها أبوه دولة عربية بحثة أى أن يكون حكامها ورعيّتها وجنودها وصباطها من جنس واحد وأمة واحدة

(١) د. محمد عمارة « العروبة فى العصر الحديث » ص ١٦٩ طبعه القاهرة سنة ١٩٦٧ م

وأن يعيد إلى القومية العربية وجودها واستقلالها ، أسوة بلغتها وآدابها وتاريخها .. » ^(١)

ونفس التقييم لذات التجربة نجده عند الدوائر الانجليزية فالقنصل البريطاني بالاسكندرية يرصد الطامع العربي لمشروع محمد علي منذ وقت مبكر وقبل حرب الشام بعشر سنوات . فيكتب بتقريره المؤرخ في يناير ١٨٢٢م قائلا : « إن هدف محمد علي المباشر هو تثبيت سلطته تثبيتا تاما في ولايتي عكا ودمشق . وهو بعد ذلك يرمى إلى سيطرته على حلب ، بغداد . وجميع المناطق التي يتكلم أهلها اللغة العربية . وهو يسمى تلك البلاد : الجزء العربي من الإمبراطورية ! .. » ^(٢)

وبعد بداية حرب الشام . يكتب وزير الخارجية الانجليزي « بالمرستون » . في ٢١ مارس ١٨٣٣م . إلى وزيره في نابولي . قائلا : « إن هدف محمد علي الحقيقي هو إقامة مملكة عربية تضم جميع البلاد التي تتكلم اللغة العربية .. ونحن لا نرى سببا يبرر إحلال ملك عربي محل تركية في السيطرة على طريق الهند ؟! .. » ^(٣)

أما « بروكيش » . رئيس البعثة النمساوية التي أرسلها « مترنيخ » لتقصي حقائق مشروع محمد علي . هذا . فإنه يكتب عنه قائلا : « .. يبدو أن الاتجاه الأكيد هو نحو تكوين إمبراطورية عربية ، تشمل مصر والنوبة وسنار ودارفور

(١) المرجع السابق . ص ١٧٠ - ١٩٧٢ .

(٢) « بقطة العرب » ص ١٤ « هامش »

(٣) المرجع السابق ص ٢١ - ٢٢

وكردفان ، في أفريقيا ، وشبه الجزيرة العربية ، في آسيا ، حتى الخليج ، وتمتد على الشاطئ الأيمن للفرات لتشمل سورية بأسرها .. »^(١)

فأصحاب المشروع ، والفرقاء الآخرون الذين رصدوه وحددوا طبيعته وأبعاده - المحايدون منهم والمعادون - قد أجمعوا على أنه قد مثل ، فيما مثل حركة بعث وإحياء للقومية العربية ، كانت باكورة سعى هذه الأمة على طريق استقلالها القومي ، في العصر الحديث .

● وحتى بعد هزيمة المشروع العربي لمحمد علي ، بتحالف الغرب الاستعماري مع العثمانيين ضده . وبمعاهدة لندن ١٨٤٠م ، فإن « العكرة » قد بقيت حية في صفوف الحركة الوطنية المصرية .. وأينما تتردد في أوساط قادة الثورة العراقية .. ففي جلسة ضمت عراقي (١٨٤١ - ١٩١١م) ومحمد عبده (١٨٤٩ - ١٩٠٥م) وعبد الله نديم (١٨٤٥ - ١٨٩٦م) وحسن موسى العقاد ومحمود سامي البارودي (١٨٤٠ - ١٩٠٤م) وهم أبرز قيادات « الحزب الوطني الحر » الذي قاد الثورة ، يتحدث البارودي ، في ١٨ يونيو ١٨٨٢م ، عن مشروع مصر العربي فيقول : « لقد كنا نرمي ، منذ بداية حركتنا ، إلى قلب مصر جمهورية ، مثل سويسرا ، وعندئذ كانت تنضم إلينا سورية ، ويلبها الحجاز ... ولكننا وجدنا العلماء لم يستعدوا لهذه الدعوة - (دعوة الجمهورية) - ، لأنهم كانوا متأخرين عن زمنهم ، ومع ذلك سنجتهد في جعل مصر جمهورية قبل أن نموت ! »^(٢)

(١) « العروبة في العصر الحديث » ص ١٨٨

(٢) انظر دراستنا عن « الحزب الوطني الحر » مجلة الإذاعة والتليفزيون القاهرة - ١٥ مايو سنة

● أما في المشرق العربي ، فلقد بدأت الدعوة المنظمة إلى فكرة (العروبة .. فقط) في أحضان مدارس التبشير الغربية ، التي كانت طلائع المد الاستعماري الغربي في هذه المنطقة ، والأدوات التي مهدت الطريق لجيوش الغزاة ! .. وفي رصد هذه الظاهرة ، وفي وعي دوافعها وتطوراتها عبء بالغة لكل من ينظر في طبيعة العلاقة التي يجب أن تقوم بين (العروبة) و (الإسلام) ؟!

فالقوى الاستعمارية الغربية التي كانت متربصة بنهاية دولة الرجل المريض كي ترث تركتها ، قد اجتمعت ضد « المشروع العربي » لمحمد علي ، وناصرت السلطنة العثمانية .. فبدت وكأنها تنصر « الإسلام » على « العروبة » ! .. فلما زال خطر « المشروع العربي » على أطرافها ، بعد ١٨٤١م ، كان مصدر الخطر على مطامعها آتيا من الدولة العثمانية ، أي من « الإسلام » ! فاستدازت تشجع بواسطة إرساليات التبشير ، الفكرة العربية ، المستبعدة لمزج العروبة بالإسلام فكان أن تكونت تحت رعاية الامريكان ، ببيروت ، ١٨٤٧م أول جمعية ثقافية بشرت بـ (العروبة .. فقط) ، وهي (جمعية العلوم والفنون) ، التي ضمت عضويتها ناصيف اليازجي (١٨٠٠ - ١٨٧١م) وبطرس البستاني (١٨١٩ - ١٨٨٣م) وإيلي سميث ، وكونيلوس فاندايك ، والكولونيل - الانجليزى - تشرشل ، وكثيرا من الامريكان !٢.

ولقد حذا اليسوعيون - ومن ورائهم فرنسا - حذو الأمريكان ، فأقامت إرسالياتهم (الجمعية الشرقية) ١٨٥٠م ، تحت رعاية الأب هري دوبرونيير (١٨٢١ - ١٨٧٢م) .. !٣

وكانت عضوية هاتين الجمعيتين مقصورة على الأجانب والنصارى

العرب ... ولقد لعبنا دورا رائدا في إحياء اللغة العربية والتراث العربي بالشام
إذ كان ذلك موقفا عربيا في مواجهة التركية والتتريك !..

فلما كانت ١٨٥٧م تألفت (الجمعية العلمية السورية) التي شاركت
القيادات الإسلامية في تشكيلها ، مشرطة إبعاد المبشرين والأجانب عن
عضويتها ... ولقد استطاعت هذه الجمعية ، التي ضمت عضويتها قيادات
الطوائف الدينية العربية المختلفة ، أن تنهض بدور بارز في البعث الثقافي العربي
بل ودعت بعض منشوراتها وآثارها الأدبية - مثل قصيدة إبراهيم اليازجي
(١٨٤٧ - ١٩٠٦م) - إلى الاستقلال القومي والسياسي للعرب عن
الأتراك .. (١)

وبقدر ما كان الطابع العربي لنشاط هذه الجمعيات « الثقافية - القومية »
يتزايد ، حجما وصدقا ، كان تزايد ابتعاد الارساليات الغربية وأنصارها عن
مناصرة هذه الجمعيات .. فهم في البداية قد ناصروا « العربية » ضد
« التركية » ، فلما رأوا أن « العربية » توشك أن تملك المقاليد اتجهوا بالتعليم في
مدارسهم التبشيرية إلى لغاتهم الأوروبية ، حتى لقد أدى ذلك - كما يقول
جورج انطونيوس - : « إلى إبراز الخلافات الطائفية وتقويتها - وهي عقبة
تعترض طريق النهضة القومية - كما أدى انتشار التعليم الغربي في الشام إلى انتقال
قيادة حركة العرب القومية من النصارى إلى المسلمين ، لأنه قد أضعف الأثر
الروحي للثقافة العربية في عقول الطلاب ، الذين كانت أغليبيتهم الساحقة من
النصارى ! » (٢)

(١) « يقظة العرب » ص ٩ ، ٢٥ ، ٤٥ - ٤٩ (٢) المصدر السابق ص ٩٦ - ٩٩

● وفي ١٨٧٥م تأسست أولى الجمعيات السياسية - لا الثقافية فقط كما كان الحال من قبل - .. تأسست سرا ، وضمت النصارى والمسلمين ، وتعدى نشاطها نطاق بيروت فاتخذت لها فروعاً في دمشق وطرابلس وصيدا ، وافصحت منشوراتها عن برنامجها القومي الداعي إلى الثورة من أجل :

١ - استقلال سورية متحدة مع لبنان ..

٢ - والاعتراف باللغة العربية كلغة رسمية للبلاد .

٣ - والغاء الرقابة وكافة القيود التي تحول دون حرية الرأي وانتشار العلم .

٤ - وعدم استخدام الوحدات العسكرية المجنّدة من العرب خارج المناطق العربية ..^(١)

● وفي ١٩٠٤م كون نجيب عزوري . يباريس جمعية قومية ثورية هي (رابطة الوطن العربي) .. وفي السنة التالية أصدر ، بالفرنسية ، كتابه (نقطة الأمة العربية) .. وفي أبريل ١٩٠٧م بدأ يصدر مجلته الفرنسية (الاستقلال العربي) ... لكن جهود هذه الجمعية قد وقفت عند حد تعريف الفرنسيين بقضية العرب القومية ، دون أن تحدث أثراً يذكر على أرض الواقع العربي في المشرق ..^(٢)

● وبعد أن استولى (الاتحاديون) - (جمعية الاتحاد والترقي) - على السلطة في الدولة العثمانية ، واتسمت سياسة « المركزية » و « التريك » بالاعتف

(١) المصدر السابق ص ٧٩ ، ٨١ ، ٨٤ ، ٨٥

(٢) المصدر السابق ص ١٠٣ ، ١٠٤

والقسوة ، تكونت في مواجهة هذه النزعة « الطورانية » أهم جمعيتين قوميتين عربيتين (جمعية العربية الفتاة) التي تأسست بباريس ١٩١١م . ثم نقل مركزها إلى بيروت ١٩١٣م ، ثم إلى دمشق في العام التالي .. ولقد غلب الطابع الإسلامي على عضوية هذه الجمعية ، التي سعت إلى « تحقيق استقلال البلاد العربية ، وتحريرها من الحكم التركي وأية سيطرة أجنبية أخرى . »^(١)

أما الجمعية الثانية فهي (جمعية العهد) التي كونها الصاباط عزيز على المصري - (باشا) (١٨٧٩ - ١٩٦٥ م) - أوائل ١٩١٤ م والتي كانت بالنسبة للضباط العرب في الجيش العثماني بمثابة (العربية الفتاة) للمدنيين .

وفي ١٩١٥م تم الاتصال بين (العربية الفتاة) و(العهد) . بدمشق فتوحدت خططهما واجتمعت مواردهما استعدادا للثورة العربية على الأتراك الذين كانوا قد دخلوا الحرب العالمية الأولى في جانب الألمان ، ضد الحلفاء .^(٢)

لكن هذه المسيرة القومية العربية التي انخرط فيها عرب المشرق لم تؤت الثمرة المرجوة ... ولعل القدر كان يسخر عندما جعل إحهاض مشروعها العربي بفعل الغرب والترك ، معا ، رغم أنهم كانوا أعداء متحاربين ! .. فالأتراك قد أعدموا أبرز قيادات الجمعيات القومية العربية ، الأمر الذي جعل هذه الجمعيات تسلم زمام أمرها لقائد من خارج صفوفها ، هو الشريف حسين بن علي (١٨٥٦ - ١٩٣١م) الذي ، وإن لم ينقصه الطموح والحس القومي ، إلا أن ثقته في « الشرف » الانجليزي قد أدت إلى المأساة التي تمخضت عنها الحرب العالمية

(١) المصدر السابق ص ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٣٢

(٢) المصدر السابق ص ١٣٠ ، ١٣١ .

الأولى بالشرق .. فقابل وعود تميزت بالغموص في كثير من جوانبها ، أعل
الشريف ، من الحجاز ، ثورة العرب ضد الأتراك في ٥ يونيو سنة ١٩١٦ م ..
على حين كان الانجليز والفرنسيون والروس قد تبادلوا - سرا - قبل ذلك بشهر
واحد - في ٩ مايو - المذكرات حول معاهدة « سيكس - بيكو » التي اقتسموا
بها المشرق العربي ! ..

وباتهاء الحرب أعلنت المأساة ... فلسطين والعراق احتلها الانجليز ..
وسوريا ولبنان احتلها الفرنسيون .. وانتهى المطاف بالشريف حسين : ملكا
سابقا يعيش في قبرص منفيا ... ومع ذلك فلقد ظل على ثقته « بالشرف
الانجليزى » مُرجعا المأساة والغدر إلى شخص رئيس الوزراء « لويد جورج » ،
مترحما على روح « كتشنر » ! .. ففي حديثه إلى جورج انطونيوس في ربيع سنة
١٩٣١ م يقول : « إن الانكليز ، يا ولدى ، قوم شرفاء ، بالقول وبالفعل
وحين تقبل الأيام وتدبر . أقول : شرفاء . ولكن حضرة صاحب الدولة لويد
جورج بهلوان وثعلب ... رحم الله روح حضرة صاحب المعالي كتشنر ! » (١) .
فهل كان لقضية العرب القومية أن تنتصر في حلف مع الانجليز
والفرنسيين ؟ ! وتاريخهم معها وموقفهم منها هو ما أشرنا إليه ؟ ! .. وهل كان
لهذه القضية أن تنتصر بقيادة مثل قيادة الشريف حسين ؟ ! ..

البحث الإسلامى الجديد :

لو أن النصر قد حالف الحركة العربية بالشرق لكان الأمر حتى على التيار

(١) المصدر السابق . ص ٢٠٧

الإسلامى الذى لم يكن راضيا عن الوقوف عند (العروبة) فقط ، مفضومة
عراها عن (الإسلام) .. لكن الحرب العالمية الأولى قد انتهت بمأساة للجميع
فالوطن العربى قد سقط بأكمله تحت الاحتلال الاستعمارى الغربى ..
و « الخلافة » العثمانية قد أزالها « العلمانية » التركية التى تدعمها أتاتورك
(١٨٨١ - ١٩٣٨ م) سنة ١٩٢٤ م .. فلا الرمز والشكل « الإسلامى » بقيا
ولا العروبة انتصرت ! ..

وزاد من الخطر على ذاتية العرب المسلمين ، وطابعهم الحضارى المتميز أن
تيار (العروبة .. فقط) ، رغم تحوله من مخالفة الدول الاستعمارية إلى الثورة
عليها - بعد أن غدرت به ونقضت عهودها معه - إلا أن ولاءه قد ظل معقودا
للمحصارة الغربية ، يرى فيها : الحضارة الوحيدة ، وفى طريقها : طريق
التحديث الوحيد ..

وبعد فرض الغرب لسيطرته الاستعمارية على الوطن العربى ، وما وراءه من
بقاع العالم الإسلامى ، بدأت محاولات الغرب الجادة لاحتواء العرب والمسلمين
حضراريا ، فلقد تحول وطننا إلى « هامش لاقتصاد العرب » ، يقدم العمالة
الرخيصة ، والمواد الخام بالأثمان الرمزية ، وأصبح سوقا لسلع الحضارة الغربية
وأدواتها .. ولقد بدأت تلك السلع والأدوات تلعب دورها فى تحويل الشرائح
التي تسكن المدن ، وخاصة المثقفين منهم إلى الحياة على النمط الأوروبى
وساندتها فى ذلك الأفكار والقيم الوافدة مع الغزاة المنتصرين .. وزاد من فعالية
تيار « التغريب » هذا التآلق وهذه العظمة والظالة التى أحاطت بالحضارة
الأوربية ذات التقدم الذى بهر الأبصار والبصائر فى بيئة متخلقة أخذ بنوها
يقارنون هذه الحضارة وإنجازاتها الضخمة ، فى الصناعة والعلم والفكر والفن

بالتخلف والركاكة والبؤس الفكرى الذى عاشوا فيه قرونا طويلة تحت حكم
المماليك والعثمانيين .. ولقد أسهم فى زيادة الدهشة والانهار لدى الصفوة المثقفة :

١ - أن هذه الصفوة لم تعرف من تراثها سوى صورته « المملوكية -
العثمانية » . لأن الصلة كانت قد انقطعت بتراث « الإسلام - الحضارة » منذ
أن تراجعت حضارتنا عن النمو والعطاء .

٢ - أن حركة الاستشراق - فى مجملها - قد تعمدت بث روح الهزيمة فى
عقول الأمة وقلوبها ، بإبرازها الجانب المظلم من تراث أممتنا ، وردّها كل
إيجابياته إلى تراث أوربا اليونانى . الأمر الذى رسب فى العقول أن أممتنا لم تصنع
عبدا غابرا متميزا وخاصا ، فأنى لها أن تصنع شيئا من ذلك وهى على ما هى
عليه من الضعف الذى وصل بها إلى حد الهزيمة أمام الأوربيين أبناء الحضارة
الفريدة المنتصرة ؟ ! ..

٣ - أن مراكز التبشير بحضارة الغرب ، دينية وفكرية وتعليمية . قد سارت
على درب حركة الاستشراق ، فى نزع ثقة أممتنا ببلداتها ... ولقد كانت تلك
المراكز ، كما كانت حركة الاستشراق - الا قليلا منها - طلائع للمد الاستعمارى
الغربى ، نازلت عقول الأمة بالأسلحة الفكرية منازلة الجيوش الاستعمارية لحيوشنا
الوطنية سواء بسواء ! ..

٤ - أن جامعات الغرب ومؤسساته العلمية والفكرية كانت « المصنع »
الذى هيا « الكوادر » السياسية والفكرية الوطنية التى أخذت تشارك السلطة
المختلة فى إدارة مرافق البلاد .. حتى أصبحنا ندرس على أيدي أعداء العروبة
والإسلام كل شيء ، بما فى ذلك اللغة العربية وعقائد الإسلام ؟ ! ..

فكانت الثمرة : « تيار التغريب » الذى علا صوته حتى انفرد بالساحة . فى المدرسة والجامعة والمنتدى والصحيفة والكتاب والديوان ... والذى أجر التيار الدينى - الذى وقف به الجمود عند فكرية العصر العثمانى - على التوقع والانزواء .. وكانت مقولة : إن تقدمنا رهن بأن نصبح غربا فى الحضارة . وإن ذلك هو الطريق لنكون شركاء للغرب . بدلا من أن نظل هامشا تابعا .. كادت هذه المقولة أن تصبح مسلمة من المسلمات ! ..

ولقد كانت (العلمانية) واحدة من أبرز ثمار « تيار التغريب » . فالبورجوازية العربية وطلاتها المثقفة قد تعلقت « بليبرالية » الغرب . فى السياسة والاقتصاد . وكذلك تعلقت « بعلمانيته » . وبشرت بها فى ربوع البلاد - وكانت من قبل قد طبقت « العلمانية » فى حقل القضية القومية - ولقد زادها اقتناعا بالعلمانية أن صورة الإسلام عندها كانت هى صورته فى عصور الانحطاط . تحت حكم المماليك والأتراك العثمانيين . وهى صورة متقلبة ومشوهة بالشعوذة والخرافة التى غطت جوهر الإسلام الأصيل .. فهى لم تتعرف على « الإسلام : الحضارة » . لأن المستشرقين كانوا أعلم منها بالتراث .. كما لم تتعرف بشكل كاف على الإسلام كما قدمته مدرسة (الجامعة الإسلامية) .. لأن إسلام هذه المدرسة كان مضطهدا من الاستعمار . ومن تيار « التغريب » . ومن أهل الحمود الذين لا يزالون يعيشون مع المماليك والعثمانيين فى العصور الوسطى ١٢ .. ومن هنا كان بريق « العلمانية » . وكان النجاح الذى حققته عندما اكتسبت لها المواقع فى دوائر الفكر والسياسة ذات النفوذ والتأثير ..

وأمام هذا السحاح الذى حققه تيار « التغريب » . لاح الخطر فى الأفق

واضحاً وعظيماً .. فالوطن الذى تحول إلى « هامش لاقتصاد الغرب الاستعماري »
يوشك أن يتحول إلى « هامش لحضارته » ، ولو تم ذلك فستأبد التبعية
ويستحكم الاستغلال ! ..

وهنا عاد القانون القديم ليفعل فعله من جديد .. فتطلعت الأمة ، بالفطرة
والوعى معا ، إلى حصنها التقليدى العتيق ، إلى الإسلام ... وكان أن برز وتعاضم
تيار اليقظة والبعث الإسلامى ، الذى ولد هذه المرة ، « حزبيا - منظما » والذى
بدأ بتأسيس الشيخ حسن البنا (١٩٠٦ - ١٩٤٩ م) الجماعة (الإخوان
المسلمين) ١٩٢٩ م .. وهى الجماعة التى أصبحت أوسع حركات الإصلاح
الإسلامى وتنظيماته انتشارا بعالمى العروبة والإسلام فى عصرنا الحديث ...
ونحن نستطيع أن نرصد فى « إسلام » هذا التيار الإسلامى الحديث عددا من
الخصائص ، منها :

١ - أن الإخوان المسلمين ، كحركة إصلاح إسلامى ، لم يكن الإسلام
عندها هو إسلام علماء المؤسسات الدينية التقليدية ، أولئك الذين ظلوا واقفين
عند المتون والخواشى والتعليقات والتهميشات التى أثمرها عصر المماليك
والعثمانيين .. بل تقدم (الإخوان) خطوات ، فتجاوزوا فهم أهل هذه
المؤسسات للإسلام .

٢ - لكن الإخوان المسلمين لم يبلغوا فى فهمهم للإسلام وطرحهم
الحلول الإسلامية لمشكلات العصر ما بلغت حركة (الجامعة الإسلامية) ، التى
يلور فكرها الأفغانى ومحمد عبده .. فعقلانية تيار (الجامعة الإسلامية) لانجدها
عند (الإخوان) ، كما لانجدهم الجرأة فى تناول القضايا ، ولا الحسم إذا ما

عرضت لهم هذه القضايا .. وربما كان في مقدمة أسباب ذلك أن (الجامعة الإسلامية) لم تكن حزبا وتنظيما ينخرط فيه « العامة » وينهض بناؤه على « الجماهير » ، وإنما كانت حركة « صفوة » فكرية في الأساس ، فلذلك عرضت للمشكلات بجرأة ، وقدمت الحلول الحاسمة ، وسلكت لذلك سبيل العقل .. وهي سبيل إن لاءمت « الصفوة » فقد لا تلائم « العامة » و « الجمهور » ! .. وتلك قضية لا تخطئها عين الباحث في المجتمعات المختلفة ، وفي أى مرحلة من مراحل التاريخ .. وفي تراثنا أمثلة تشهد لذلك ، (فالمعتزلة) ، مثلا ، كانت تقل « شعبيتهم » ويتقلص « جمهورهم » كلما زادت قسمة الفكر « الفلسفى » في بائهم النظرى ! ... ولذلك فإننا نستطيع أن نقول : إنه إذا كان علماء الدين في المؤسسات التقليدية قد نهضوا بدور « وعاظ الأمراء والسلاطين » فإن دعاة (الإخوان المسلمين) قد نهضوا بدور « وعاظ العامة والجماهير » ، وغاب « الفكر » - بمعناه الخاص - من ساحتهما ! ..

٣ - وكما لم يكن الإخوان المسلمين على مستوى فكر حركة (الجامعة الإسلامية) ، عمقا وجرأة وحسما ورقيا ، فإنهم ، كذلك ، لم يكونوا متواضعين إلى المستوى الذى وقفت عنده (الوهابية) أو (السنوسية) أو (المهدية) ، وذلك لنشأتهم في المجتمع المصرى ، الذى بلغ في التحضر والرقى مستويات لا تلائمها أفكار دعوات جاءت لتلائم البداوة والبيئات التى لا حاجة بها إلى الفكر المركب ، والتى تستطيع حل مشكلاتها بظواهر النصوص ! .

لقد وقف تيار (الإخوان) ، فكريا ، بين بين ... فلا هو بلغ « عقلانية » تيار الأفغانى ومحمد عبده ، ولا هو تدنى إلى « بداوة » محمد بن عبد الوهاب ! .

وبحكم نشأة هذا التيار وانتشاره في حقبة تعاضم فيها خطر حركة «التغريب» على عقيدة الأمة وعلى تمايزها الحضارى ، وبحكم تخلفه عن نهج مدرسة الأفغانى ومحمد عبده ، الذى لم يكن يرفض النظر فى الحضارات الأخرى ، بل ولا التسلح بأسلحة الأعداء لمنازلتهم بها ... فلقد رفض (الإخوان) «العلمانية» - وكان من حقهم ، بل وواجبهم رفضها - لكنهم لم يبرزوا رفض الإسلام «للدولة الدينية» و«السلطة الدينية» ، على الرغم من قوطم بنيابة الحاكم عن الأمة ، لأنهم ، فى النهاية ، بدوا كمن يحدون الأمة من السلطات السياسية والتشريعية ، ويتحدثون عن «قانون إلهى» جاهز .. كما دفعهم هذا الموقف إلى موقع المدافعين عن خلافة آل عثمان !..

* * *

وحتى نفهم موقف هذا التيار الإسلامى المنظم والحزبى من الفكرة القومية العربية ، وحركتها ، ومن علاقة (العروبة .. وجامعتها) (بالإسلام .. وجامعته) ... فلا بد من الانتباه إلى أمرين :

الأول : أن مضمون المصطلحات لدى كتاب هذا التيار و«مفكره» لن يكون ، بالضرورة ، هو مضمونها فى الفكر العربى القومى ، الذى شاع فى الأوساط المدنية للمثقفين العرب .. الأمر الذى يوحى بالاختلاف حيث لا اختلاف فى بعض الأحيان !..

والثانى : أن هذا التيار لم يتخذ موقفاً واحداً من قضية العروبة والقومية العربية ، بل لقد اختلفت مواقفه باختلاف القادة ، ومواطنهم القومية وحظهم من «الفكر» فى هذا الميدان !..

فنحن ، مثلاً ، واجدون عند الشيخ حسن البنا أكثر مواقف هذا التيار
نضجاً إزاء هذه القضية .. وأقرب هذه المواقف إلى الصيغة الصحيحة للعلاقة
مابين (العروبة) و (الإسلام) ..

● صحيح أنه كتب يهاجم « القومية » .. وتحت عنوان : (لا القومية ولا
العالية ، بل الأخوة الإسلامية) كتب يقول : « ... فالقومية مبدأ خطير لا ينتج
إلا الشرور والآثام والحروب والتخاصم والتنافس والتراحم »^(١) .. لكن
« القومية » التي كانت في ذهن الرجل وهو يكتب هذا المقال هي « الفرعونية »
« الإقليمية » . التي كان يقدمها سلامة موسى (١٨٨٨ - ١٩٥٨ م) بديلاً
ونقيضاً للعروبة في الثلاثينات ! ... فواجب . إن . ألا يساء تفسير كلماته من
قبل خصومه .. وواجب كذلك أن يتنبه « الكتبة » من تلامذته . الذين أخذوا
كلماته هذه فعمموها ، واتخذوا بها موقفاً معادياً للعروبة والقومية العربية ! ..

● بل إن الرجل لم يرفض « الفرعونية » و « المصرية » كتراث حضارى
وتاريخ . بل نظر إليهما كمنطلق لحاضر جديد ومستقبل أرحب يضم عالم العروبة
والإسلام .. فكتب يقول : « ... فالمصرية ، أو القومية لها في دعوتنا مكانها
ومنزلتها وحققها من الكفاح والنضال .. إننا مصريون بهذه القومية في البقعة
الكريمة في الأرض التي نبتنا فيها ونشأنا عليها . ومصر بلد مؤمن ، تلقى الإسلام
تلقياً كريماً ، وذاد عنه ورد عنه العدوان في كثير من أدوار التاريخ ... وهو لا

(١) ذكرى سليمان بيومي « الإخوان المسلمون والمجاهدات الإسلامية في حياة السياسية المصرية ١٩٢٨ -
١٩٤٨ » ص ١٦٠ طبعة القاهرة سنة ١٩٧٩ م « ومقال البنا مشور بمجلة « الإخوان المسلمون »
١١ ربيع الثاني سنة ١٣٥٢ هـ سنة ١٩٣٤ م »

يصلح إلا بالإسلام... وقد انتهت إليه ، بحكم الظروف الكثيرة حصانة الفكرة الإسلامية والقيام عليها... وليس يضيرنا أن نغنى بتاريخ مصر القديم ، وبما ترك قدماء المصريين من آثار الحضارة والعمران ، وبما سبقوا الناس إليه من المعارف والعلوم والفنون ، فنحن نرحب بمصر القديمة ، كتاريخ فيه مجد وفيه عزة وفيه علم ومعرفة ، ونحارب هذه النظرية كمنهاج عملي يراد صبح مصر به وعودتها إليه...» (١) .

● وهو عندما يتصدى بالنقد للدعوة « الفرعونية - الإقليمية » . إنما يكشف عن حقيقة موقفه الفكري ، الذي لا يشكر للمصرية ، وإن كان يرفض الانغلاق في إطارها . بل يسمى لتكون مصر جزءا من قومية أكبر هي القومية العربية المرتبطة بعالم الإسلام . فيكتب سنة ١٩٣٤م تحت عنوان : (مصر عربية . فليتن الله المفرقون للكلمة) يقول : « ... وأما خطأ الفكرة من ناحية القومية المصرية ، فلأن تمسكنا بالقومية العربية يجعلنا أمة تمتد حدودها من الخليج إلى المحيط ، بل إلى أبعد من ذلك ، ويبلغ عددها أضعاف أضعاف الملايين المحصورة في وادي النيل . فأى مصرى يكره أن تشاطره هذه الشعوب التي تظلمها العربية شعوره وآماله وأفراحه وآلامه . إن من يحاول سلخ قطر عربى من الجسم العام للأمة العربية يعين الخصوم الغاصبين على خفض شوكة وطنه وإضعاف قوة بلاده . ويصوب معهم الرصاصة إلى مقتل هذه الأوطان المتحدة في قوميتها ولغتها ودينها وآدابها ومشاعرها ومطامعها .. » (٢) .

(١) المرجع السابق . ص ١٦١ ، ١٦٢ .

(٢) المرجع السابق ص ١٦٦ . « ومقال الباشا مشور بمجلة « الإخوان المسلمون » ١ جمادى الآخرة سنة ١٩٥٢ هـ سنة ١٩٣٤ م » .

● وعندما قامت (جامعة الدول العربية) ، عقب الحرب العالمية الثانية كتب البنا مؤيدا لقيامها ، وتحدث عن موقف (الإخوان) منها في مقال عنوانه (آمالنا في الجامعة العربية) فقال : « من أول يوم ارتفع صوت الإخوان هاتفا بتحية الجامعة العربية . والأخوة الإسلامية . إلى جانب الرابطة القومية والحقوق الوطنية . وكان الإخوان يرون أن الدنيا ستصير إلى التجمع والتكتل وأن عصر الوحدات الصغيرة والدويلات المتناثرة قد زال أو أوشك . وكان الإخوان يشعرون بأنه ليس في الدنيا جامعة أقوى ولا أقرب من جامعة تجمع العربي بالعربي ، فاللغة واحدة . والأرض واحدة . والآمال واحدة . والتاريخ واحد ... » (١)

ونحن نلاحظ أن البنا لم يصع « الدين » بين الروابط التي تجمع العربي بالعربي . في هذا المقال .. لكنه في مناسبات أخرى كان يتحدث عن الدين كعامل من العوامل التي تتكون الأمة والقومية من مجموعها ... (٢) كما تحدث عن (قومية الإسلام) تحت هذا العنوان . فقال : « إن الفرد إذا أخذ القرآن يمينه . والسنة المظهرة بيساره . ووضع سيرة السلف أمام عييه . لرأيت من كل ذلك أن للإسلام قومية جامعة ووحدة ورابطة حول العقيدة والمبدأ ... » (٣) وليس في هذا ما يضيروصوح فكر الرجل في المسألة القومية العربية . خصوصا

(١) المرجع السابق ص ١٧٠ «المقال مشور بمجلة «الإخوان المسلمون» ٢٢ ذي القعدة سنة ١٣٦٥ هـ . مارس سنة ١٩٤٦ م .»

(٢) مقال «عصر عربي . علينا الله المرفوق للكلمة» .. مجلة «الإخوان المسلمون» ١ جردى الآخرة سنة ١٣٥٢ هـ . سنة ١٩٣٤ م . المرجع السابق ص ١٦٥

(٣) المصدر السابق ص ١٧٥ «والمقال مشور بمجلة «الإخوان المسلمون» ٨ ذي القعدة سنة ١٣٥٢ هـ . سنة ١٩٣٤ م .»

إذا نحن أدركنا مكان الإسلام من العروبة . والعلاقة بينهما . والمقصود
الفضفاض لمصطلح « القومية » كما كان يستخدمه الرجل ..

● بل لقد أبصر البنا ، وعلى نحو جيد ، مكانة العرب القيادية في عالم
الإسلام . ودورهم القائد في تجديده ونهضة أمته . فكتب يقول : « إن
العروبة ، أو الجامعة العربية لها في دعوتنا مكانها البارز وحظها الوافر ، فالعرب
هم أمة الإسلام الأول ، وشعبه المتميز . وبحق ما قال الرسول - صلى الله عليه
وسلم - : « إذا ذل العرب ذل الإسلام » . ولن ينهض الإسلام بغير اجتماع كلمة
الشعوب العربية ونهضتها . وإن كل شبر أرض في أرض وطن عربى نعتبره من
صميم أرضنا ومن لباب وطننا .. »^(١) .

* * *

لكننا كثيرا ما نفتقد هذا الموقف القومى العربى . الذى يتميز به حس البنا
عند غيره من المتسبين إلى (جماعة الإخوان) أو من قادة الحركات الإسلامية
المنظرة لها في النهج والمعاصرة لها في التاريخ .

● فمن « كتبة » (الإخوان) من كتب عن دعاة القومية العربية فوصفهم
بأنهم : هم « الشعوبيون العرب » ؟ ..^(٢) .

ووصف القومية العربية بأنها « أعنف حرب على الإسلام والعروبة عرفها

(١) المصدر السابق ص ١٦٥

(٢) د . محمد رشاد خليل « دعوى مصر العربية » مجلة « الدعوة » عدد د . جهادى الأولى سنة ١٣٩٨ هـ .
أبريل سنة ١٩٧٨ م .

تاريخ الإسلام القديم والحديث» ١٩... ثم كتب فجعل علاقة المسلم المصري بأخيه المصري مساوية تماما لعلاقته بالمسلم في أندونيسيا ونيجيريا وتركستان^(١) ..! مهما أى أثر للقوميات وقسماتها ١٩.. الأمر الذى جعل هذا «الفكر» الذى لم يبصر سوى رابطة العقيدة الإسلامية ، والذى غفل عن الواقع - والقومية وقسماتها وفعاليتها بعض منه - يرى فى العروبة ، بالمعنى القومى ، عصرية ، على النحو الذى رآه ، مثلا ، الدكتور لويس عوض ، فى الجدل الذى ثار حول عروبة مصر سنة ١٩٧٨ م^(٢) مع ما بين الدكتور لويس ودوافعه ومطلقاته وبين (الإخوان المسلمين) من ود مفقود وعداء موجود ١٩..

● وأبو الأعلى المودودي (١٩٠٣ - ١٩٧٩ م) يرى القومية نقيضا « للدولة الفكرية » ، التى تمثل ، عنده ، دولة الإسلام ، ويراه نقيضا للإسلام قد أصبح - كما يقول - « دينا جديدا » يتدين به المسلمون القوميون ، يحول بينهم وبين النزعة « الإنسانية » ، ولا يراها دائرة أخص من الدائرة الإسلامية ، التى هى بدورها أخص من الدائرة الإنسانية ، دون لزوم التعارض والتعاقص بين هذه الدوائر ، بل يرى « أنه ليس لعنصر القومية حظ فى إيجاد دولة الإسلام الفكرية وتركيبها »^(٣) .. كما يرى أن « القومية تعنى ، أن يحل الشعب منزلة الألوهية ، ولا يكون للخير والشر من مقياس إلا مصالح الشعب وحده ..

(١) د محمد رشاد خليل « شحنية مصر التاريخية » مجلة « الدعوة » عدد ربيع الثانى سنة ١٣٩٨ هـ مارس سنة ١٩٧٨ م

(٢) انظر آراء الدكتور لويس فى « السياسة الدولية » عددي ٥٣ - ٥٤ - يوليو - ، وأكتوبر سنة ١٩٧٨ م

(٣) المودودي « نظرية الإسلام السياسية » ص ٧١ - ٧٥ طبعة بيروت - ضمن مجموعة عوامه « نظرية الإسلام وهدية فى السياسة والقانون والدستور » سنة ١٩٦٩ م

وترقيته وإعلاء كلمته ... »^(١) ... وهذه أهداف « قومية » يراها المودودي شركاً بالله وكفراً بالإسلام ! ..

● وصنو المودودي : سيد قطب (١٣٢٤ - ١٣٨٦ هـ - ١٩٠٦ - ١٩٦٦ م) في الفكر الذي انتهى إليه أواخر حياته ، وخاصة في كتابه (معالم في الطريق) يرى « القومية » بعامة ، والقومية العربية ، خاصة ، أحد الأصنام والطواغيت مثلها في ذلك مثل الاشتراكية ، والوطنية ، لابد من تخطيمها حتى نخضع للتوحيد والعبودية لله ! ...

● وأبو الحسن الندوي (١٩١٣م -) ، يرى ، هو الآخر في « القومية » نبأ أوروبياً لادنياً ، وينكر أن يكون لها مكان في فكر الإسلام وعلمه . « فالإسلام قد قسم العالم البشري إلى قسمين فقط : أولياء الله وأولياء الشيطان ... »^(٢) .. ولا مكان فيه للقومية وروابطها .. هكذا على الإطلاق ، ودون تمييز بين القوميات التي تذكي نضال الأمم في سبيل الحق والعدل ، وتلك التي يطفح مضمونها ومحتواها بالتعصب والعدوان والاستعلاء ! ..

(١) المودودي واقع المسلمين وسبل الهدى بهم ، ص ١٥٢ ، طبعة بيروت سنة ١٩٧٥ م (جدير بالذكر أن فكر المودودي في القومية هو ثمرة للاستراتيجية الخاصة ، ولعباراته هذه خصوصيات من الخطأ إغفالاً وتعميم هذه الأفكار على القوميات خارج المحيط الذي كتب فيه انظر دراستنا عنه في كتابنا الصحوة الإسلامية والتحدى الحضاري ، ص ١١٤ - ١٢٤ طبعة القاهرة سنة ١٩٨٤ م)

(٢) الندوي « ماذا خسر العالم بالخطأ المسلمين » ص ٢٠٤ ، طبعة بيروت سنة ١٩٦٥ م .

● وسعد حوى : يخفف نقد « القومية » . من حيث المبدأ . ولا يرى بها أو بالوطنية بأسا إذا كانت رباطا يربط الوطن وأهله بالإسلام^(١) ... ولكنه ينتقد حركة القومية العربية وفصائلها نقدا شديدا . ويراهم مسئولة عن تمزيق المجتمع ، مفلسة في الفكر . تحارب الإسلام في مكر وإصرار ..^(٢) ..؟

وأمام نماذج « الفكر » هذه .. لنا أن نسأل عن فكر الإخوان المسلمين في المسألة القومية . والمسألة القومية العربية خاصة . وعن علاقة العروبة بالإسلام ... أهو الذى وجدناه ، واضحا . عند الشيخ حسن البنا ؟ .. أم هو ذاك الذى سطره « كتبه » و « مفكرون » انتسبوا للإخوان . أو قادوا جماعات إسلامية مناظرة للإخوان ؟ ...

لقد افتقد التيار الإسلامى الحزبى المعاصر وحدة الموقف إزاء هذه القضية وإن ظل موقف الشيخ حسن البنا هو الأعمق ، والأكثر اتساقا . والأقرب إلى فكر (الجامعة الإسلامية) فى هذا الموضوع .

* * *

وبعد : فإن تعجب فمعجب من أن يظل الكثيرون منا غافلين عن مخاطر تلك الثغرة التى تفتحها فى صفوفنا الوطنية والقومية تصورات غير موضوعية عن تناقض (العروبة) مع (الإسلام) ... وذلك على الرغم من أن الإسلام الحق والعروبة الحقة يكونان مزيجا واحدا .. فالأمة العربية ، المتميزة قوميا فى المحيط

(١) سعيد حوى « الإسلام » ج ٢ ص ٦٥ طبعة القاهرة سنة ١٩٧٧

(٢) سعيد حوى - من أجل خطوة إلى الامام على طريق الجهاد المبارك « ص ٦٠ - ٦٥ طبعة القاهرة سنة ١٩٧٩ م .

الإسلامى مدعوة ومرشحة لقيادة هذا المحيط . وذلك بحكم إمكانياتها فى الدنيا . ولمكانة العرب فى الدين .. كما أن الإسلام هو الرسالة الخالدة للأمة العربية الواحدة ، به تبوأ مكانها العبادى ، ومنه كان الفكر والعادات والتكوين النفسى . التى بها تميزت قوميا عن غيرها من القوميات ..

ثم .. هلا اعتبرنا من موقف أعدائنا ؟ .. أولئك الذين ظلت أعينهم . طوال مراحل صراعهم ضدنا على هذه الثغرة . ينفذون منها ليضربوا كلا من (العروبة) و (الإسلام) ؟! .. فهم مع «عروبة» محمد على ضد «إسلام» آل عثمان .. حتى إذا قويت هذه «العروبة» ضربوها بهذا «الإسلام» ! .. ثم هم مع «عرب» المشرق ضد سلطان «المسلمين» فى الحرب العالمية الأولى . وصولا إلى احتلال أرض العرب والمسلمين جميعا ؟! .. وتكرر القصة عندما يتاصرون «الأحلاف الإسلامية» لضرب «المد القومى» ابان ازدهار الناصرية ؟! ..

فهلا وعينا «إسلامنا» و «عروبنا» جيدا . وأبصرنا علاقاتها العضوية فقطعنا على أعدائنا الطريق ؟!

- ٢ -

الفكر الإسلامى والوحدة العربية

العلاقة فى كلمات

كما واجهت حركة « الجامعة الإسلامية » - فى العقود الأولى من هذا القرن العشرين - : « قومية » علمانية ، تقطع الصلات بين « العروبة » و « الإسلام » ... تواجه « العروبة » اليوم « شعوية » جديدة تناصبها العدا - تحت رايات مموهة بالإسلام - قاطعة ما بين « العروبة » و « الإسلام » من صلات وعلاقات ..

الأمر الذى يجعل الأمة تواجه الخطر « القديم - الجديد » .. خطر التشرذم والانقسام الحاد فى قوى الأصالة الممثلة لذاتها الحقيقية ..

أ - قومىون يديرون ظهرهم للإسلام ! ..

ب - وإسلاميون ينفرون من العروبة كل النفور ! ..

* * *

وإذا كانت هذه الدراسة تعتقد بوجود « أرض مشتركة » و « علاقة عضوية » ما بين العروبة والإسلام .. فإنها تنبه إلى أن « التناقض » المزعوم بينهما إنما هو مفتعل .. ويخاطى .. وشاذ .. وذلك فضلا عن ضرره الكبير .. هو كذلك اليوم .. كما كان دائما عبر تاريخنا الحضارى العريق والطويل ..

وليس أدل على شذوذ دعوى « التناقض » هذه بين « العروبة » و« الإسلام » من تأمل هذه المأثورات التي تكثف فكر الأمة حول علاقة العروبة بالإسلام . منذ ظهر الإسلام .. وحتى العصر الذي نعيش فيه

يقول الرسول - صلى الله عليه وسلم - .

● [الكفر في العجمة ... ولا يبغض العرب إلا منافق .. وإذا ذل العرب ذل الإسلام] .

حديث شريف .

● [إنه لا سبيل إلى تمييز أمة عن أخرى إلا بلغتها ... والأمة العربية هي « عرب » قبل كل دين ومذهب . وهذا الأمر من الوضوح والظهور للعيان بما لا يحتاج معه إلى دليل أوبرهان] .

جمال الدين الأفغانى

● [كان الإسلام عربيا . ثم لحقه العلم فصار علما عربيا . بعد أن كان يونانيا .. فلما سيطر الأعاجم على الدولة استعجم الإسلام وانقلب أعجميا] .
محمد عبده

● [إن العرب هم الوسيلة الوحيدة لجمع الكلمة الدينية . بل الكلمة الشرقية] .

عبد الرحمن الكواكبي

● [إن العرب قد وشحوا هداية الأمة . وإن الأمم التي تدين بالإسلام وتقبل هدايته ستتكلم بلسان الإسلام . وهو لسان العرب . فينمو عدد الأمة

العربية بنمو عدد من يتكلمون لغتها ويهتدون مثلها بهدى الإسلام .. ولقد كان محمد - صلى الله عليه وسلم - رسول الإنسانية ، ورجل القومية العربية والأمة العربية في آن واحد] .

عبد الحميد بن باديس

● [لقد نشأ الإسلام عربيا ، ووصل إلى الأمم عن طريق العرب ، وجاء كتابه بلسان عربي مبين ، وتوحدت الأمم باسمه على هذا اللسان .. فالعرب هم أمة الإسلام الأول ، وشعبه المتميز .. ولن ينهض الإسلام بغير اجتماع كلمة العرب ونهضتها .. وليس في الدنيا جامعة أقوى وأقرب من جامعة تجمع العرب بالعربي ، فاللغة واحدة ، والأرض واحدة ، والآمال واحدة ، والتاريخ واحد . ومن هنا وجب على كل مسلم أن يعمل لإحياء الوحدة العربية وتأييدها ومناصرتها] .

* * *

● [ليس لعنصر القومية حظ في إيجاد دولة الإسلام وتركيبها] ؟ ! ..
أبو الأعلى المودودي

● [القومية : صنم من الأصنام وطاغوت من الطواغيت] ؟ ! ..
سيد قطب

● [إن القومية : هي نوع من أنواع العنصرية المرفوضة في الإسلام] ؟ ! ..

عبود الزمر

* * *

هكذا جسدت وتجسد هذه المأثورات مسيرة الفكر الإسلامى فى موقفه من
علاقة « العروبة » « بالإسلام » .. وموقف الإسلام الدين من الدائرة القومية
التي ينتمى إليها المتدينون بهذا الدين ...

فما هو وجه الصواب فى هذا الموضوع .. والقضية المثارة فى الفكر
الإسلامى ... والمطروحة - بالحاح - على العقل المسلم . والمتفجرة فى الواقع
الذى يعيشه المسلمون ؟؟ ..

قضية مصير

هكذا .. اختلفت وتختلف الآراء حول موضوعنا : علاقة « العروبة » .. « الاسلام » .. وموقف « الاسلام » من « القومية » .. وموقع « الفكر الاسلامي » من « فكر » وحركة الوحدة العربية « على وجه التحديد .

ويزيد من أهمية هذه القضية . ومن إلحاحها على العقل العربي والمسلم أن الخلاف فيها ليس مجرد خلاف حول قضية « نظرية » و « فكرية » . مهما كان مردودها الفكري والنظري .. وإنما هو خلاف يتعدى حدود « النظر والفكر والتأمل » في قضية من القضايا « التاريخية » ، إلى حيث يصبح - ولقد أصبح بالفعل - صراعا « حاضرا » حول « المستقبل » و « المصير » ؟! ..

بل إن هذا الخلاف القائم حول علاقة « العروبة » و « القومية العربية » و « حركة الوحدة العربية » بالاسلام ، لم يقف عند حدود « الخلاف الداخلي » بين فرقاء من أبناء الأمة ، وإنما رأيناه ، ومازلنا نراه سلاحا بيد القوى الخارجية المعادية ، تاريخيا وحضاريا ، لهذه الأمة . تستخدمه بمهارة ونخب شديدتين في الحيلولة بين أمتنا وبين امتلاك عوامل الوحدة والقوة والنهوض ! ..

● فالاستعمار الغربي ، مد العقود الأولى لموجه عزوته الحديثة ، قد استطل

بأعلام « الإسلام » ورايات « الخلافة الإسلامية » . وهو يصرب أول مشروع للإحياء والتوحيد العربى فى تاريخنا الحديث؟! ..

فعندما تحولت الإمبراطورية العثمانية إلى « دولة الرجل المريض » . وامتلأ جدارها - سبب الاستبداد والظلم والمقر الحضارى - بالثغرات التى زحف منها الاستعمار ، يهب بلادنا بالامتيازات . ويقتطع أقاليمها بالاحتلال ... حدث أن حاولت مصر الحديثة . تحت قيادة محمد على باشا [١١٨٤ - ١٢٦٥ هـ - ١٨٤٩ م] إنقاذ الولايات العربية العثمانية من وضع ومصير « التركة » التى يحرس الاستعمار الغربى تخلفها وتشردها انتظارا للحظات الانتهاء والاقسام ... ولقد تميزت هذه المحاولة « بطابع عربى » لاشك فيه . فقائد الجيش الذى حارب العثمانيين لاستخلاص المشرق وتوحيده مع مصر والسودان . إبراهيم باشا [١٢٠٤ - ١٢٦٤ هـ - ١٧٩٠ - ١٨٤٨ م] هو الذى أجب . عندما سئل . أثناء حصاره « لعكا » سنة ١٨٣٢ م :

- « إلى أى مدى تصل فتوحاتك .. إذا فتحت عكا ؟ .. »

- إلى مدى مايتكلم الناس وأتفاهم وإياهم باللسان العربى « (١) .

وفى مواجهة هذا « المشروع العربى » للنهضة والإحياء . لم يتورع الاستعمار عن أن يتقدم ليحاربه ويهزمه تحت رايات « الإسلام » . متحالفا مع « الخلافة الإسلامية » . الممثلة يومئذ فى سلاطين آل عثمان؟! ..

● وبعد أن اطمأن الاستعمار إلى هزيمة مشروع مصر « العربى » . وكرس

(١) الراعى ، عبد الرحمن [عصر محمد على] ص ٢٤٦ . ٢٤٧ طعة القاهرة سنة ١٩٥١ م

ذلك بحصار مصر داخل حدودها الإقليمية بمعاهدة لندن سنة ١٨٤٠م .. لم تعد تقلقه الأفكار ولا المشاريع « العربية » ، طالما كانت غير توحيدية ١٩ ..

وخلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر .. وعندما انبعشت من « الواقع العربي » ، بواسطة « قيادات عربية » دعوات وشعارات « الجامعة الإسلامية » . كانت مشاريع « الاستقلال - الإقليمية » و « عروبة : التشرذم والتجزئة » هي البديل الذي سعى الاستعمار إلى تشجيعه ، كى يجهض بها « جامعة إسلامية » تقودها الأمة العربية « فى نهضة تنقذ بها تركة دولة الرجل المريض من مخططات الاستعمار .. فوجدنا رجلين مثلاً بلنت ، ولفرد سكاون « S.B. Lunt » [١٨٤٠ - ١٩٢٢ م] يسيان ، بالدعاية وعروض التمويل ، لمساعدة مناطق فى شبه الجزيرة العربية « للاستقلال » عن الامبراطورية العثمانية ، تحت أعلام « العروبة » ، وفى مواجهة رايات « الإسلام » ١٩ ..

وعندما عرض « بلنت » أفكاره هذه على الشيخ محمد عبده [١٢٦٦ - ١٣٢٣ هـ ١٨٤٩ - ١٩٠٥ م] - وكان صديقه - لم ينكر محمد عبده حق العرب .. وجدارتهم - فى الاستقلال ... لكنه رأى هذا المشروع ، بصورته تلك ، وفى ملبساته السبيل لتمزيق العرب والأتراك معا ، والمقدمة لابتنلاعها من قبل الاستعمار ! .. ولقد عبر الرجل عن هذه الحقيقة بكلمات جاءت « نبوءة سياسية » لماحدث بعد ذلك بسنوات .. قال : « إن العرب أهل للاستقلال عن الترك ، ولكن الترك لا يمكنونهم منه ، وعندهم من القوة العسكرية المنظمة ما ليس عند العرب ، فإذا شعروا بذلك أو رأوا بوادره قائلوهم . حتى إذا وهنت قوة الفريقين وثبت دول أوربة ، الواقفة لهما

بالمِرصاد . فاستولوا على الفريقين . أو على أضعفهما . وهذان الشعبان هما أقوى شعوب الإسلام . فتكون العاقبة إضعاف الإسلام وقطع الطريق على حياته ... إننى أكره أعمال السلطان العثمانى . لجبنه الخانع . وتسلب المشايخ الذين قريبهم .. لكن . لا يوجد مسلم يريد بالدولة سوءا . فإنها سياج فى الحملة . وإذا سقطت نبى نحن المسلمين كاليهود . بل أقل من اليهود فإن اليهود عندهم شىء يخافون عليه ويحفظون به مصالحهم وجامعتهم . وهو المال . ونحن لم يبق عندنا شىء . فقدنا كل شىء ... إننى فى يأس تام من طبقة الأمراء والحكام .. فلا يرجى منهم خير .. لكن . كيف نياس من الإصلاح ؟ .. إن حالة أوربة كانت أشد شرا من حالتنا فى الجهل ومقاومة العلم ؟ ..^(١)

ففى ذلك الطرف التاريخى . أبصر محمد عبده أن هدف الاستعمار هو ضرب العروبة والإسلام جميعا .. فرايات العروبة التى يلوّح بها ليست رايات الوحدة . وإنما هى رايات «التشردم» و«الإقليمية» . والهدف هو استغلال هذه الرايات لضرب حركة الجامعة الإسلامية . التى دعت إلى نهضة المسلمين من « غانة إلى فرغانة » . بقيادة العرب . بعد أن ثبت عجز الأتراك !

● ونحن إذا تأملنا تلك المأساة التى صنعها لنا وبنا الاستعمار خلال سنوات الحرب العالمية الأولى [١٩١٤ - ١٩١٨ م] وفيما أعقبها من سنوات .. سترى

(١) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] ج ١ ص ٧٣٥ . ٧٣٣ دراسة وتحقيق د محمد عمارة . طبعة بيروت سنة ١٩٧٢ م

صدق حدس الشيخ محمد عبده في كلماته التي سبقت تلك المأساة بما يقرب :
من عشرين عاما ..

ففي مواجهة « الإسلام » وشعار « الجامعة الإسلامية » ، الذي رفعت
الدولة العثمانية وأنصارها أعلامه ، رمى الاستعمار بكل ثقله - في الظاهر - إلى
جانب شعار « استقلال العرب » أما في الواقع والحقيقة فإنه فرض التشرذم
والإقليمية على المشرق العربي ، وفق مخطط معاهدة « سيكس - بيكو » . ثم
ضن على هذا التشرذم بالاستقلال ففرض عليه الاستعمار . تحت اسم
« الانتداب » فأكملت سيطرته على الوطن العربي من الخليج إلى المحيط . ثم
تقدم فألغى « الخلافة - الرمز » ، كى يهيئ ويقرب أية آمال في إصلاحها كرباط
جامع وموحد . فأسفر عن وجهه المعادى لكل من « العروبة » و « الإسلام » .
بعد أن مكث طويلا يضرب الواحد منها بالآخر . وفق الظروف ، كى يحول
بيهما وبين الصيغة المثلى للعلاقة الصحية . الكافلة قوة ونهضة العرب والمسلمين
على السواء ! ..

وحتى مبادئ الرئيس الأمريكى « ولسن » [١٨٥٦ - ١٩٢٤ م] الأربعة
عشر التي أعلنها سنة ١٩١٨ م . والتي خدع معلمونا بها تلامذة مدارسنا
ولا يزالون ، قرابة نصف قرن من الزمان ، عندما قالوا إنها قد بشرت كل
الشعوب بحقوقها في تقرير المصير .. حتى هذه المبادئ نراها ، في الحقيقة ، قد
ميزت تمييزا عنصريا ، بين الشعوب .. ففي أوروبا دعت إلى تسوية حدود إيطاليا
والنمسا والمجر وشبه جزيرة البلقان وفق « المعيار القومى » .. أما في شرقنا العربى
والإسلامى ، فهي قد دعت إلى قصر حكم الأتراك على الرعايا من جنسهم ..

ثم تركت . بل وناصرت مخطط « سيكس - بيكو » . والمشروع الصهيوني .
وقرارات « الانتداب » .. فاجتمعت كلمة الغرب الاستعماري على ضرب
« الإسلام » و « العروبة » جميعا ! ..

● وعلى ذات الدرب تواصلت خطوات الاستعمار .. بل - ومع الأسف
الشديد - خطوات قوى محلية ابتلعت طعم « النفاق » . بل والعداء ما بين العروبة
والإسلام - .. فرأينا أعداء المشروع القومي العربي . الذي قاده جمال
عبد الناصر [١٣٣٦ - ١٣٩٠ هـ - ١٩١٨ - ١٩٧٠ م] يستظلون برايات
« الحلف الإسلامي » ، ويرزت ، في حقبة هذا المشروع القومي العربي - كما لم
يحدث من قبل في تاريخنا الحديث - شعارات ترفعها حركات إسلامية تصف
القومية العربية والوحدة العربية بالعنصرية ، بل وبالشعبوية ؟ ! .. وتحدث
عن رفض الإسلام للقومية ، وعن العداء المبدئي - أزلا وأبدا - بين « العروبة »
و « الإسلام » ؟ !

حدث ذلك .. وما يزال حادثا في واقعنا الفكري والسياسي الراهن حتى
ليوشك الأمر أن يبلغ بالبعض حد « الطائفية الفكرية » ؟ ! .. فزى :

(أ) « قوميين - عربيين » :

تتلمذوا - في الفكر القومي - على المدارس القومية الأوربية - فجاءت
قوميتهم « علمانية » . تنى الإسلام عن موقعه في الفكرة العربية والحركة
العربية . كما نفت قوميات الغرب « لاهوت الكيسة وكنهوتها » من
الفكر والحركة اللذين صنعا لأوربا دوطا القومية ونهضتها الحديثة .

(ب) و « إسلاميين - عربا » :

تتلمذوا - في فكرهم السياسي الإسلامى - على فكر سياسى إسلامى غير عربى - أفرزته ملابسات خاصة - غير عربية - فهم أصحابه القومية بمعناها الأوربي العلماني - فجاء هذا الفكر - وهو هندی المنبع والمنطلق - ليناسب القومية كل العداء ... ومضى هؤلاء «الإسلاميون - العرب» - في مواجهة «المشروع القومى العربى الناصرى» - ينتزعون هذه النصوص السياسية الغربية عن الملابس العربية ، ويوظفونها قسرا في البيئة العربية ، التى لا علاقة لها بأى من الملابس التى أفرزت هذه الأفكار .. فاصطنعوا مشكلة : تناقض «الإسلام» مع «العروبة» ، ليستعبروا لها الحل الغريب ، الرافض للقومية العربية وللوحدة العربية باسم الإسلام ؟! ..

(ج) و«إسلاميين - غير عرب» :

تدفع بعضهم روح «الشعبوية الجديدة» للسير على ذات الدرب ، مستهدفين ذات الغايات ؟! ..

- فإذا علمنا - ونحن نواجه هذا الواقع - أن «العروبيين» و«الإسلاميين» - في واقعنا الفكرى والسياسى - هما القوتان الأساسيتان اللتان تتجسد فيهما «الذاتية الأصيلة والحقيقية للأمة» .. فأية مأساة كامنة في هذا «الخلاف - المؤامرة - المصطنع» الممزق لقوى الأمة الحقيقية والرئيسية بافتعال التناقض داخل هويتها «العربية - الإسلامية» ؟! ..

وإذا كان الأمر كذلك .. فأية أهمية تحملها - للحاضر والمستقبل والمصير - الكلمة السواء عن علاقة «العروبة» «بالإسلام» .. وموقف الفكر الإسلامى

من العروبة القومية ، ومن الوحدة القومية لوطن الأمة العربية ؟؟ ..

* * *

في البسء :

كانت العروبة ، والجماعة العربية قبل أن يظهر الإسلام .. فلما أرسل الله الرسول العربي ، محمد بن عبد الله - صلى الله عليه وسلم - برسالة الإسلام قبل أربعة عشر قرناً من الزمان ، كانت رسالته ، كما بلورها القرآن الكريم : الحلقة الخاتمة في سلسلة الرسائل السماوية التي توالى على درب هداية السماء للإنسان ، وهي رسائل توحدت في جوهر العقيدة ، وتمايزت في النهج والشرعية .. بحكم وحدة الدين ، وتبعاً لتمايز أُمم الرسائل ولغاتنا وواقع مجتمعاتنا ومراحل التطور التي كانت تمر بها كل أمة عندما جاءها نبأ السماء ...

فجوهر الدين الإلهي الواحد : عقيدة التوحيد في الألوهية ، وعمل صالح ، وإيمان بالجزاء .. وفي هذا الجوهر جاء الرسول العربي - برسالة الإسلام وكتابه المعجز - مصدقاً لما سبق من الدين والكتب والرسالات ومصححاً لما طرأ عليها من التحريف والتأويل والتبديل .. فكان - في هذا الجانب - : ديناً عالمياً ، ليست فيه خصوصية عربية بأي حال من الأحوال ليس من حيث كونه استمراراً للدين الإلهي العالمي كما عرفه التاريخ السابق والأمم التي تآملت فحسب ، وإنما من حيث نطاق الدعوة الجديدة وحدود التكليف الإلهي الذي اصطفى الله له خاتم الرسل والأنبياء .. دين عالمي أوحى الله به إلى رسول مأمور أن يبلغه إلى العالمين .. [قل لا أسألكم عليه أجراً

إن هو إلا ذكرى للعالمين] ^(١) .. [وما تسألهم عليه من أجر ، إن هو إلا ذكر للعالمين] ^(٢) .. [وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين] ^(٣) .. [تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً] ^(٤) .. [وما هو بقول شيطان رجيم . فأين تذهبون . إن هو إلا ذكر للعالمين] ^(٥)

ونحرم نلاحظ أن جميع هذه الآيات ، التى تتحدث عن عالمية الدعوة والرسالة والقرآن ، مكية .. فهذه العالمية للإسلام الدين قضية مبدئية أصيلة ، وليست طارئاً ذا علاقة بـ « الدولة » والسياسة « و » الفتوحات « ! .. وفى إطار العقيدة الإسلامية ليست هناك خصوصية للعرب على غيرهم من الأمم ، فالمعنى القومى ولا فضل فى هذا المجال لعربى على أعجمى إلا بالتقوى ..

لكن هذا القرآن ، الذى جاء ليشر بالعقيدة الإلهية العالمية - قد نزل بلسان عربى مبین - فالرسول - الذى اصطفاه الله لحمل الأمانة وإبلاغ الرسالة : عربى . . ومن هنا جاء اصطفاء العربية لساناً لهذا القرآن ... واصطفاء الجماعة العربية طليعة لحمل هذه الرسالة إلى العالمين وهنا تبدأ الخصوصية بين العروبة وبين الإسلام . وتبدأ العلاقة المتميزة بين العرب والإسلام ..

ثم .. إن فهم العقيدة لا بد له من فلسفة ومنطق وأداة للجدل والحوار

(٤) الفرقان : ١
(٥) التكوثر : ٢٥ : ٢٧

(١) الأعمام : ٩٠
(٢) يوسف : ١٠٤ .
(٣) الأنبياء : ١٠٧ .

مع الخصوم .. وهنا يأتي دور « الواقع العربي » . الذي أصبح مادة في الجدل العقائدي . لا بد من دراسته واستيعابه لوعي حقيقة وأبعاد هذا الجدل .. ولما كان الإسلام لم يقف عند حدود « العقيدة » . وإنما جاء بهج متميز اختص الله به هذه الأمة طريقا تسلكه لتتدين بهذه العقيدة . وجعل في هذا الهج أحكاما هي فلسفات وأطر ومقاصد - ثوابت - تحكم المتغيرات من شئون الحياة الدنيا . فلقد كان « للواقع العربي » الشأن الكبير الذي طبع هذا الجانب من جوانب الإسلام بالطابع الخاص . هنا نلاحظ كيف كان الواقع العربي هو « سبب النزول » لآيات القرآن الكريم . وبدون وعي هذا « الواقع الحضاري العربي » لاسيما إلى فقه هذا الجانب من حوالب الإسلام الدين . من هنا تبدأ العلاقة بين الخصوصية العربية وبين الإسلام . كدين عالمي لا يختص به العرب دون العالمين . ومن هنا بدأت وتبدأ العلاقة « العنصرية » والجدلية « بين العروبة والإسلام » .

ها كان للقرآن إلا أن يكون عربيا [وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم]^(١) .. [وهذا لسان عربي مبين]^(٢) .. [إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون]^(٣) .. [وكذلك أنزلناه حكما عربيا]^(٤) .. ولكل ذلك فهو .. مع توجهه بالعقيدة العالمية لجميع العالمين - فخر لعرب . كقوم للنبي العربي . [وإنه لذكر لك ولقومك ..]^(٥) .. وإذا كانت ترجمة القرآن تفقده خاصية بيانه المعجز ، فإن العربية . للقرآن لغة « مصطفاة » ١ ٢ .. »

(٤) الرعد : ٣٧

(٥) النحر : ٤٤

(١) إبراهيم : ٤

(٢) النحل : ١٠٣

(٣) يوسف : ٢

عقيدة أزلية ، جاء بها القرآن مصدقا لما سبقه من كتب على درب صلة السماء بالأرض وهداية الله للإنسان .. و«شريعة» حملت خصوصية الأمة الجديدة .. و«اصطفاء» لهذه الأمة ولغتها وواقعها الحضارى . يحكم دورها في فقه الدين وحماية الدعوة والجهاد في سبيلها وحملها إلى العالمين .. وبحكم مكان العربية لغة وواقعا حضاريا في فهم العقيدة والشريعة .. الأمر الذى وحد بين العروبة والإسلام ، وربط بين الأمة العربية والإسلام ، فى الصعود والهبوط ، والتقدم والتقهقر على مر التاريخ ... ولم يكن ذلك بالأمر الغريب فهو الرباط العضوى بين «الدعوة العالمية» وبين «القائد الطبيعى» لهذه الدعوة العالمية ؟ !

وإذا كانت «عروبة» القرآن قد مثلت «جديدا» أضيف إلى «تصديقه» لما سبقه من كتب سماوية ، فإن خصوصية «شريعة» الرسالة الخاتمة - ومكان العروبة فيها ملحوظ - قد جعل له الهيمنة على ما بين يديه من الكتاب ! .. [ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة ، وهذا كتاب مصدق لسانا عربيا ..] ^(١) .. [وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق ، لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ، ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فى ما آتاكم فاستبقوا الخيرات ، إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون] ^(٢) .

هكذا كانت البداية ...

(١) الأحقاف : ١٢ . (٢) المائدة : ٤٨ .

● دين عالمي العقيدة . لاختصاصية فيها لأمة على أمة . ولا اختصاص
فيها لعربى على أعجمى ..

● لكن عروبة الكتاب .. والرسول .. والطلبة والواقع . وهي
المقومات التي جعلت هذه العقيدة قوة حية تحسدت في واقع الحياة . جعل
للأمة العربية علاقة خاصة بهذه الرسالة العالمية . وحل لواقعها الحضارى
مكان « المذكرة التفسيرية » من « القانون » .. ومن هنا جاءت الاختصاصية
وجاء الارتباط بين « الدعوة العالمية » وبين « قائدتها الطبيعي » و « السبيل
الأمثل » إلى فتحها ؟ ! ..

الدين .. والدولة .. والحضارة :

ولأن الإسلام لم يقف عند « العقيدة » و « الهج - الشريعة » الميسر
للتدين بهذه « العقيدة » . فإنه لم يقف عند حدود « النحلة الدينية »
و « الرسالة الروحية » و « المذهب التهذيبى » في عالم الأخلاق .. لقد فرض
على الناس فروضا اجتماعية . سماها فقهاء الإسلام « فروض الكفاية » . يتوجه
التكليف بها إلى « الجماعة : الأمة » . ويقع إثم التقصير فيها على الأمة
جمعا .. ولذلك فهي أكدت من « فروض العين » الفردية - مثل الصلاة
والصوم والحج إلى بيت الله الحرام ! - ..

ورغم أن « الدولة » لم تذكر في « الفروض الاجتماعية » للإسلام . إلا أن
« الواقع » و « العقل » قد حكما بأنه لا سبيل إلى إقامة « الفروض الاجتماعية »
الإسلامية بدون هذه « الأداة - الدولة » . فعدت - في الإسلام - « فريضة

مدية « اقتضتها » فرائض الدين » ، وقامت بينهما - الدين والدولة - علاقة شابهت علاقة « العرب والعروبة » - « الإسلام الدين » !.. فالدولة - وهى ليست فريضة دينية - غدت شرطا ضروريا لإقامة الإسلام ونمائه واستمراريته ... والعرب - والإسلام ليس خاصا بهم - كانوا هم أداة الإسلام وحزبه الطليعى الذى أقام له الدعائم وحفظ له الأركان وضمن له الانتشار .. ولقد كان طبيعيا - بل وضروريا - أن تكون هذه الدولة « عربية » بقدر ماهى « إسلامية » .. وأن يكون هذا هو حال « الحضارة » التى أقامتها « الأمة » ، بواسطة « الدولة » . من حول نواة هذا « الدين » !..

لقد اكتمل الإسلام . ثوابته الدينية - عقيدته وشريعته - كوضع إلهى - باكتمال نزول القرآن الكريم [اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً] ^(١) .. لكن الدائرة من حول « الثوابت الدينية » - فى شئون الدنيا وعمرانها .. والدولة وسياستها .. والحضارة والإبداع فيها - كانت ، وستظل دائمة النمو والاتساع .

وسبب من أن الإسلام هو خاتم الرسالات . جاء عندما بلغت الإنسانية سن رشدها . فلم تعد خرافا ضالة تحتاج دوام ونوالى الأوصياء .. فلقد ناسب الإسلام هذا الطور الإنسانى الجديد . فجعل معجزته « العقلية » - القرآن - معجزة « عقلية » ، جاءت تحتكم إلى العقل . ولم تأت لتدهشه كما كان الحال مع معجزات الرسل السابقين .. فعلا مقام العقل فى « الدين » .. وكان طبيعيا

(١) المائدة : ٣

أن يكون مقامه أعلى في شئون الدنيا والدولة والحضارة ، التي أوكل الإسلام إبداع علومها وصياغة نظمها إلى «العقل - المسلم» بواسطة «الاجتهاد» .

وبسبب من عروبة القرآن والسنة ... وبسبب من عروبة الواقع ، الذي قام مقام « المذكرة التفسيرية » للقرآن والسنة . فلقد غدا فقه العربية وحذق علومها ، بل والبراعة في فهم تراثها الخاهلي - نثرا وشعرا وحكمة - هو الطريق الوحيد للاجتهاد الإسلامي ... وانعقد الإجماع في الإسلام على عروبة أدوات الاجتهاد .. ومن ثم كانت عروبة ثمرات هذا الاجتهاد .. فجاءت علوم الإسلام عربية في الأساس .. ووضح ذلك في « دولته » كل الوضوح ..

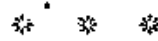
● فالعروبة هي السبيل إلى تقنين أحكام الشريعة .. لأنه لا سبيل إلى فقه القرآن والسنة والواقع العربي لعصر الوحي إلا بالتضلع في علوم العربية .. ومن هنا قامت علاقة التلازم بين إسلامية القانون وبين عروبة مؤسسة التشريع في الدولة الإسلامية - [أهل الحل والعقد] -

● ودولة الإسلام - في سلطتها العليا - « الخليفة - الإمام » - لا بد أن تكون عربية .. لأن الإسلام قد اشترط أن تكون الدولة « للعلماء » . فأجمع فقهاؤه على اشتراط العلم البالغ مرتبة الاجتهاد في رأس الدولة - الخليفة - .. ولا سبيل إلى بلوغ مرتبة الاجتهاد هذه إلا بعروبة تيسر فقه القرآن العربي المبين^(١) ..

لقد وقفت حقيقة هذه العلاقة بين « العروبة » و « الإسلام » خلف عروبة

(١) د . محمد عجمان [المعتزلة وأصول الحكم] ص ١٥٢ وما بعدها . طبعة بيروت سنة ١٩٧٧ م .

الدولة الإسلامية ، وجعلت العروة وثقى بين انتشار العربية - يوم كانت الدولة عربية - وبين انتشار الإسلام .. وفي هذا الضوء نفهم المعنى الحقيقي والعميق لكلمات الإمام عبد الحميد بن باديس [١٣٠٥ - ١٣٥٩ هـ - ١٨٨٧ - ١٩٤٠ م] التي تقول : « إن العرب قد رسموا لهداية الأمة ، وإن الأمم التي تدين بالإسلام وتقبل هدايته ستتكلم بلسان الإسلام . وهو لسان العرب .. فينمو عدد الأمة العربية بنمو عدد من يتكلمون لغتها . ويهتدون مثلها بهدى الإسلام ... » ^(١) .. ونفهم معنى كلمات الإمام حسن البنا [١٣٢٤ - ١٣٦٨ هـ - ١٩٠٦ - ١٩٤٩ م] التي تقول : « لقد نشأ الإسلام عربيا .. ووصل إلى الأمم عن طريق العرب وجاء كتابه بلسان عربي مبين .. وتوحدت الأمم باسمه على هذا اللسان ... » ^(٢) .. وفي هذا الضوء نفهم قرارات مؤتمرات الفكر والتعليم والسياسة الإسلامية - المبرأة من الشوعية - حول ضرورة دراسة العربية للأمم التي أسلمت ولم تقترن فيها العروبة بالإسلام؟! ..



لكن .. أية عروبة ؟؟ :

وإذا كان هذا هو « الإسلام » ، الذي ارتبط - في جوانبه الحضارية - بـ « العروبة » ، - رباطا عضويا وجدليا .. فأية « عروبة » تلك التي ارتبطت هذا النوع من الارتباط بـ « الإسلام » ؟؟ ..

(١) [كتاب آثار ابن باديس] ج ٤ ص ١٧ - ١٩ طعة الجزائر سنة ١٩٦٨ م .
(٢) حسن البنا [رسالة المؤتمر الخامس] ص ٤٦ طبعة دار الاعتصام القاهرة سنة ١٩٧٧ م .

لقد ظهر الإسلام و « للعروبة » في شبه الجزيرة العربية معنى « العصبية العرقية .. والتعصب للدم .. بل وللقبيلة على وجه التحديد » .. وبالمطبع فلم تكن - ولن تكون - هذه العروبة ، بهذا المعنى ، هي التي يرضاها الإسلام ويقيم معها علاقة الإنحاء ..

لقد رأى الإسلام في هذا الفهم لمصطلح « القوم » و « العروبة » بداوة ضيقة الأفق ، تجعل الإنسان أسيراً لأوهام تحول بيه وبين العدل والإنصاف في العلاقات الإنسانية وتقويم المذاهب والأفكار .. فكان لابد له - وهو الذي جاء موحداً لله في الدين وموحداً للعرب في الدولة والانتماء - من أن يرفض هذا المفهوم الضيق الذي يبرق الجماعة العربية ، سياسياً وقومياً ، تمزيق تعدد الآلهة لها في المعتقد والدين .. ولذلك وجدنا الرسول - صلى الله عليه وسلم - يوجه نيرانه الفكرية إلى هذا المفهوم العرقى والقبلي للعروبة ، ويدعو الناس إلى نبذ هذه العصبية الجاهلية قائلاً لهم : « دعوها ، فإنها منتنة » ^(١) !؟ .. ويقول : « ليس منا من دعا إلى عصبية ، وليس منا من قاتل على عصبية وليس منا من مات على عصبية » ^(٢) ! .. فلما سأله الصحابي وإثله بن الأسقع :

- يا رسول الله ، ما العصبية ؟

- [أجاب] : « أن تعين قومك على الظلم » ^(٣)

(١) رواه البخاري والترمذي

(٢) رواه أبو داود

(٣) رواه أبو داود

فإذا ما عاد الصحابي - واثلة بن الأسقع - ليسأل الرسول :

- يا رسول الله ، أمن العصبية أن يحب الرجل قومه ؟

جاء جواب الرسول - صلى الله عليه وسلم - ليميز بين الولاء القومى القائم على معايير العدل ، وبين ذلك الولاء القومى الأعمى الذى يهدر معايير العدل فى سبيل التعصب للأعراف والدماء .. فقال فى جوابه :

- « لا ، ولكن من العصبية أن ينصر الرجل قومه على الظلم »^(١)

فالولاء القومى الواعى ، والمؤسس على معايير العدل هو المضمون الذى زكاة الإسلام ودعا إليه كى يكون المحتوى لمصطلح « القوم » و « العروبة » .. أما الولاء الأعمى ، الذى يهدر معايير العدل فى سبيل عصبية العرق والجنس ، فهو الذى رفضه الإسلام .. وقال فيه الرسول - صلى الله عليه وسلم - : « من قاتل تحت راية عُمَيَّة - [وهى الأمر الأعمى ، الذى لا يستبين وجهه] - يغضب لعصبة ، أو يدعو إلى عصبة ، فقتل فقتل جاهلية »^(٢) !

بل لقد رأينا الإسلام - منذ ذلك التاريخ القديم - يعضى على هذا الدرب فيغرس فى تربة المجتمع الذى صاغه « المفهوم الحضارى » - بدلا من « المفهوم العرقى » - للعروبة .. فيخطب الرسول - صلى الله عليه وسلم - فى الناس قائلا : « أيها الناس ... ليست العروبة بأحدكم من أب ولا أم وإنما هى اللسان ، فمن تكلم العربية فهو عربى »^(٣) ! .. ثم يتقدم على هذا

(١) رواه ابن ماجه والإمام أحمد .

(٢) رواه مسلم .

(٣) ابن عساکر [تهذيب تاريخ دمشق] ج ٢ ص ١٩٨ . طبعة دمشق .

الدرب . فيضع هذا الفكر الجديد في التطبيق . في التنظيم الجديد لرعية الدولة العربية الإسلامية . صار الولاء للعروبة . بالمعنى الفكرى واللغوى والحضارى . هو المعيار المحدد لإطار « القوم - القومية » . وليس العرق والدم والجنس .. فالذين كانوا بالأمس أرقاء . ينحدرون من أصلاب وأعراق رومية أو فارسية أو حبشية . غدوا - بعد أن تعربوا باللغة والحضارة - جزءا من « القوم العرب » . وقام رباط « الولاء » الذى ربطهم بالقبائل التى كانوا فيها من قبل رقيقا - وهو رباط اختياري غير مفروض عليهم - قام هذا الرباط مقام « النسب » . فغدت الحضارة والثقافة والفكر « نسيا » جديدا ألف بين الأعراق المختلفة في كيان قومي جديد .. وروت السنة الشريفة . في هذه القضية الكثير من الأحاديث النبوية التى تقول : « مولى القوم منهم ^(١) » و « الولاء لأحمة كُحمة النسب ^(٢) » !

ولقد رأينا مفكرا عملاقا كالحافظ [١٦٣ - ٢٥٥ هـ - ٧٨٠ - ٨٦٩ م] يبصر دلالة هذا الانحاز التقدمي الذى صعبه الإسلام في ميدان المفهوم والمضمون لمصطلح « القوم » و « العروبة » . فيتقدم لتسليط الضوء عليه . ولشحنه سلاحا يواجه به خطر « العنصرية القبلية » ومخاطر « الشعبوية » جميعا .. فيتحدث عن الروابط التى نشأت ونمت بين رعية الدول العربية والتي أخذت تمثل خيوطا قومية - جامعة تشدهم جميعا لمركز واحد . وتكون منهم - رغم تعدد الأعراق القديمة وتنوع الأصول الجنسية - « كلا قوميا

(١) رواه البخارى

(٢) رواه أبو داود والدارمي .

واحدًا» . وفي مقدمة هذه الخيوط والقسمات روابط : اللغة الواحدة والفكر الواحد . والعادات والتقاليد والشماثل ، والتكوين النفسى المتحد . ويرى الجاحظ أن هذه الخيوط والقسمات قد غدت من المتانة والرسوخ والوضوح بحيث فاقت « وحدة النسب » و « اتحاد الدم والعرق » !^{١٤} . فالذين يتحدثون فى النسب ، مثل العرب والعبرانيين - أبناء إسماعيل وإسحق - ولدى إبراهيم - قد صاروا أمتين ، قوميا - رغم اتحادهم فى النسب والدم - بسبب اختلاف السمات « القومية - الحضارية » ، على حين وحدت هذه السمات « القومية - الحضارية » بين ذوى الأصول العرقية المختلفة - مثل العرب العدنانيين والعرب القحطانيين - فصاروا أمة واحدة وقوماً واحداً !^{١٥} ..

يقول الجاحظ فى رصد إنجاز الإسلام الفكرى والواقعى بهذا الميدان وفى تحديد مضمون « العروبة » التى ارتبطت بـ « الإسلام » : « إن العرب قد جعلت إسماعيل ، وهو ابن أعجميين - [إبراهيم وهاجر] - عربياً . لأن الله فتح لهاته^(١) بالعربية الميينة . ثم فطره على القصاحة . وسلخ طباعه من طبائع العجم . . وسواه تلك التسوية . وصاعه تلك الصياغة . ثم حباه من طبائعهم ومنحه من أخلاقهم وشماثلهم . وطبعه من كرمهم وأفئدتهم وهمهم على أكرمها .. فكان أحق بذلك السب . وأولى بشرف ذلك الحسب ... وإن العرب لما كانت واحدة ، فاستووا فى التربية ، وفى اللغة ، والشماثل والهمة . وفى الألف والحمية . وفى الأخلاق والسجية . فسبكوا سبكاً واحداً . وكان القلب واحداً ، تشابهت الأجزاء وتناسبت الأخلاط . وحين

(١) اللهاة : جزء من أقصى سقف الفم . مشرف على الحلق

صار ذلك أشد تشابها في باب الأعم والأخص . وفي باب الوفاق والمباينة من بعض ذوى الأرحام ، جرى عليهم حكم الاتفاق في الحسب . وصارت هذه الأسباب ولادة أخرى . حتى تناكحوا وتصاهروا من أجلها . وامتنعت عدنان قاطبة من مناكحة بى إسحق . وهو أخو إسماعيل . وجادوا بذلك جميع الدهر لبي قحطان ... لأن هذه المعاني قد قامت عندهم مقام الولادة والأرحام المباشرة^(١) ! .. !

هذا هو المعنى الحضارى لـ «العروبة» التى قامت بينها وبين «الإسلام» علاقة عضوية وروابط جدلية وتحقق بينهما الوفاق والإخاء ..

* * *

ونحن إذا شئنا أمثلة أخرى ووقائع جديدة على هذا الارتباط الذى قام بين «العروبة» و«الإسلام» - منذ عصر البعثة - سواء في ميدان الفكر أو حقل الممارسة والتطبيق ، وجدنا العديد من الأمثلة والشواهد على هذا الارتباط .

● فلقد جاءت البعثة النبوية بالإسلام بعد قرون من الصراع الحزنى بين «الفرس» و«الروم» .. وكان النظام الإقطاعى المغلق ، الذى ساد في فارس ، قد أسهم مع غيره من عوامل الظلم ، في إضعاف الفرس ، فمجزوا عن قيادة الشرق في مواجهة الغرب ، فتحقق النصر للروم ، الذين احتلوا الشام ومصر وبلاد الشمال الإفريقى وأعروا الأحباش بالاستيلاء على اليمن

(١) [رسائل المحاط] ج ١ ص ٢٩ - ٣١ . ١١ - ١٤ تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون طبعة القاهرة سنة ١٩٦٤ م .

ومحاولة احتلال مكة بعزوة الفيل في العام الذي ولد فيه الرسول ، - عليه الصلاة والسلام ١٢ ..

فلما ظهر الإسلام . كان هناك وعى بالبعد القومى لظهوره . وكيف أنه إيدان بتسلم الأمة العربية زمام قيادة الشرق بأجناسه وأديانه المختلفة في الصراع التاريخي مع الغرب . بعد أن عجز عن ذلك الفرس الساسانيون ! .. ولمن شاء فليتأمل تعليق الرسول . - صلى الله عليه وسلم - على انتصار العرب على جنود الفرس في موقعة « يوم ذي قار » - في العام الأول للبعثة - وربطه هذا النصر « العربي » بظهور « الإسلام » .. لقد قال : « اليوم ، أول يوم انتصف فيه العرب من العجم . ولى نصروا »^(١) « ١٢ » .

تم . هاهو يحدث عمه أبا طالب عن ارتباط « التوحيد الديني » « بوحدته العرب » . كقوم وجماعة وأمة . وأثر ذلك في تحولهم من موقع « التابع » إلى مكان « القائد في المنطقة » .. « ياعم . ألا أدعوهم إلى كلمة يقولوها تدين لكم بها العرب . وتؤدي إليكم العجم الحزية ؟ ! .. والله لتنفقن كنوز كسرى وقبصر في سبيل الله ! .. إن أمتي ستظهر على الحيرة . وقصور كسرى . وأرض الشام والروم . وقصور صنعاء .. وبشر المسلمين بذلك »^(٢) « ١٢ » !

لقد ارتبط « التوحيد الديني » بـ « التوحيد القومى » . في رسالة الإسلام ارتباط وجهى العملة الواحدة كل منهما بالآخر .. ذلك أن وثنية العرب في

(١) ابن عبد ربه [العقد الفريد] ج ٥ ص ٢٦٢ طبعة القاهرة سنة ١٩٧٣م

(٢) ابن الأثير [الكامل في التاريخ] ج ٢ ص ٦٧ ، ٢٤ ، ١٢٣

الجاهلية . بما كانت تعي من تعدد الآلهة في القبائل ، كانت تغذى وتجسد غياب وحدة الهوية لهذه القبائل العربية .. فجاء « التوحيد الديني » ليوحد هويتها في « الدين » . وليسهم في وحدة هذه الهوية في « القومية والدولة » ومن هنا كانت العروة الوثقى بين « التوحيد الديني » و « التوحيد القومي » .. ووجدنا القرآن الكريم يتحدث عن الوحدة التي أقامها الإسلام للجماعة العربية باعتبارها « آية » من آيات الله . فيخاطب الرسول ، قائلا : [فإن حسبك الله . هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين . وألف بين قلوبهم . لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم . إنه عزيز حكيم] ^(١) .. وباعتبارها « نعمة » إلهية . فيخاطب العرب الذين انتشلتهم الوحدة من التشردم . قائلا : [وادكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمة إخوانا] ^(٢) ... ثم يذكرهم بحالهم القديم . يوم كان التشردم القبلي قد أسلمهم إلى الاستضعاف ، حتى غدوا كالطير المنهبط الجناح تشاوشه الطيور الجوارح ؟ ! - من الفرس والروم ! - .. [وادكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض ، تخافون أن يتخطفكم الناس] ... ثم تمضي الآية فتحدثهم عن أثر « التوحيد الديني » على « وحدتهم القومية » ، التي جعلتهم سادة متصرين . فتقول : [فأواكم وأيدكم بنصره] ^(٣) !

ولقد بلغ ارتباط « التوحيد الديني » بـ « التوحيد القومي » ، في الدولة العربية الإسلامية الأولى ، بلغ من الوضوح والقوة إلى الحد الذي سوغ

(١) الأنفال : ٦٢ ، ٦٣

(٢) آل عمران : ١٠٣

(٣) الأنفال : ٢٦

للحليفة الراشد الأول أبي بكر الصديق قتال الذين ارتدوا عن «وحدة الدولة» ، رغم إيمانهم بأصول الدين ، فلقد اعتبر هذه «الوحدة القومية» حقا من حقوق «التوحيد الديني» . التي رمزت له - في هذا الحدث - فريضة الزكاة الدينية ؟ ! ..

بل إننا إذا نظرنا في «المعيار» الذي حكم تكوين «رعية» دولة المدينة التي أقامها الرسول ، - صلى الله عليه وسلم - ، بعد الهجرة إلى يثرب ، فإننا واجدوه «معياراً قومياً» .. فلقد تكونت هذه الرعية من «عرب متحدين في القومية ومختلفين في الدين» .. فالمهاجرون والأنصار تكونت منهم «أمة» - جماعة الإسلام - والبطون العربية التي كانت قد تهودت من قبائل المدينة قد دخلوا مع المهاجرين والأنصار - مع اختلاف الدين - في الرعية السياسية للدولة الجديدة .. وتكون منهم - على قدم المساواة - جيش الدولة الجديدة فحاربوا معا ضد المشركين - واقتسموا الغنائم معا .. ونص دستور الدولة - [الصحيفة - الكتاب] على أنهم «أمة واحدة» - ولا معيار لها هنا إلا المعيار القومي - وعلى أن بينهم التأييد والنصح والنصر على أعداء هذه الدولة .. فـ «المؤمنون والمسلمون» من قريش ويثرب ، ومن تبعهم ولحق بهم وجاهد معهم : أمة واحدة من دون الناس ... وإن يهود أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ... وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة - [الدستور] - .. وإن بينهم النصح والنصيحة ، والبر دون الإثم !

ثم مضى هذا الدستور بعدد لبنات - [قبائل] - هذه الرعية ، فوجدناهم

جميعا عربا ، أنصارا ومهاجرين ، وقطاعات متهودة من قبائل المدينة العربية . ولم يكن بينهم أحد من اليهود العبرانيين^(١) ... فهو . إذن «المعيار القومى» ، حكم تكوين الرعية الأولى للدولة العربية الإسلامية الأولى .

وهذه القبلة التى يستقبلها المسلمون فى الصلاة ، كانت فى البدء إلى «بيت المقدس» والى رعم من انتفاء الجهة إسلاميا عن الله سبحانه وتعالى ... ومع تنبيه القرآن الكريم على حقيقة : ... [ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ...]^(٢) .. [ولله المشرق والمغرب فأينا تولوا فتحم وجهه الله ..]^(٣) .. إلا أن رسول الله . - صلى الله عليه وسلم - ، كان دائم الشوق متصل الرجاء أن تكون قبلة المسلمين «الدينية» مكانا خالص «العروبة» . له فى التاريخ الدينى للعرب قداسة أول بيت وضعه الله للناس .. وهو الكعبة المشرفة والبيت الحرام ... وعن هذه الرغبة ، وعن الاستجابة الإلهية لها ، تتحدث آيات القرآن الكريم إلى الرسول فتقول : [قد نرى غضب وجهك فى السماء ، فلنولينك قبلة ترضاها ، فول وجهك شطر المسجد الحرام . وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره ..]^(٤)

وعندما أرادت الدولة العربية الإسلامية ، فى عهد الخليفة الراشد الثانى عمر بن الخطاب ، أن تؤمن قاعدتها فى قلب شبه الجزيرة العربية ، وجدنا

(١) الويرى [هبة لأرب] ج ١٦ ص ٣٤٨ - ٣٥١ طبعه القاهرة

(٢) البقرة : ١٧٧ .

(٣) البقرة : ١١٥ .

(٤) البقرة : ١٤٤ .

«المعيار القومى العربى» حاكما لعملية «الإقرار» و «الإجلاء» . فأهل الكتاب من العبرانيين أجلاهم عمر عن «القاعدة» إلى «الأطراف» . على حين بقى أهل الكتاب من العرب دون إجلاء ! .. بل لقد استبدلت الصدقة المضاعفة بالجزية من عرب بى تغلب . نصارى بجران . عندما قيل لعمر بن الخطاب إنهم عرب يأنفون من الجزية^(١) ؟ ! هكذا علل المؤرخون سبب استبدال ما يوازى الزكاة بالجزية من نصارى العرب .. وفى تقديرنا أن انتفاء «المغايرة» - بالمعنى القومى - بينهم وبين المسلمين العرب هى التى جعلتهم كلاً قومياً واحداً ، فميزت بينهم وبين «الغير» - بالمعنى القومى - لأن عقد الذمة هو فى الأساس عقد مع «الغير» الذين لم تجمعهم بالمسلمين السمات والقسمات التى تجعلهم جزءاً من «الأمة» تجمعهم وحدة الولاء والمساواة فى المواطنة حقوقاً وواجبات ! ..

هكذا قامت العلاقة بين «الإسلام» و «العروة» ..

- فالإسلام هو الذى صنع للأمة العربية وحدتها القومية الأولى .. وجعل لها اليد العليا على الذين أقلوها فيما سبق ظهور الإسلام من حقب التاريخ ...
- والأمة العربية هى التى مثلت بالنسبة للإسلام : الطليعة التى استجابت لدعوته ، وحملت عبء حمايتها ، بالدولة والفتح .. ثم قامت بإبداع حضارته العربية الإسلامية .. وقادت التبشير بعقيدته بين شعوب الأمم الأخرى ..

(١) أبو يوسف [كتاب الخراج] ص ٢٧٢ . طبعة دار الشروق القاهرة سنة ١٩٨٥م

● وهذه العروبة الإسلامية ، كانت دائرة انتماء حضارى وقومى . مثلت واقعا طوره الإسلام .. وما كان له أن يتجاهله أو يقفز عليه . فالعروبة العرقية الخاهلية - والتي مثلت فكرة - [إيديولوجية] - مافية للإنسانية الإسلام - قد اخلت مكانها للعروبة الحضارية ، التي قامت العلاقات العضوية والجدلية بينها وبين الإسلام .. وهى ، بهذا المفهوم ، لم تقف حائلا بين الإسلام الدين وبين العالمية ، بل كانت سبيل الإسلام وأداته إلى هذه العالمية . فهى دائرة أخص ، لا تلغى الدائرة الأوسع - كما هو حال القومية بالمعنى العرقى أو العلافى ، حيث لامكان معها لدائرة الملة والاعتقاد - وإنما هى الطريق إلى الدائرة الأوسع - دائرة الجامعة الإسلامية - التى - هى بدورها - الطريق إلى الدائرة الإنسانية ، التى تجمع الإنسان من حيث هو إنسان ! .

التقدم معا .. والتراجع معا ؟ ! .

من الكلمات الجامعة لعمر بن الخطاب ، تلك الكلمة التى خاطب بها العرب المسلمين فقال : « الزموا السنة تلتزمكم الدولة »^(١) ؟ ! .. ولقد حدث وسارت الأمور وفق مضمون هذه الكلمات ، فافتقرت نهضة الإسلام بعروبة الدولة ، وكان تراجع الإسلام مصاحبا لعجمة الدولة !

وكان عمر بن الخطاب - وهو الذى اكتملت فى عهده أركان الدولة العربية الإسلامية - واعيا كل الوعى بأن عروبة هذه الدولة رهن ببقاء العرب

(١) [حطب عمر بن الخطاب ووصاياه] ص ١٣٩ جمعها وحققها محمد أحمد عاشور طعة القاهرة سنة ١٩٨٥م

قوة ثورية ضاربة ، تلتزم السنة التي ربطت بين العروبة والإسلام .. ومن هنا كان حذره وتحذيره من « الترف » الذي يحول المناضلين والمقاتلين عن ساحات الفتح وميادين الباء . لأن تفشى ذلك في العرب سيدل دولتهم لحساب الأعاجم الذين يتربصون بهم تملأ قلوبهم مشاعر الثأر والانتقام ! .. والذين يتأملون رفض عمر توزيع الأرض المفتوحة في أودية النيل ويردى ودجلة والفرات على الجند الفاتحين .. وتخصير الأمصار الخاصة بالجند .. وتمييزهم بالزى المخالف لزى المشركين .. وحجزه أشراف قريش عن مغادرة المدينة إلى حيث الترف في البلاد الغنية المفتوحة .. ومنعه زواج الجند العرب من السبايا الكتابيات الحميلات ؟ ! .. وإلحاحه على التفقه في السنة وفي العربية معا ... الذين يتأملون صنيع عمر هذا يدركون مدى وعيه بأهمية بقاء القوة العربية « ثورية - نخشنة » ، ومدى إدراكه لمخاطر « الترف » على عروبة الإسلام والدولة جميعا ... ومن كلماته الكثيرة في هذه الأمور : « تفقهوا في السنة وتفقهوا في العربية ، وأعربوا القرآن فإنه عربي ! .. وإياكم والتنعم ، وزى أهل الشرك ، ولبوس الحرير ! ... إن قريشا يريدون أن يتخذوا مال الله مَعْرَمَات دون عبادته . الا فأما وابن الخطاب حى فلا ، إني قائم دون شعب الحرة ^(١) آخذ بحلّاقيم قريش وحُجُزها أن يتهافتوا في النار .. ^(٢) » .. ولقد سجل الذين أرخوا لمسيرة الأمة على هذا الدرب ، أن خروج العرب عن هذا النهج الذى دعا إليه عمر بن الخطاب ، وركونهم إلى حياة الدعة

(١) أرض بظاهر المدينة .

(٢) [خطب عمر بن الخطاب ووصايه] ص ١٣١ ، ١٣٥ ، ٦٨ .

والترف وحياسة الأموال والثروات في البلاد المفتوحة ، قد كان - بعبارة الطبرى - « أول وهن على الإسلام . وأول فتنة كانت في العامة !! .. »^(١)

لقد امتدت حدود الدولة العربية فشملت فتوحاتها في ثمانين عاما أوسع مما فتحة الرومان في ثمانية قرون .. وفي هذه الدولة اقترن تقدم الإسلام بتقدم العروبة . فشمخت الأبنية الفكرية للعلوم الإسلامية في مختلف الميادين وتبلورت المدارس الكلامية . والمذاهب الفقهية إلى جوار العلوم الطبيعية وفتون اللغة والأدب والبلاغة . وحركة الترجمة والتواصل مع كل الحضارات والموايرث .. وكانت العربية هي الأداء والوعاء في هذه الهضة العملاقة ولها كان الولاء حتى في المواطن التي لم تتعرب فيها « الجاهير » . ففما وراء حدود شبه الجزيرة العربية ، تعربت الحواضر وتعربت « النخب » التي أبدعت في مجالات الفكر ، وأصبح ولاؤها للعروبة الحضارية . رغم انحدارها من أصلاب عرقية غير عربية ..

* * *

وكما اقترن « الإسلام » بـ « العروبة » في التقدم والازدهار .. كذلك كان اقترانها في التراجع والجمود ! ..

ورغم أن عثمان بن عفان لم يكن كعمر بن الخطاب في الحزم الذي اشتهر به الفاروق . إلا أنه قد كان واعيا لمخاطر العجمة وتراجع العروبة عن هذا البناء الذي أقامه الإسلام .. فلقد كتب كتابا عاما يقول فيه للناس : « أما

(١) ابن أبي الحديد [شرح صحيح البلاء] ج ١١ ص ١٢ - ١٣ . طبعة القاهرة سنة ١٩٥٩

بعد . فإنكم إما بلغت ما بلغت بالاعتداء والاتباع .. وإن أمر هذه الأمة صائر إلى الابتداع بعد اجتماع ثلاث فيكم : تكامل النعم . وبلوغ أولادكم من السبايا . وقراءة الأعراب والأعاجم القرآن ، فإن رسول الله . - صلى الله عليه وسلم - . قال : « الكفر في العُجمه » ! فإذا استعجم عليهم أمر تكلفوا وابتدعوا . « (١) » ؟ !

فالترف . وتراجع العروبة بشيوع اللحن في أبناء العرب من السبايا ويلحن الأعاجم في القرآن . سيلان لتراجع الصبغة العربية عن أركان الدولة وعن الحياة الاجتماعية كليهما .. وتراجع الصبغة العربية هو باب التكلف في الدين . لأنه « إذا استعجم عليهم أمر تكلفوا وابتدعوا » ! ... والذين ينظرون إلى منابع مذاهب الغلو في الدين - كلامية كانت أو صوفية أو سياسية - يرونها منابع أعجمية . افتقدت الوسطية العربية التي تميز بها الإسلام ! لافتقادها « العروبة » . التي هي السبيل الوحيد لفقه حقيقة « الإسلام » ! .

ولقد كانت « الشعبية » هي أبرز التيارات الفكرية والسياسية التي سعت - في ظل الدولة الأموية والعباسية - للكيد لكل من « العروبة » و « الإسلام » عندما رعمت انفصام العلاقة بينهما . فتقدمت إلى الناس معاديه « للعروبة » ، تحت رايات « الإسلام » ! .. ففتحت بذلك - في تاريخ مسيرتنا الحضارية . باب الزعم بوحود تناقض بين « العروبة » و « الإسلام » ..

لكن ... إذا كان رسول الإسلام ، - صلى الله عليه وسلم - . هو

(١) [تاريخ الطبري] ج ٤ ص ٢٤٥ طبعة دار المعارف القاهرة

القائل : « لا يبغض العرب إلا منافق »^(١) ، فكيف يستساغ أن تظلل رايات الإسلام فكراً بلغ في العداة للعرب والعروبة درجة « الدين » ؟ .. إن نصربن سيار [٤٦ - ١٣١ هـ - ٦٦٦ - ٧٤٨ م] يحدثنا كيف تدّين الشعوبيون بالعداء للعرب ، فيقول :

قوم يدينون ديننا ما سمعت به عن رسول ولم تنزل به الكتب فمن يكن سائلاً عن أصل دينهم فإن دينهم : أن تُقتل العرب !^(٢)

والذين خبروا فكر الشعوبية ، وأدركوا حقيقة أبعاده ، قد رأوا فيه تجاوزاً لما هو معلن من تجريد العرب والعروبة من كل مكرمة ، ومن إلصاق كل المثالب بالعرب ، تاريخاً ولغة وأرضاً وأدوات عيش وأنماط حياة .. رأوا فيه عداة مستكماً للإسلام ، كدين ، وسعياً لإحياء النحل والمذاهب الجوسية القديمة ، وتمهيد الأرض لهدم الإسلام بإشاعة الشك واللاأدرية والزندقة والإلحاد .. فالشعوبية . وإن أعلنت - فقط - عداها للعروبة ، إلا أن حقيقة دعوتها كانت العداة لكل من « العروبة » و « الإسلام » .. وما كان لهذه الدعوة إلا أن تكون كذلك . لما رأيناها من الارتباط بينهما ، في التقدم والتقهقر ، ولدى الأنصار والأعداء على حد سواء ! ..

والذين يبحنون عن التاريخ الذي ظهر فيه - علم الكلام الإسلامي في مبحث الخلافة والإمامة - اشتراط « قرشية الإمام » - [رأس الدولة] - كشرط من شروط « الإسلام » في الدولة ، يدركون العلاقة العضوية لهذه القضية

(١) رواه الإمام أحمد .

(٢) عبيد الصاحب الدجلى [الشعوبية] ص ١٤ طبعة النجف سنة ١٩٦٠ م .

بالدفاع عن عروبة الدولة ضد العجمة . وصلة ذلك بكل من العروبة والإسلام ... فاشتراط «قرشية الإمام» يعنى اشتراط عروبة الدولة .. وهذا الشرط لم يظهر في الفكر السياسي المبكر . يوم لم يكن هناك خطر على هذه العروبة .. أما بعد أن أطلت الشعوبية برأسها . وبدأت مخاطر العجمة على السلطة العليا للدولة ، فإن هذا الشرط - شرط عروبة الخلافة والسلطة العليا للدولة - قد اتخذ مكانه في الفكر السياسي الإسلامي . تعبيرا عن انتصار الإسلام للعروبة . واحتماء العروبة بالإسلام^(١) ! ..

* * *

وعلى الرغم من أن هارون الرشيد [١٤٩ - ١٩٣ هـ - ٧٦٦ - ٨٠٩ م] قد صد خطر الشعوبية بحيلولته بينها وبين السيطرة على جهاز الدولة بما عرف بكعبة البرامكة [١٨٧ هـ - ٨٠٣ م] . الأمر الذي أتاح للعروبة أن تزدهر فتبدع أكثر صفحات حضارتنا إشراقا بقيادة المعتزلة . فرسان العقلانية العربية الإسلامية .. على الرغم من هذا التطور الإيجابي في الصراع بين «العروبة الإسلامية» و«الشعوبية المجوسية» ، إلا أن كثيراً من الإحباط قد أصاب التيار العربي بهزيمة الخليفة الأمين [١٧٠ - ١٩٨ هـ - ٧٨٧ - ٨١٣ م] في صراعه الدامي مع أخيه المأمون [١٧٠ - ٢١٨ هـ - ٧٨٦ - ٨٣٣ م] فتوزعت القوى الشطة في التيار العربي بين فصائل ثلاث :

● قوم أصابهم الإحباط . بعد هزيمة الأمين . فأسلموا أنفسهم إلى حياة الدعة

(١) [المعتزلة وأصول الحكم] ص ١٩٠ - ١٩٧

والترف ، واعتزلوا صراعات الأجناس والمذاهب الدائرة من حول الخلافة والدولة ..

● وآخرين ممن غلبت عليهم البداوة - واصلوا الثورة في صفوف الخوارج على النحو الذى كان منذ قتال على ومعاوية في معركة «صمين» !

● أما القطاع الأكبر من التيار العربى - وفيه أعب المعتزلة - فلقد انخرط في الثورات العلوية التى قادها أئمة الزيدية ضد بى العباس ..

ونظرت «الدولة» فإذا المخاطر تحقق بها من كل الاتجاهات : الشعبية الفارسية .. وبداوة الخوارج . والعرب العلويون .. ثم بوادر حركات استقلالية لأقاليم الأطراف . وكل ذلك قد أخذ يغرى الدولة البيزنطية بالآمال فى تحريك حدودها واستعادة مستعمرات قديمة لها حررها الفتح العربى فى الشام ..

صحيح أن أغلب هذه المخاطر ليس بجديد على الخلافة العربية .. لكن بنى أمية قد عالجوا أمثالها بالاعتماد على العنصر العربى والعصية العربية ، لأن مواجهتهم كانت مع الشعبية الفارسية فى الأساس .. وحتى العلويين والهاشميين فإنهم لم يكونوا يوشك الممثلين للتيار العربى ، بل كان اعتمادهم على الموالى بالدرجة الأولى ... لكن الجديد الذى واجه به العباسيون هذه المخاطر القديمة ، والخطأ القاتل الذى اقترفه الخليفة العباسى المعتصم [١٧٩ - ٢٢٧ هـ - ٧٩٥ - ٨٤١ م] هو توهمه أن طرق النجاة للخلافة من صراعات الأجناس والمذاهب المحلية ، هو فى اعتماد الدولة على قوة عسكرية قوية غريبة عن كل هذه الأجناس والمذاهب المحلية ، ولا علاقة لها بمنطلقات هذه

الصراعات . ولا يربطها ولاء بأى من أطراف هذا الصراع .. لقد توهم هذا .. وخيل إليه أن ولاء هذه القوة العسكرية الغربية والمجربة من خارج ميدان الصراع سيكون لسيدها وحده . الخليفة العباسى ! ... فبدأت الدولة تجلب الترك المالك ، وأقامت لهم مدينة « سامراء » معسكرا خاصا بهم . يتبع الخليفة فى العاصمة بغداد ...

لكن . ما هى إلا سنوات تضخم فيها حجم هذه « المؤسسة العسكرية المملوكية » . حتى أغرتهم القوة بأن يكونوا الطرف الأقوى فى لعبة الصراع . وإذا لم يكونوا عربا . فهم - فى الشكل على الأقل - مسلمون ! .. فكان أن أصبحوا القوة العظمى فى الدولة ، وبدلا من أن يكون معسكرهم « سامراء » تابعا لبغداد . أصبح هذا المعسكر - « سامراء » - هو عاصمة الدولة . تتبعها بغداد ؟ ! ... وكان انقلاب المتوكل العباسى [٢٠٦ - ٢٤٧ هـ - ٨٢١ م] علامة مميزة على هذا التحول الذى أصاب الدولة بالعجمة . والذى بدأ مسيرة حضارتنا - فى بطاء وتعرج - نحو الجمود والفقر فى الإبداع .. ومرة أخرى . ظهرت فعاليات ذلك القانون .. قانون ارتباط « العروبة » بـ « الإسلام » ...

فعندما أصبحت الدولة فى قبضة الترك المالك . وهم غرباء عن الروح الحضارية للأمة . لا علاقة لهم بعروبيتها - لأنهم ترك ممالك - ولا علاقة لهم بالجواهر العقلية لإسلامها - لأنهم لم يعرفوا من الإسلام إلا بعض طقوسه الشعائرية - كان طبيعيا أن يبدأ ترويج مقولة تناقض « العروبة » مع « الإسلام » - أو على الأقل عدم تلازمها - لأن « الإسلام » رباط قائم - ولو

شكلا - بين هؤلاء الترك وبين جمهور الأمة .. أما «العروبة» فإنها مصدر التناقض بين الحاكم والمحكوم . تستنفر المحكومين للخروج على هذه السلطة غير العربية . التي تغلبت على الدولة بقوة السلاح ؟ .

لقد سيطر على الدولة عسكر من مثل «وصيف» و«نغا» و«كيغلغ» و«ياجور» و«بايكباك» و«بكالبا» و«بارجوخ» و«أصفجون» و«كاشتمر» و«كسجور» و«نكين» و«أغرتمش» و«ابن كندا جيق» و«أساتكين» و«كتبغا» و«خمارويه» و«كافور» و«كجك» و«جقمك» و«خوشقدم» و«تمربغا» و«كولكيران» الخ .. الخ .. ؟؟ ! ! ..

وعندما حدث هذا الانقلاب المملوكي . الذي سيطرت به العمحة على الدولة تراجعت «العروبة» و«الإسلام» جميعا ...

● فالتيار العقلاى قد أقصى عن مراكز التأثير .. بل وسجن أعلامه . وحل محلهم «السلفيون - النصوصيون» . أعداء العقل والرأى والقياس والتأويل .. ف«استعجم الإسلام» . لأنه لاطاقة «للجمود النصوصى» بفقهاء دين عقلاى كالأسلام ... فاتحدت الحياة الفكرية سبيلها - ببطء وتخرج - إلى العصر الذى أعلن فيه غلق باب الاجتهاد . فتجمد الفكر . بينما استمر تطور الواقع . فالتسعت الهوة بينهما . وبدأت مرحلة «غربة الفكر الإسلامى وغرابته» بالقياس إلى واقع الحياة ؟ ! ..

● أما «العروبة» . فيكفى لتجسيد المأساة التى أصابها . فى ظل عجمة الدولة . أن نقارن بين الطموح الذى حاولت تحقيقه . فقطعت فيه أشواطا عندما تعربت الحواضر والحياة الفكرية فى عالم الإسلام الفسيح من المحيط

الأطلسي وحتى شمال عرب الصين .. وعندما كان السعي حثيثا لإنجاز تعريب العامة والجمهور أيضا في كل هذه الأصقاع ... يكفي أن نقارن بين هذا الطموح الذي عرف طريقه للممارسة والتطبيق ، وبين الواقع البائس الذي تراجعت إليه العروبة عندما قامت المحاولات الجادة لتترك الناس في عقر دار الأمة العربية ذاتها . في ظل السلطة العثمانية . التي كانت الامتداد لعجمة الدولة والسلطة والسلطان ؟ ! ...

نعم .. لقد تراجعت «العروبة» و«الإسلام» معا ... وكان ذلك مدخل أمتنا وحضارتنا إلى عصر جمودهما المظلم والوسيط ! ..
وللذين يحبون الاستثناس بآراء أعلام من مفكرينا الإسلاميين في هذا الذي نقول . نقدم رأى ثلاثة من هؤلاء الأعلام ..

١ - فالأستاذ الإمام محمد عبده : يصف هذا التحول الذي أصاب مسيرتنا الحضارية . فيقول : « انظر . كيف صارت مزية من مزايا الإسلام - [تسامح المساواة] - سببا فيما صار إليه أهله ! كان الإسلام دينا عربيا . ثم لحقه العلم فصار علما عربيا . بعد أن كان يونانيا . ثم أخطأ خليفة - [المعتصم العباسي] - في السياسة . فاتخذ من سعة الإسلام سبيلا إلى ما كان يظنه خيرا له . ظن أن الجيش العربي قد يكون عوناً لخليفة علوي . لأن العلويين كانوا ألصق ببيت النبي . - صلى الله عليه وسلم - . فأراد أن يتخذ له جيشا أجنبيا من الترك والديلم وغيرهم من الأمم التي ظن أنه يستعبد بها بسلطانه ويصطنعها بإحسانه . فلا تساعد الخارج عليه ، ولا تعين طالب مكانه من الملك - وفي سعة أحكام الإسلام وسهولته ما يبيح له ذلك - هناك استعجم الإسلام

وانقلب أعجميا ١ .. خليفة عباسي أراد أن يصنع لنفسه ، ويش ما صنع بأمته ودينه ، أكثر من الجند الأجني ، وأقام عليه الرؤساء منه ، فلم تكن إلا عشية أوضاعها حتى تغلب رؤساء الجند على الخلفاء ، واستبدوا بالسلطان دونهم ، وصارت الدولة في قبضتهم ، ولم يكن لهم ذلك العقل الذي راضه الإسلام ، والقلب الذي هذب الدين .. ١٩ « (١) .

٢ - والإمام حسن البنا [١٣٢٤ - ١٣٦٨ هـ - ١٩٠٦ - ١٩٤٩ م] : يرصد هذا التحول الأعجمي ، ويؤكد على دوره في تحلل الدولة الإسلامية فيقول : « إن من أهم عوامل التحلل في الدولة الإسلامية ... انتقال السلطة والرياسة إلى غير العرب ، من الفرس تارة والديلم تارة أخرى والمماليك والأتراك وغيرهم ممن لم يتذوقوا طعم الإسلام الصحيح ، ولم تشرق قلوبهم بأنوار القرآن ، تصعوبة إدراكهم لمعانيه .. » (٢) ١٩ .. هنا يربط الرجل بين « العجمة » - وهي تراجع « العروبة » - وبين تراجع « الإسلام » ١ ..

٣ - أما المقرئزي [٧٦٦ - ٨٤٥ هـ - ١٣٦٥ - ١٤٤١ م] : فإنه يضع يدها على حقيقة لم ينتبه لها الكثيرون ، على خطورتها وبلاغة دلالاتها ! .. فكثيرون منا هم الذين يعتقدون أن الاستعمار الحديث هو الذي بدأ جريمة تنحية الشريعة الإسلامية - وهي قانون الأمة الطبيعي - عن عرشها وسيادتها في مؤسسات التشريع والقضاء في بلادنا ... لكن المقرئزي يخبرنا أن « العجمة المملوكية » هي التي بدأت اجتراح هذه السيئة ، عندما جعلت الحكم في

(١) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] ج ٣ ص ٣١٧ ، ٣١٨

(٢) حسن البنا [مجموعة رسائل الإمام الشهيد] ص ١٣١ ، ١٣٢ . طبعة دار الشهاب . القاهرة

الدواوين السلطانية - [أجهزة الدولة] - وفي شئون الجند لقانون الخان الوثني جنكزخان [٥٦٢ - ٦٢٤ هـ - ١١٦٧ - ١٢٢٧ م] بدلا من الشريعة الإسلامية ؟ ! .. يضع المفريزي يدنا على هذه الحقيقة فيقول : « ... إن جنكزخان قرر قواعد وعقوبات أثبتتها في كتاب سماه «ياسة» .. جعله شريعة لقومه . فالتزموه كالترام أول المسلمين حكم القرآن .. فلما كثرت وقائع التتري بلاد المشرق والشمال وبلاد القمبجاق . وأسروا كثيرا منهم وباعوهم . تنقلوا في الأقطار . واشترى الملك الصالح نجم الدين أيوب - [٦٠٣ - ٦٤٧ هـ - ١٢٠٦ - ١٢٤٩ م] - جماعة منهم سماهم البحرية ، ومنهم من ملك ديار مصر . وأولهم المغز أيك - [٦٥٦ هـ - ١٢٥٨ م] - وكانوا إنما ربوا بدار الإسلام . ولقنوا القرآن . وعرفوا أحكام الملة المحمدية ... فجمعوا بين الحق والباطل . وضحوا الجيد إلى الرديء . وفوضوا لقاضي القضاة كل ما يتعلق بالأمور الدينية من الصلاة والصوم والزكاة والحج . وناطوا به أمر الأوقاف والأيتام . وجعلوا إليه النظر في الأقضية الشرعية .. واحتاجوا في ذات أنفسهم إلى الرجوع لعادة جنكزخان . والافتداء بحكم الياسة ، فلذلك نصبوا الحاجب ليقضى بينهم .. على مقتضى الياسة . وجعلوا إليه ، مع ذلك ، النظر في قضايا الدواوين السلطانية .. » ^(١) ١٢

هنا ، ارتبطت «العجمة» - وهي تراجع عن «العروبة» - بالانحراف والتراجع عن «شريعة الإسلام» ؟ ! ..

فمن التقدم - تقدم «الإسلام» و «العروبة» - الذي أثمر حضارة «عربية» -

(١) [المخطوط] ج ٣ ص ٦٠ ، ٦١ ، ٦٣ . طبعة دار التحرير القاهرة .

إسلامية» عالمية . جعلت من الإسلام منارة الدنيا . التي أضاءت بالعربية أرجاء المعمورة ... إلى التراجع الذي سادت فيه «السلفية» النصوصية الجامدة» .. وأغلق فيه باب الاجتهاد .. واستهلك الأمة فيه الفروع - تحت سلطان السلطة الأعجمية تجتر «الحواشي» و«الهوامش» على «المتون» وتزجي القراع بصنع المحسنات اللفظية والرياءات الشكلية .. حتى لقد حاولت العجمة تزيكها . بعد أن كان الاستعراب شرف الفكر والمفكرين والعلم والعلماء والأدب والأدباء ! ..

* * *

البقظة الحديثة :

لكن أمة عظيمة . ذات مجد عريق . وإبداع أصيل . وحضارة متميزة وتراث غني . وأعداء كثيرين ! كأمتنا العربية . ما كان لها أن تسقط سقوطا دائما في هذا المأزق الذي قادتها إليه العجمة «الملوكية» العثمانية» .. فالحنة تلد الهممة .. والمأزق يقدح رناد الفكر .. وشدة التضييق تجمع وتوحد الأشلاء الممزقة . طالما بقيت فيها بقية من حياة ؟ ! .

لقد بدأ . مع اقتراب القرن الثامن عشر الميلادي من نهايته . وكأنما التاريخ قد استدأر ليضع الأمة العربية على مفترق الطرق الذي وضعها عليه إبان ظهور الإسلام ؟ ! ..

● فكما عجز الفرس . قديما . عن قيادة المنطقة في مواجهة التحديات البيزنطية حتى لقد سيطر الروم على الشام ومصر وشمال إفريقيا . وأعانوا الأحباش على السيطرة على اليمن ومحاوله غزو مكة قلب وطن الجماعة العربية... كذلك

عجز الأتراك العثمانيون عن قيادة المنطقة في مواجهة الاستعمار الغربي الحديث .. فانفتحت في جدار الدولة العثمانية العديد من الثغرات التي نفذ منها الاستعمار ، بالامتيازات وبالاحتلال لكثير من أقاليم وطن العروبة وعالم الإسلام ..

● وكما تقدمت الأمة العربية ، قديما ، تحت رايات الإسلام العربي والعروبة المسلمة ، فقدادت المنطقة في فتوحات التحرير العربية التي أزاحت موجة الغزو البيزنطي وقيود الضعف الكسروي الظالم عن كاهل المنطقة ، لتقيم دولة وحضارة العروبة والإسلام ... وجدت هذه الأمة نفسها ، مع نهايات القرن الثامن عشر وبدايات التاسع عشر ، مدعوة إلى نضال ، تخرج به وطنها ومصيرها من المأزق ، وتجدد به شباب حضارتها بتجديد «دينها» كي تتجدد «دنياه» سالكة ذات السبيل ، ورافعة ذات الأعلام .. سبيل وأعلام «العروبة المسلمة .. والإسلام العربي» ! ..

فالوهابية : أومأت إلى الملامح القومية العربية للإسلام . عندما عارضت - لا السلطة العثمانية فحسب - وإنما «عجمة الدولة» ، بتذكيرها الأمة بشرط «القرشية» - أي العروبة - لسلطة الدولة العليا ! ..

والسنوسية : سارت على ذات الدرب عندما قال إمامها الأول محمد بن علي السنوسي [١٢٠٢ - ١٢٧٦ هـ - ١٧٨٧ - ١٨٥٩ م] بضرورة عروبة الخلافة .. وعندما تحدث إمامها الثاني أحمد الشريف السنوسي [١٢٨٤ - ١٣٥١ هـ - ١٨٦٧ - ١٩٣٣ م] عن الأتراك فقال : لقد أصبحوا «مقدمة النصارى» - [أي المستعمرين الأوروبيين] - ما دخلوا محلا إلا ودخله

النصارى ١٩»^(١) .. وعندما قال المهدي السوسي : « الترك والنصارى
إلى أقاتلهم معا »^(٢) ١٩ .

والمهدية : صنعت ذلك ، أيضا ، عندما أعلن المهدي ، محمد أحمد
[١٢٦٠ - ١٣٠٢ هـ ١٨٤٤ - ١٨٨٥ م] العداء للأتراك ، وشن عليهم حربا
لا هوادة فيها ، ودعا الشعب إلى مغامرة الأتراك^(٣) ١٩ .

أما تيار الجامعة الإسلامية : الذي تبلور من حول رائده جمال الدين
الأفغانى [١٢٥٤ - ١٣١٤ هـ ١٨١٨ - ١٨٩٧ م] فهو الذي بلغت في دعوته
روابط « العروبة » و « الإسلام » - كمرتكزات لمشروع النهضة المنشودة - قة
الوضوح والعمق والشمول ..

● فالأفغانى يؤمن بوحدة النوع الإنسانى ، وبوحدة الأمة الإسلامية ..
لكنه ينبه على أثر تمايز الأقاليم ، وما يحدثه هذا التمايز من مغامرة بين
« الأقوام » .. فوحدة النوع الإنسانى قد جعلت من الكرة الأرضية له وطنا ..
لكن اختلاف الأقاليم فى اللغة والأخلاق والعوائد والبيئة - وهى من طبيعة
الإقليم - قد ميزت الأقاليم بمؤثرات « ونحت هذه المؤثرات تحصل للأقوام
ميزة ، وتتأصل فيهم محبة البقاء على مألوفهم ، والذود عنه ، واعتبار من
خالفه أنه ليس منهم ، بل هو غيرهم بمعنى الغيرية المطلقة »^(٤) .

(١) د . أحمد صدق الدخاى [الحركة السوسية] ص ١٠٧ ، ٢١٦ طبعة بيروت سنة ١٩٦٧م

(٢) لوروت ستودارد - وشكيب أرسلان [حاضِر العالم الإسلامى] ج ١ ص ٢٩٩ طبعة بيروت
سنة ١٩٧١م

(٣) انظر كتابا [العرب والتحدى] ص ١٨٥ - ١٨٨ طبعة الكويت سنة ١٩٨٠م

(٤) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى] ص ٤٢٧ ، ٤٢٨ . دراسة وتحقيق : د . محمد عمارة
طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨م

● وفي المحيط الإسلامي الكبير تتميز الأمة العربية ، كأمة بالمعنى القومى .. ذلك « أنه لا سبيل إلى تمييز أمة عن أخرى إلا بلغتها ... والأمة العربية هي «عرب» قبل كل دين ومذهب . وهذا الأمر من الوضوح والظهور للعيان بما لا يحتاج معه إلى دليل أو برهان»^(١) !

● والجامعة الإسلامية لا تعنى تنازل الأمة العربية عن قسمة عروبتها المتجسدة في عروبة اللغة والتراث .. وإنما العكس هو الصحيح .. فهذه الجامعة الإسلامية لا بد وأن تقترن فيها «العروبة» بـ «الإسلام» ، فيتعرب غير العرب من المسلمين . لأن العربية هي لسان الإسلام ، كما هي لسان العرب ! .. ولذلك ، فإن الأفغان لم يقف من محاولات العثمانيين «تترك» العرب موقف الرفض والإدانة فقط ، وإنما دعا إلى تعرب الأتراك ، لتنتفى التناقضات من بينها ، ليس بتأخى «الأمتين» - التركية والعربية - وإنما استهدافا لبلوغها وضع الأمة الواحدة ، على أن تكون أمة عربية ؟ ! .. وفي ذلك يقول : «لقد أهمل الأتراك أمرا عظيما .. وهو اتحاد اللسان العربى لسانا للدولة . ولو أن الدولة العثمانية صنعت ذلك ، وسعت لتعرب الأتراك لكانت في أمنع قوة .. إنها لو تعربت لانتفت من بين الأمتين - [العربية والتركية] - النعرة القومية . وزال داعى التفور والانقسام . وصاروا أمة عربية ، بكل ما فى اللسان من معنى ، وفى الدين الإسلامى من عدل .. ولكنها فعلت العكس ، إذ فكرت بتترك العرب ! وما أسفها سياسة وأسقمه من رأى ؟ ! .. فكيف يعقل تترك العرب ، وقد تبارت الأعاجم في

(١) المصدر السابق . ص ٢٢٧

الاستعراب وتسابقت ، وكان اللسان العربي لغير المسلمين ، ولم يزل . من أعز الجامعات وأكبر المفاعخر ؟ ! »^(١) .

● وعلى ذات الدرب يسير عبد الرحمن الكواكبي [١٢٧٠ - ١٣٢٠ هـ ١٨٥٤ - ١٩٠٢ م] فيؤكد أن هذه الدورة من دورات نهضة الشرق لابد وأن تكون بقيادة عربية . لأن دور الإسلام الطبيعي في هذه النهضة وإمكانات الأمة العربية ، ومكانتها المتميزة إسلامياً تقتضى ذلك .. « فالعرب هم الوسيلة الوحيدة لجمع الكلمة الدينية . بل الكلمة الشرقية . العرب أنسب الأقوام لأن يكونوا مرجعاً في الدين . وقدوة للمسلمين . حيث كان بقية الأمم قد اتبعوا هديهم ابتداء فلا يأنفون عن اتباعهم أخيراً ... »^(٢) .. فكما قادوا نهضة الشرق إبان ظهور الإسلام . عندما التحت العروبة بالإسلام . هم اليوم الوسيلة الوحيدة للنهضة الشرقية المأمولة . ونحت ذات الأعلام .. أعلام العروبة والإسلام .

● وذات الأفكار . التي تلح على اقتران « العروبة » بـ « الإسلام » . وعلى الضرورة الإسلامية لوحدة الأمة العربية ، لتنايها القومى ، ولأهمية وحدتها القومية في نهضة عالم الإسلام .. ذات هذه الأفكار يؤكدونها ويفصلها إمام الجناح المغربي لتيار الجامعة الإسلامية الشيخ عبد الحميد بن باديس

(١) المصدر السابق . ٣٥٨

(٢) [الأعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبي] ص ٣٥٨ دراسة وتحقيق : د محمد عمارة طعة بيروت سنة ١٩٧٥ م .

[١٣٠٥ - ١٣٥٩ هـ - ١٨٨٧ - ١٩٤٠ م] فيقول : « إن العرب قد رشحوا
لهداية الأمة . وإن الأمم التي تدين بالإسلام وتقبل هدايته مستكلم بلسان
الإسلام . وهو لسان العرب . فينمو عدد الأمة العربية بنمو عدد من
يتكلمون لغتها ، ويبتدون مثلها بهدى الإسلام .. ونبي الإسلام . محمد -
صلى الله عليه وسلم - كان رسول الإنسانية .. ورجل القومية العربية والأمة
العربية في آن واحد .. » ^(١) أما الوحدة السياسية للوطن القومي للأمة العربية
فهي واجب .. ذلك أننا « إذا قلنا : العرب ، فإننا نعني هذه الأمة الممتدة من
المحيط الهندي شرقا إلى المحيط الأطلنطي غربا . والتي تنطق العربية وتفكر
بها ، وتتغذى من تاريخها ، وتحمل مقدارا عظيما من دمها ، وقد صهرتها القرون
في بوتقة التاريخ حتى أصبحت أمة واحدة . هذه الأمة العربية تربط بينها -
زيادة على رابطة اللغة - رابطة الجنس ، ورابطة التاريخ ورابطة الألم . ورابطة
الأمل . فالوحدة القومية والأدبية متحققة بينها لا محالة .. والوحدة السياسية بين
شعوبها المستقلة استقلالاً حقيقياً .. تمكن .. ونجب .. » ^(٢) .

● أما حسن البناء .. الذي قاد أكبر التيارات الإسلامية « المنظمة » في
عصرنا الحديث وأكثرها تأثيرا على الجمهور الإسلامي في وطن الأمة العربية .
بل وخارج هذا الوطن .. فإن موقفه من علاقة العروبة بالإسلام ، ومن قضية
الوحدة العربية شديد الوضوح والحسم .. وما أجدره بأن يجتذب

(١) [كتاب آثار ابن باديس | ج ٤ ص ١٧ - ١٩ ، ٢١ . جميع وإعداد د . عمار طالبي طعة
الخرائر سنة ١٩٦٨ .

(٢) المصدر السابق ج ١ ع ٢ ص ٣٩٨ - ٤٠٠

«العروبيين» و«الإسلاميين» إلى كلمة «واحدة» سواء «في هذا الموضوع» ! ..

لقد تناول حسن البنا علاقة «العروبة» بـ «الإسلام» ، والموقف من «الوطنية» - التي سماها «القومية الخاصة» - ومن «الوحدة العربية» ، ومن «الخلافة الإسلامية» . ومن وحدة النوع الإنساني ... تناول الموقف من هذه القضايا بروح المسلم الذي عاد إلى فطرته . متدينا بالإسلام : دين الفطرة .. فالإسلام ، من حيث هو عقيدة وشريعة ، هو «وضع إلهي» . جاء به الرسول - صلى الله عليه وسلم - للناس كافة .. فهو دين عالمي ، ليس خاصا بحس من الأجناس أو قومية من القوميات .. وهو ، بهذه الصفة ، وبهذه الطبيعة يؤلف رابطة «الأمة» - أي الجماعة والجامعة - بين كل الذين يتدينون به . من مختلف الأجناس والقوميات واللغات ..

لكن هذا الإسلام العالمي ، في عقيدته وشريعته ، قد تميز وامتاز بأنه دين الفطرة [فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم]^(١) .. ولذلك ، فإنه - في الأمور الحياتية - لا يقفز على «الواقع» ولا ينكره ولا يتجاهله أو يتنكر له . مادام غير مناقض لمقاصد الشريعة ، التي جماعها : تحقيق إنسانية الإنسان . كخليفة عن الله ، سبحانه في هذا الوجود ..

والإنسان المسلم إذا عاد إلى فطرته ، في موضوعنا هذا ، لاشك أنه واجد مايلي :

(١) الروم . ٣٠

لهذا الإنسان المسلم حنين وروابط وولاء وانتماء لموطن ولادته ومرتع نشأته ومحل ذكرياته .. وله مثل ذلك نحو « الوطن » الذى شب فيه .. وكذلك نحو « وطن » الأمة التى يشترك معها فى اللغة الواحدة . التى تسهل سبل الاتصال والتفاعل والوحدة . ومن ثم تنمى الألفة وعوامل الانتماء والولاء .. وخاصة إذا ما كانت هذه اللغة هى لغة ديه الأقدس وتراث هذ الدين وفكره .. . وله كذلك حنين وولاء وانتماء إلى الجماعة التى تدين بدينه . وهى أمة الإسلام ... ثم هو . من وراء ذلك . إنسان مدعو إلى أن يكون عضوا عاملا ومتفاعلا - بالتأثير والتأثر - مع روابط الإنسانية التى تضم كل بنى الإنسان ...

إنها « الدوائر » التى تنطلق من الأخص إلى الخاص إلى العام فالأعم .. من القرية . إلى الإقليم . إلى الوطن . إلى الدائرة القومية . إلى الجامعة الإسلامية . إلى العالم .. دوعا تعارض أو تناقض أو تضاد ..

وهى ذات الفطرة التى تنبئ التناقض بين ولاء الإنسان المسلم لأسرته وعائلته . وشعبه . وأمته . وإنسانيته ..

وهى ذات الفطرة التى لم تعرف التناقض بين حب الرسول - صلى الله عليه وسلم - لمكة - التى نحاط بها . عند مغادرته إياها مهاجرا . بقوله : « إنك أحب أرض الله إلى . ولولا أن قومك أخرجونى ما خرجت ! » - وهو الحب الذى تحرك حيننا جارفا عندما قدم الصبحابى أصيل بن عبد الله الهذلى من مكة إلى المدينة . فسأله الرسول :

- يا أصيل . كيف عهدت مكة ؟

- فقال : عهدتها قد انخضب جناها . وابيضت بطحاؤها . وأعذق
إذخرها ^(١) . وأسلم ثمامها ^(٢) . وأمشر سلمها ^(٣) !
فقال الرسول : حسبك يا أصيل ! .. دع القلوب تقرر .
لأثحرنا ^(٤) !

هي الفطرة التي لم تعرف التناقض بين هذا الحب الأخص الذي امتلأت
به نفس الرسول لمكة . وبين انتمائه الحديدي . منذ الهجرة للمدينة . التي سأله
أهلها - يوم العقبة - :

- « هل عسيت . إن أظهرك الله . أن ترجع إلى قومك وتدعنا » ^(٥) !

- فكان جوابه : « بل الدم الدم . والهدم الهدم - [أى منزلى فى
مبارلكم .. وقبرى فى مقابرکم .. ومن طلب دمکم فقد طلب دمی !] أنا
مکم . وأسم می . أحارب من حاربتى وأسالم من سالمتم ^(٥) » !

ولقد استمرت هذه الفطرة الإسلامية تعصم « وطنيتنا » من ضيق الأفق
الذى يخلق التناقض بينها وبين « قوميتنا » . كما يعصم « قوميتنا » من التعصب

(١) الإذخر : نبات حجازى وأعذق : صارت له أمد

(٢) التام : ست حجازى وأسلم : صار له حوص

(٣) أى أورد

(٤) ابن الأثير [أسد الغابة فى معرفة الصحابة] .. ترجمة الصحابي « أصيل » . صفة دار الشعب
القاهرة

(٥) رفاعه الطهطاوى [الأعمال الكاملة] ج ٤ ص ١٥٩ . ١٦٠ . دراسة وتحقيق د محمد
عمرة . طبعة بيروت سنة ١٩٧٧ م .

الذى يصطنع العداء بينها وبين جامعتنا الإسلامية .. فكان التدرج في الولاء والانتماء لفطرة إنسانية تركبها فطرة الإسلام ! .

من هذه الروح ، وهذا المنطق ، واستشرافا لهذا الأفق نظر الشيخ حسن البنا إلى العلاقة بين « الوطنية » و « الوحدة العربية » و « الرابطة الإسلامية » .. فقال - كمرشد عام للجماعة [الإخوان المسلمين] - : « كان الإخوان المسلمون أشد الناس حرصا على خير وطنهم ، وتفانيا في خدمة قومهم .. فالإسلام قد فرضها فريضة لازمة لامناصر منها أن يعمل كل إنسان لخير بلده ، وأن يتعاقب في خدمته ، وأن يقدم أكبر ما يستطيع من الخير للأمة التي يعيش فيها ، وأن يقدم في ذلك الأقرب فالأقرب رحما وجوارا ، حتى أنه لم يحز أن تنقل الزكوات أبعد من مسافة القصر إلا لضرورة ، إيثارا للأقربين بالمعروف . فكل مسلم مفروض عليه أن يسد الثغرة التي هو عليها ، وأن يخدم الوطن الذي نشأ فيه .. فالإخوان المسلمون يحبون وطنهم ، ويحرصون على وحدته القومية بهذا الاعتبار ، ولا يحدون غضاضة على أى إنسان أن يخلص لبلده ، وأن يفنى في سبيل قومه ، وأن يتمنى لوطنه كل مجد وكل عز وفخار ، هذا من وجهة القومية الخاصة .

ثم ، إن الإسلام الحنيف نشأ عربيا ، ووصل إلى الأمم عن طريق العرب ، وجاء كتابه الكريم بلسان عربى مبين ، وتوحدت الأمم باسمه على هذا اللسان . يوم كان المسلمون مسلمين ١٢ .. وقد جاء في الأثر : إذا ذل العرب ذل الإسلام . وقد تحقق هذا المعنى حين دال سلطان العرب السياسى وانتقل الأمر من أيديهم إلى غيرهم من الأعاجم والديلم ومن إليهم . فالعرب

هم عصبه الإسلام وحراسه ... وإن تمسكنا بالقومية العربية يجعلنا أمة تمتد حدودها من الخليج إلى المحيط . بل إلى أبعد من ذلك . ويبلغ عددها أضعاف الملايين المحصورة في وادي النيل . فأى مصرى يكره أن تشاطره هذه الشعوب التى تظللها العربية شعوره وآماله وأفراحه وآلامه ؟ ... إن من يحاول سلخ قطر عربى من الجسم العام للأمة العربية يعين الخصوم الغاصبين على خفض شوكة وطنه وإضعاف قوة بلاده . ويصوب معهم الرصاصة إلى مقتل هذه الأوطان المتحدة في قوميتها ولغتها ودينها وآدابها ومشاعرها ومطامحها ... فليس في الدنيا جامعة أقوى وأقرب من جامعة تجمع العربى بالعربى . فاللغة واحدة . والأرض واحدة . والآمال واحدة . والتاريخ واحد ...

إن وحدة العرب أمر لا بد منه لإعادة مجد الإسلام وإقامة دولته وإعزاز سلطانه .. فالعرب هم أمة الإسلام الأول وشعبه المتميز . وبحق ما قال الرسول - صلى الله عليه وسلم - « إذا ذل العرب ذل الإسلام » ولن ينهض الإسلام بغير اجتماع كلمة الشعوب العربية وهضتها . فكل شبر أرض في أرض وطن عربى نعتبره من صميم أرضنا ومن لباب وطننا ومن هنا وجب على كل مسلم أن يعمل لإحياء الوحدة العربية وتأييدها ومناصرتها . وهذا هو موقف الإخوان المسلمين من الوحدة العربية

إن الإخوان المسلمين يحترمون قوميتهم الخاصة باعتبارها الأساس الأول للنهوض المنشود . ولا يرون بأساً أن يعمل الإنسان لوطنه . وأن يقدمه في العمل على سواه . ثم هم . بعد ذلك . يؤيدون الوحدة العربية . باعتبارها الحلقة الثانية في النهوض . ثم هم يعملون للجامعة الإسلامية . باعتبارها

السياج الكامل للوطن الإسلامى العام . ولى أن أقول . بعد هذا : إن الإخوان يريدون الخير للعالم كله ... وأنا فى غنى . بعد هذا البيان . عن أن أقول : إنه لاتعارض بين هذه الوحدات . بهذا الاعتبار . وبأن كلا منها تشد أزر الأخرى وتحقق الغاية منها ..

أما الخلافة الإسلامية . فإن الإخوان المسلمين يجعلون العمل لإعادتها فى رأس منهاجهم ... ولكنهم يعتقدون أن ذلك يحتاج إلى كثير من التمهيدات التى لابد منها . وأن الخطوة المباشرة لإعادة الخلافة لابد أن تسبقها خطوات :

● لابد من تعاون تام ثقافى واجتماعى واقتصادى بين الشعوب الإسلامية كلها ..
● بلى ذلك تكوين الأحلاف والمعاهدات وعقد المحامع والمؤتمرات بين هذه البلاد ..

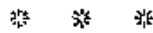
● بلى ذلك تكوين عصبة الأمم الإسلامية ..

حتى إذا استوثق ذلك للمسلمين . كان عنه الاجتماع على « الإمام » ... »^(١)

فهل هناك أوضح وأعمق وأشمل - فى عرض موقف الفكر الإسلامى من القومية العربية والوحدة العربية - من هذا الذى أعلنه الإمام حسن البنا ؟ ..
إن الوحدة الوطنية هى الشرط الضرورى والطريق الوحيد للوحدة

(١) حسن البنا [رسالة المؤتمر الخامس] ص ٤٥ - ٥٠

العربية ... والوحدة العربية للوطن القومي للأمة العربية واجب ملح . لأن
جامعة العروبة هي « أقوى الجامعات وأقربها » ... أما الخلافة الإسلامية
فإنها « رمز » لتضامن وعلاقات ثقافية واجتماعية واقتصادية وسياسية تفضي إلى
« عصبية أمة إسلامية » . تشد أزر المستضعفين في مواجهة الأقوياء .



هكذا ... وعلى هذا النحو الواضح والعميق والشامل والحاسم . عادت
إلى الفكر الإسلامي صحوته في عصرنا الحديث . فخرج من عصوره
المظلمة . ليواصل - بالاجتهاد والتجديد - تألقه الأصيل . في كثير من قضايا
« الدين » و « الدنيا » .. ومنها قضية العلاقة العضوية والرابطة الجدلية بين
« العروبة » و « الإسلام » . والموقف الإسلامي من الوحدة القومية لوطن الأمة
العربية .

عودة النعمة النشاز ؟ ! :

لكن ... بالرغم من هذا الوضوح والعمق والحسم الذي رأيناه : علاقة
عضوية وروابط جدلية بين « العروبة » و « الإسلام » . وانحيازنا من الفكر
الإسلامي . القديم والحديث إلى ضرورة النضال في سبيل الوحدة العربية
باعتبارها : وحدة المسلمين العرب ... وهم الأغلبية الساحقة في الأمة
العربية - ولأنها الطريق الوحيد إلى نهضة الإسلام والمسلمين من وراء الوطن
القومي للأمة العربية ، لما للأمة العربية من دور ريادي وقيادي في المحيط

الإسلامي ، تاريخيا ، ولما كان العربية والعروبة من الإسلام الدين والحضارة والتراث ...

بالرغم من هذا الوضوح .. فإن ساحة الفكر والسياسة قد عادت ، مرة أخرى - رغم زوال عصور العجمة « المملوكية - العثمانية » وازوار فكريتها المتخلفة - عادت ساحة الفكر والسياسة ، في وطننا العربي ، تشهد ، مرة أخرى تلك النعمة النشاز ، الزاعمة تناقض « العروبة » و « الإسلام » . وعداء « الإسلام » لـ « القومية العربية » و « الوحدة العربية » !!

فالفكر الإسلامي ، المرحوم سيد قطب [١٣٢٤ - ١٣٨٦ هـ - ١٩٠٦ م] بدعى « أن الوطنية » و « القومية » و « التجمعات الإقليمية » التي برزت في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، قد أدت دورها خلال هذين القرنين .. ولم تعد تملك رصيذا جديدا^(١) ! ..

وهو ، بذلك الادعاء ، يغفل ويتجاهل الدور الذي على هذه الروابط والحوامع أن تؤديه - في ظروف بلادنا وما ماثلها - في النضال ضد الاستعمار وفي سبيل النهضة .. فهي لم تستنفد ، بعد مهامها .. ثم إنها ليست هي « قوميات الغرب » العدوانية ، المعادية للقيم وأخلاقيات شرائع السماء ، بل إنها - في مثل واقعنا - السبيل للنهضة التي تمكن إنساننا من إحياء وتطبيق القيم والأخلاقيات والشرائع التي جاءت بها الأديان ..

وهو ينسى - في معارضة لما أثبتناه بهذه الدراسة - أية علاقة بين حضارتنا وبين العروبة ، ويتبنى مقولة تناقض صفة « العربية » مع صفة « الإسلامية »

(١) سيد قطب [معجم في الطريق] ص ٦ ، ٧ . طبعة القاهرة سنة ١٩٨٠ م .

في هذه الحضارة . فيقول : « ولم تكن هذه الحضارة الضخمة يوما ما » عربية » . إنما كانت دائما « إسلامية » . ولم تكن يوما « قومية » إنما كانت دائما « عقيدية » .. (١) ..

وهذه مقولة قد دحضناها . عندما أثبتنا انتفاء التعارض - بل وقيام العلاقة العضوية والروابط الجدلية - بين « العروبة » و « الإسلام » .

ثم هو يذهب فيسقط أى قيمة للرابطة القومية والقسيمات القومية في إيجاد الدائرة الأخص في المحيط الأوسع للملة والاعتقاد .. فيقول : « إنه لاوطن للمسلم إلا الذى تقام فيه شريعة الله . فتقوم الروابط بينه وبين سكانه على أساس الارتباط فى الله . ولاجنسية للمسلم إلا عقيدته التى تجعله عضوا فى « الأمة المسلمة » فى « دار الإسلام » . ولاقراية للمسلم إلا تلك التى تنبثق من العقيدة فى الله . فتصل الوشيجة بينه وبين أهله فى الله .. » (٢)

وهذه المقولة - التى تتناقض كل التناقض مع « نظرية الدوائر » . التى عرضناها للإمام حسن البنا - تتجاهل حقائق تبلغ فى فكر المسلم حد البديهيات :

● فوطن المسلم هو وطنه .. حتى لو لم تطبق فيه الشريعة الإسلامية .. وعليه الجهاد لتقوم الشريعة فيه ! ..

● وحسنية العقيدة . وعضوية الأمة المسلمة فى دار الإسلام لاتعنى الفقر

(١) المرجع السابق . ص ٥٩ .

(٢) المرجع السابق ص ١٥١

على الواقع المتمثل في الدوائر - الوطنية والقومية .. التي تسبق جامعة الإسلام .. فرباط الأمة لا يلغى رباط الأسرة ولا ينفي ذاتية الفرد ! ..

● والقراءة لا تختص برباط العقيدة الدينية .. فالإسلام لا ينكر بنوة المسلم لأبوية المشركين ولا يهدر حقوقها بل يدعو للبر بها - بر الابن بأبويه - وللقيام بحقوق القرابة - مع انتفاء رباط العقيدة الدينية - [ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله في عامين أن اشكر لي ولوالديك إلى المصير. وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفا واتبع سبيل من أناب إلى . ثم إلى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون] (١) .

والزوج المسم للزوجة غير المسلمة - الكتائية - قريب لها . وهي قريبة له - بل هي سكن له - وإن لم تنبثق هذه العلاقة - علاقة القرابة - من العقيدة في الله ! ..

تلك هي مقولة الأستاذ سيد قطب - إذا عرضناها على ما قدمنا من فكر الإسلاميين في هذه القضية . ظهر الفارق بينهما بجلاء .. فارق « الفكر الإسلامي » عن « نفثة الأديب المظلوم » ؟ ! ..

● وكاتب آخر : يلتقط هذا الخيط ، فينتي أن تكون للروابط القومية أية قيمة ، ويحكم بأن علاقة المسلم المصري بأخيه المصري مساوية تماما لعلاقته بالمسلم في أندونيسيا ونيجيريا وتركستان (٢) ؟ ... بل ويصل في هجومه على

(١) لقمان . ١٤ ، ١٥ .

(٢) د محمد رشاد خليل مقال بعنوان [شخصية مصر التاريخية] مجلة [الدعوة] عدد ربيع الثاني

سنة ١٣٩٨ هـ مارس سنة ١٩٧٨ م .

دعاة القومية العربية إلى حد وصفهم بأنهم : « الشعوبيون العرب » ^(١) !! ..

● وإحدى الجماعات الإسلامية الجديدة - [الجهاد] - : تجعل هذا الفكر - الخارج عن سياق تراث الإسلام في هذه القضية ، والمناقض لآراء أئمة الصحوة الإسلامية الحديثه في علاقة « العروبة » بـ « الإسلام » - تجعل [جماعة الجهاد] من هذا الفكر رأيها المعلن ، فعندما يسأل أحد قادتها : - « هل هنالك علاقة بين القومية والإسلام في تصوركم ؟

[يجيب] : « القومية نوع من أنواع العنصرية المرفوضة في الإسلام وهي مناصرة القوم ومؤازرتهم لمجرد الانتماء لهم قرابة أو لغة أو مكانا أو جنسا أما الإسلام فدعوة عالمية للناس كافة ، والرابطة فيه تقوم على أساس عقائدي فالولاء لأولياء الله معها تعدت درجة القرابة أو اختلفت اللغة أو نأى المكان والعداء لأعداء الله ولو كانوا أولى قرى . فدعوة القومية إن هي إلا شعار من تلك الشعارات الأفأكة التي نثا المستعمرون وروجوها ليسهل لهم تدمير الأمة الإسلامية بعد خلعها من ربطة الإسلام التي هي منبع قوتهم ومصدر عزتهم وليحولوا الأمة إلى فرق متناحرة ودويلات هشة يمكن السيطرة عليها ، بل - وإذلالها . وقد كان ... » !!

وصاحب هذا الفكر ، يعلن - في ذات الحديث - أن جماعته تسير على

(١) مجلة [الدعوة] عدد جهادى الأولى سنة ١٣٩٨هـ إبريل سنة ١٩٧٨م

الدرب الذى ارتاده المرحوم سيد قطب .. (١) ١٩

● وقاض سودانى : يجلس على منصة « محكمة الجنايات » ليحاكم عددا من الشباب بتهمة الانتماء إلى أحد الأحزاب القومية . حيث يحظر القانون قيام الأحزاب - فيحول سهام الاتهام إلى « القومية العربية » و « الوحدة العربية » .. ويقول - بجرأة مذهلة - : « ومن المعلوم ، ضرورة ، أن دعوة القومية العربية والوحدة العربية هي دعوة للعنصرية والشعوية ... تعارض الشريعة .. وهذا مما نجمع عليه أقوال المسلمين . » (٢) ١٩٩٩ !! ..

ونحن لانريد أن نقول لهؤلاء الذين يصفون « القومية العربية » بالعنصرية : إنكم تتحدثون عن القوميات العلمانية العدوانية الأوروبية . أما القومية العربية فهي دائرة انتماء لأمة تسعى لتحرر وصد العدوان - وهي ليست أيديولوجية مناقضة للإسلام . ولاحدارا يحول بين المسلمين العرب وبين النضال في سبيل التضامن الإسلامى والإخاء الإسلامى .. وأن الذين يحولون بين العرب وبين أن يمدوا نطاق نضالهم إلى ما وراء المحيط والخليج ليسوا هم القوميون وإنما الشعويون فيما وراء المحيط والخليج ؟! ..

كما أننا لانريد أن نقول للذين يصفون القومية العربية والوحدة العربية « بالشعوية » : إن مصطلح الشعوية . يعنى تحديدا : « النزعة التى تنكر

(١) عيود الرمر . صحيفة [النور] العدد ١٥٥ - ٧ جمادى الأولى سنة ١٤٠٥ هـ ٢٧ فبراير سنة ١٩٨٥ م .

(٢) القاضى : د . المكاشى طه الكباشى . وقائع جلسة محكمة جنابات أم درمان (رقم ١) بتاريخ ٥ فبراير سنة ١٩٨٥ م .

تفضيل العرب .. وتحاول تصغير شأنهم ، والخط منهم ..» (١) .. فالشعوبية هي النقيض لحركة القومية العربية ولدعاة ودعوة الوحدة العربية ! ..

نحن لا نريد تفصيلا لهذا القول فنضيف إلى هذه الصفحات تفنيدا لهذا الفكر الغريب ، إذ يكفي لتفنيده عرضه على النصوص الواضحة والعميقة والشاملة التي قدمناها للإمام الشهيد حسن البنا في هذا الموضوع - وهو الإمام الذي يزعم الانتساب إلى دعوته أصحاب هذا الفكر النشاز !! ..

لكن السؤال الجوهرى الذى سقنا هذه الآراء النشازكى نسأله هو :

إذا كانت مقولة التناقض بين « العربية » و « الإسلام » قد أقيمت في مجرى تطورنا الفكرى والحضارى من خارج المكونات الأصيلة لفكرنا العربى الإسلامى - من الشعوبية الفارسية تارة ومن العجمة « المملوكية - العثمانية » تارة أخرى .. وإذا كان فكر اليقظة والصحو الإسلامية الحديثة قد دحض هذه المقولة الشاذة - على النحو الذى قدمنا - فما هو المصدر الذى دفع هذه المقولة ، مرة أخرى ، لتظل في فكر الحركة الإسلامية المعاصرة على لسان المرحوم سيد قطب ؟؟ .. ذلك هو السؤال ، الذى تكشف إجابته مبلغ شذوذ هذه المقولة عن سياق الفكر الإسلامى لأمتنا عبر تاريخنا الطويل ...

ولحسن الحظ .. فإن الذين قرأوا فكر المرحوم الأستاذ أبى الأعلى المودودى [١٣٢١ - ١٣٩٩ هـ - ١٩٠٣ - ١٩٧٩ م] أمير [الجماعة الإسلامية] فى الهند

(١) انظر [لسان العرب] لابن منظور . طبعة دار المعارف . القاهرة . وكذلك [المعجم الوسيط] وضع مجمع اللغة العربية . القاهرة .

وباكستان ، ثم قرأوا فكر المرحلة الأخيرة للأستاذ سيد قطب ، يدركون - دون عناء - كيف جاء فكر سيد قطب في كتابه [معالم في الطريق] « صورة طبق الأصل » من فكر المودودي حول القضايا التي عرض لها هذا الكتاب .. ومنها علاقة الإسلام بالقومية ..

لكن الذين اقتدوا بسيد قطب في رفضه للقومية وعدائه للقومية العربية لم يدركوا خصوصية الملابس التي أفرزت فكر المودودي في القومية ، والخطأ البالغ في استعارة سيد قطب لهذا الفكر وتوظيفه في إطار ملابس لاوجه للشبه بينها وبين الملابس الخاصة التي أفرزته في شبه القارة الهندية ..

● لقد صاع المودودي فكره عن القومية ما بين سنة ١٩٣٧م وسنة ١٩٤١م عندما كان [حزب المؤتمر] الهندي يسعى لبناء الهند « الموحدة المستقلة الديمقراطية العنانية » .. ولقد أسس حزب المؤتمر دعوته على مقولة أن الهند « قومية واحدة » .. وتلك هي الفكرة التي رفضها المودودي وقاد ضدها صراعا فكريا وسياسيا طويلا انتهى باستقلال باكستان سنة ١٩٤٧م ..

● وكانت حجة المودودي أن الهند متعددة القوميات ، من المنظور الحضاري ، وأن وحدة الهند ستعني السيطرة الأبديّة للأغلبية الهندوسية (٧٥٪ من السكان) على الأقلية المسلمة (٢٥٪ من السكان) .. وأن « القومية الواحدة » المزعومة ، في ظروف الهند ، لا تعدو القومية بالمعنى السياسي المؤسسة على وحدة الأرض ، والتي تتجاهل التعددية القومية لسكان الهند المؤسسة على التمايز الحضاري .. فدافع المودودي عن التعددية القومية ، ودعا

إلى رسم مستقبل الهند المستقلة وفق معايير هذه التعددية القومية .. وفي ذات الوقت أدان هذه « القومية السياسية » ، بمضامينها الغربية العلمانية ، التي تعزل الإسلام .. على الرغم من أنه دين ودولة - عن الهيمنة على المؤسسات المنظمة لشئون الحياة ..

● ف ضد هذه « القومية السياسية » ، التي رآها المودودي سبيلا لسيطرة الأغلبية الهندوسية على الأقلية المسلمة ، والتي رآها - محتواها العلماني - أيديولوجية معادية للإسلام .. ضد هذه القومية بعينها كان هجوم المودودي فلقد قال عنها : « إنها دين جديد » يناقض « الدولة الفكرية » الإسلامية ويحول بين أصحابها وبين التزعة « الإنسانية » ، وهي تعنى « أن يحل الشعب منزلة الألوهية » ! .. ولذلك فليس لها مكان ولا « حظ في إيجاد دولة الإسلام الفكرية وتركيبها » ^(١) .. ثم مضى الرجل فساق ضد هذه القومية الهندوسية الكافرة كل الاتهامات ، التي جاء سيد قطب فانتزعها من ملابساتها ووظفها في إطار الأمة العربية ذات القومية الواحدة ، التي يكون المسلمون فيها أكثر من ٩٥٪ من تعداد أبنائها ؟ ! ..

● إن الذي رفضه المودودي هو القومية السياسية [Political Nationality] بينما كان داعيا مناصرا للقومية الحضارية [Cultural Nationality] .. فهل من الدقة - ولا نقول الأمانة ؟ ! - أن تؤخذ بعض عبارات الرجل لتوظف في رفض قوميتنا العربية ، وطابعها الحضاري واضح كل الوضوح ، وأغلبيتها

(١) المودودي [نظرية الإسلام السياسية | ص ٧١ ، ٧٥ طبعة بيروت - صر مجموعة عوا -
« نظرية الإسلام وهدية في السياسة والقانون والدستور » | سنة ١٩٦٩ م

الإسلامية لا تخطئها عين ، ونزعها الإنسانية التحررية لا تحق ، وعلاقتها
بالإسلام على النحو الذى قدمنا ؟ ..

وهل من الدقة - ولا نقول الأمانة ١٢ - أن يغفل الناقلون النصوص
الأخرى الكثيرة التى ناصر فيها المودودى القومية ، فيضلوا بذلك الإغفال
قطاعات شباية من الحركة الإسلامية ويشعلوا نيران معارك فكرية مفتعلة تقسم
صفوف الأمة إلى « إسلاميين - لاقوميين » و « عربيين - لا إسلاميين » ؟ ..

إن المودودى الذى استندوا إليه فى هذه المقولة النشار ، هو الذى يقول عن
القومية « ... أما القومية ، فإن أريد بها الجنسية [Nationality]
فهى أمر فطرى لا نعارضه ، وكذلك إن أريد بها انتصار الفرد لشعبه ، شريطة
ألا يستهدف تحطيم الشعوب الأخرى ، وإن أريد بها حب الفرد لشعبه فنحن
لا نعارضها كذلك ، إذا كان هذا الحب لا يعنى معنى العصبية القومية التى تجعل
الفرد يحتقر الشعوب الأخرى .. وإن أريد بها مبدأ الاستقلال القومى ، فهو
هدف سليم كذلك ، فن حق كل شعب أن يقوم بأمره ، ويتولى بنفسه تدبير
شئون بلاده . أما الذى نعارضه عليه ونعتبره شيئا ممقوتا نحاربه بكل قوة فهو
القومية التى تضع ذاتها ومصالحها ورغباتها الخاصة فوق جميع الناس
ومصالحهم ورغباتهم ، والحق عندها هو ما كان محققا لمطالبها واتجاهاتها ورفعة
شأنها ، ولو كان ذلك يظلم الآخرين وإذلال نفوسهم ! » ^(١) .

هكذا سقطت وتسقط مقولة التناقض بين « العربية » و « الإسلام » ،

(١) المودودى [الإسلام والمدنية الحديثة] ص ٢٥ ، ٢٦ . طبعه القاهرة . سنة ١٩٧٨م

والزعم برفض الإسلام لقوميتنا العربية والوحدة القومية لوطن الأمة العربية .. سقطت قديما لأنها كانت «شذوذا أعجميا» ألقته الشعوبية والمعجمة «الملوكية - العثمانية» في المحرّى الذى شهد ارتباط عروبنا المسلمة بإسلامنا العربى .. وتسقط حديثا لاستنادها إلى نصوص مبتورة محردة من الملاحظات التى أفرزتها وموظفة فى إطار مغاير ، بل ومناقض ، لذلك الذى أفرز تلك النصوص ...!

* * *

بقى أن نقول ، فى ختام هذه الصفحات :

● إن عروبة إسلامنا لا تعنى اختصاصه بالعرب من دون الناس ، وإنما تعنى ضرورة اقتران العربية بالإسلام ، تنتشر أينما ينتشر وتدرس حيثما يتم التبشير بعقيدته وشريعته .. لأنها السبيل الوحيد الحق لوعى الإسلام الحقيقى وفقهه عقيدته وشريعته وإقامة نظامه فى هذه الحياة .. إن ترجمة معانى القرآن قد تيسر الإيمان بعقائد الإسلام ، والتعبد بشعائره .. فالعقائد والشعائر ثوابت قد اكتملت ، وليست موضوع تطور ولا إبداع ولا اجتهاد .. ولكن الإبداع الحضارى والسياسى يستلزم الاجتهاد المتطلب وفقه العربية وعلومها إلى الحد الذى ييسر فقه الإعجاز البيانى للقرآن الكريم .. ولذلك فإن حضارة الإسلام كانت وستظل عربية فى جوانب الفكر والإبداع .. ومن ثم فلا بد من اقتران العربية والتعريب بالإسلام ، فتنمو العروبة - أفقيا ورأسيا - بنمو وانتشار الإسلام

● وإن الإدراك السياسى لعلاقة « العروبة » بـ « الإسلام » يتجاوز ، فى الخطر والأهمية ، الميدان الثقافى و « النظر الفكرى » إلى حيث يمثل طرق النجاة لأمتنا من التشرذم .. فالحديث عن مشروع « إسلامى - لا عربى » لن يجد فيه العرب غير المسلمين مكانا لهم - وتلك ثغرة فى جدار أمة مستهدفة يترصد بها أعداء كثيرون ! .. كما أن الحديث عن مشروع « عربى - لا إسلامى » لن يجد فيه الأقليات المسلمة غير العربية مكانا لها - وتلك ، أيضا ، ثغرة لا يجب الاستهانة بمخاطرها .. أما الوعى بعمق العلاقة بين « العروبة » و « الإسلام » فهو الذى سيتيح لمشروعنا الحضارى أن يجمع المسلمين غير العرب ، برباط الإسلام الذى تتدين به أغلبية الأمة .. وأن يجمع العرب غير المسلمين ، برباط العروبة التى هى قومية أغلبية الأمة .. كما أنه هو السبيل إلى جمع التيارات الممثلة لأصالة الأمة : « العروبيين » و « الإسلاميين » ، فى مواجهة قوى « التغريب » والغزو الفكرى والاستلاب الحضارى ..

● وإن إقامة وحدة الدولة القومية للأمة العربية ، هى فى الحقيقة وحدة للمسلمين العرب - أغلبية الأمة العربية - وتحقيق للشرط الأول من شروط النهضة الإسلامية الأشمل ، بإيجاد القيادة والريادة العربية فى المحيط الإسلامى ، وهى القيادة التى ارتبطت عزة الإسلام بقوتها ومنعتها . كما اقترن تراجعها بما أصابها من تدهور وتشرذم واضمحلال .. وصدق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عندما قال : « الكفر فى العجمة . ولا يغيض العرب إلا منافق .. وإذا ذل العرب ذل الإسلام » ! ..

- ٣ -

نصوص فى
الإسلام .. والعروبة ..

- ١ -

جمال الدين الأفغانى

(١٢٥٤ - ١٣١٥ هـ - ١٨٣٨ - ١٨٩٧ م)

(أ) الرد على « رينان » ..

(ب) العروبة .. والتعرب ..

(جـ) فعاليات آداب اللسان - (اللغة) - ..

(د) بين العرب والأتراك

(هـ) المسألة الشرقية ..

(و) السلطان عبد الحميد ..

الرد على ريسان^(١)

إن المحاصرة تشتمل على نقطتين أساسيتين : (١) أن الديانة الإسلامية كانت - بما لها من نشأة خاصة - تناهض العلم . (٢) أن الأمة العربية غير صالحة بطبيعتها للعلوم ما وراء الطبيعة ولا للفلسفة .

« فأما عن النقطة الأولى فإن المرء ليتساءل ، بعد أن يقرأ المحاضرة عن آخرها : - أصدر هذا الشر عن الديانة الإسلامية نفسها ؟ أم كان منشؤه الصورة التي انتشرت بها الديانة الإسلامية في العالم ؟ أم أن أخلاق الشعوب التي اعتنقت الإسلام ، أو حملت على اعتناقه بالقوة ، وعاداتها وملكاتها الطبيعية هي جميعا مصدر ذلك ؟ لا ريب أن قصر الوقت المخصص للمسيو ريسان قد حال دون جلالة هذه النقطة » .

فرؤساء الكنيسة الكاثوليكية المبعجلون لم يلقوا أسلحتهم بعد . كما أعلم

(١) في سنة ١٨٨٣م أُلقيَ المستشرق الفرنسي اوسب ريسان محاضرة - بباريس - انقضى فيها العرب والعروبة ، انطلاقا من مباحث « العصري - العرق » في تقسيم الأحاسيس وانحصارات مرد عليه الأفعى محاصرة مشربها صحيفة « دينا » الفرنسية في ١٩ مايو سنة ١٨٨٣م « الأعمال الكاملة جمال الدين الأحمدي » ص ٢٠٨ - ٢٠٩

وهم عاكفون على محاربة ما يسمونه بالتدليس والضلال (بمعنى العلم والفلسفة) .

«وأما النقطة الثانية فالكل يعلم أن الشعب العربى خرج من حال الهمجية التى كان عليها وأخذ يسير فى طريق التقدم الذهنى والعلمى ، ويغذ السير بسرعة لا تعادها إلا سرعة فتوحاته السياسية . وقد تمكن فى خلال قرن من التكيف بالعلوم اليونانية والفارسية .. فتقدمت العلوم تقدما مدهشا بين العرب وفى كل البلدان التى خضعت لسيادتهم ، وقد كانت رومة وبيزنطة المدينتين الرئيسيتين لعلوم اللاهوت والفلسفة ، بل مبعث أنوار المعارف الإنسانية كلها ... ثم جاء الوقت الذى وقف فيه علماء هاتين المدينتين عن البحث . وتهدمت فيه نصبهم التى أقاموها للعلم ، ودرجت كتبهم القيمة فى طى النسيان ، وقد كان العرب فى ذلك الجهل حين شرعوا يتناولون ما تركته الأمم المتقدمة . فأحيوا تلك العلوم المتدثرة ورقوها وخلعوا عليها بهجة لم تكن لها من قبل ، أو ليس هذا دلالة بل برهاننا على حبهم الطبيعى للعلوم ؟ .

صحيح أن العرب أخذوا عن اليونان فلسفتهم كما أخذوا عن الفرس ما اشتهروا به ، بيد أن هذه العلوم التى أخذوها بحق الفتح قد رقوها ووسعوا نطاقها ، ووضحوها ونسقوها تنسيقا منطقيا . وبلغوا بها مرتبة من الكمال تدل على سلامة الذوق ، وتنطوى على الثبوت والدقة النادرين . وقد كان الفرنسيون والانكليز والألمان لا يبعدون عن رومة وبيزنطة بعد العرب عنها ، وكان من السهل عليهم أن يستغلوا كنوز علوم تلك المدينتين ، ولكنهم لم يفعلوا . حتى جاء اليوم الذى ظهر فيه مسار المدنية العربية على قمة جبال البرانس يرسل ضوءه وبهائه على الغرب . فأحسن الأوروبيون إذ ذاك استقبال أرسطو بعد أن تقمص الصورة

العربية^(١) . ولم يكونوا يفكرون فيه وهو في ثوبه اليوناني على مقربة منهم أو ليس هذا برهان آخر ناصعا على مزايا العرب الذهنية وحبهم الطبيعي للعلوم ؟

« وبينما يسلم مسيو رينان بأن البلدان الإسلامية في غضون خمسة قرون من سنة ٧٧٥ م إلى أواسط القرن الثالث عشر كانت تحتوى علماء ومفكرين عظاما . وأن العالم الإسلامي إزاء ذلك كان يفوق العالم المسيحي في الثقافة الذهنية . اذ يقول : - ان أكثر الفلاسفة الذين شهدتهم القرون الأولى للإسلام كانوا كتابهى السياسيين من أصل حرائى أو أندلسى أو فارسى أو من نصارى الشام . ولست أريد أن أعمط علماء الفرس صفاتهم الباهرة ولا أن أغض الطرف عن الدور الجليل الذى لعبوه في العالم الإسلامى . ولكن أرجو أن يسمح لى أن ألاحظ أن الحرائيين كانوا عربا وأن العرب لما احتلوا أسبانيا لم يفقدوا جنسيتهم بل ظلوا عربا وأن اللغة العربية كانت إلى ما قبل الإسلام بعدة قرون لغة الحرائيين ، وكونهم قد حافظوا على ديانتهم القديمة . وهى الصابئة ليس معناه أنهم لم ينتموا إلى الجنسية العربية وقد كانت أكثرية نصارى الشام عربا غسانيين اهتموا بهدى التصراية أما ابن باجة وابن رشد وابن طفيل فلا يمكن القول بأنهم أقل عربية من الكندى بدعوى أنهم لم يولدوا فى جزيرة العرب . وخصوصا إذا اعتبرنا أن لا سبيل إلى تمييز أمة عن أخرى إلا بلغتها .

« ثم ماذا يكون لو قصرنا نظرنا على الأصل الذى ينتمى إليه العظيم . ولم نأبه للنفوذ الذى سيطر عليه . والتشجيع الذى لقيه من الأمة التى عاش فيها ؟

(١) وذلك بعد شرح أبى الوليد بن رشد لأخبار أرسطو

لو فعلنا ذلك لقلنا إن نابليون لا ينتمى إلى فرنسا ، ولما صح لألمانيا أو إنجلترا أن
تدعى كليهما الحق في العلماء الذين استوطنوهما بعد أن رحل أصولهم إليها من
بلدان أخرى .

العروبة ... والتعرب^(١)

لبيان تأثير الوفود على قوم بأحسن مما ألفوه . وأنه أفعل الوسائل بعد القهر . للحكم فيهم . ولترك الأثر بينهم . فيكنى لذلك النظر في ظهور الإسلام وفتوحاته . حربا كان أم صلحا ، وانتشاره في أقل من عصر في أعظم المعمور من الأرض ، فقد عم جزيرة العرب . فالشام مصر . فالعراقين ، فالهند فأقصى الشرق ، حتى فروق الآستانة . وهاهو قد خالده أبي أيوب الأنصاري وجامع القرية المشهور « بجامع العرب » في محلة خلطة من أكبر الشواهد .

نعم إن زحف العرب ووفودهم على البلاد ، إنما كان لتعميم الدعوة الدينية أولا . وإلا فأداء الجزية للدخول مع القوم في حقيقة المساواة . وللقيام في حفظ كيان المجموع . وكان من يقبل الإسلام لا إكراه عليه في قبول العادات وتعليم اللسان . كذلك من أدى الجزية فلا إكراه عليه في دينه وباقى مميزاته . بل يبقى على مألوفه وموثرات إقليمه وخواصه . ولا خطر على قلب فاتح إسلامي أن يعمم آداب قومه ولسانهم ، أو أن يتحد لذلك أقل الوسائل . ومع ذلك نرى أن كل من دان بالإسلام ، أو رضى بدفع الجزية قد سارع عن طيب خاطر وارتياح عظيم للتعرب .

(١) المصدر السابق . ص ٢١٩ . ٢٢٠ .

والسبب في ذلك أن وفود العرب حملت معها أخلاقا فاضلة ظهرت
أفضليتها بأجلى المظاهر ، مثل الأتفة من الكذب ، والوفاء بالعهد ، ومطلق
العدل وكمال الحرية والمساواة الحقيقية بين الملك والسوقة ، وإغاثة الملهوف ،
والكرم والشجاعة ، وباقي الفضائل من الهيئات المتوسطة بين الحلال الناقصة .

وأمر طبيعي ما لهذه الفضائل والصفات من السلطة الأدبية على من لم
يتخلق بها ، لأن الإنسان إنما يفعل بروحه وشعوره . والانتخاب الطبيعي
فطري في الحيوان ، وأشدّه ظهورا ووضوحا في الإنسان .

لذلك انعطفت قلوب الأمم على استحسان الوافدين من العرب لبلادهم
سواء في البلاد التي فتحت عنوة ، ووضعت فيها الحرب أوزارها ، أو صلحا
وأولى مقدمات العادة الاستحسان . ثم المزاولة حتى ترسخ ملكة .

والإعجاب بآداب قوم ، باعث على حب التقرب منهم ، وأعظم وسائل
التقرب : التفاهم ، فيتبارون في تعلم اللسان .

هكذا تم للعرب ورسخ لهم في معظم مافتحوه من الأمصار والبلدان
والممالك ، آثار أدبية ، فضلا عن الآثار العمرانية ، من لسان وعادة وأخلاق
ما أمكن استئصالها ، بل بقيت رغم أنوف من دال من بعدهم من الدول
ومن هيئات الحكومات المختلفة . فمصر ، بينما هي هرقلية رومانية ، وعقوقسها
عامل له فيها . أصبحت في قليل من الزمن إسلامية في الأغلبية . عربية
بالصورة المطلقة ، في كافة مميزات العرب . وهكذا القول في سوريا والعراق
وغيرهما ، بدون أن يبدل في سبيل ذلك التغيير أدنى مسعى . أو يستعمل له أقل
الوسائل . كما ذكرنا .

نعم إن أكبر حامل ، وأفضل عامل ، على تعرب أولئك الأقوام هي الفضائل
الأخلاقية والصفات العالية التي كانت تأتي بها العرب ، مع بأسهم وشجاعة
أبطالهم .

فعاليات آداب اللسان^(١)

أما انتشار اللسان العربي . ما عدا بلادهم (شبه الجزيرة) ، فليس للفتحين أدنى دخل فيه . ولا اتخذوا له أسبابا ووسائل . بل إن ما وجد في اللسان العربي من الآداب الباهرة والحكم والأمثال والمواعظ ، ذلك هو الذي أحله من الانتشار هذا المحل .

حتى إن العرب قبل الإسلام . وهم في تلك الحالة الجاهلية ، والبدواة المحضة ، وبعدهم عن كل حضارة . كانوا يحلون بآداب لسانهم من أعظم الملوك . مثل كسرى أنو شروان محلا رفيعا . ويأخذون الجوائز ويثرون بتجارته من الأعاحم بآداب لسانهم ، وما يجرى على ألسنتهم من الحكمة التي تأخذ بمجامع القلوب .

هكذا كان الذكاء العربي الفطري المتوقد يناسبه سلاسة اللسان وأدبه فكان إذا ظهر بين العرب حكيم طيب مثل « الحرث بن كلدة » مثلا استطاع بآداب اللسان ، وفرط الذكاء أن يقارع ويضارع أكبر حكيم من العرس مع حضارته ومدنيته .

(١) المصدر السابق ص ٢٢٠ . ٢٢١ .

وكذلك الشاعر في قبيلته إذا نبغ . ولو كان وصيح السب . أجلته القبيلة واعتبرته حامى ديارها بأدبه وشعره . وأعنته بالمال والماشية .

وأما في الحضارة الإسلامية . وفي دولها . فكثير ممن برع بالأدب فأوصله إلى مرتبة الوزارة فالإمارة . وأما من أثرى بأحد جوائز الخلفاء والملوك . من الأدباء . فلا يعدون كثرة .

هذا بعض ما لآداب اللسان من التأثير المادى ، أما التأثير المعنوى فيكفى أنه من أكبر الجوامع التى تجمع الشتات ، وتنزل من الأمة بمنزلة أكبر المفاخر .

فكم رأينا من دول اغتصب ملكها الغير . فحافظت على لسانها محكومة وترقيت الفرص ، ونهضت بعد دهر ، فردت ملكها ، وجمعت من ينطق بلسانها إليها ، والعامل فى ذلك إنما هو اللسان قبل كل ماسواه . ولو فقدوا لسانهم لفقدوا تاريخهم ، ونسوا مجدهم . وظلوا فى الاستعباد ما شاء الله .

بين العرب والأتراك^(١)

جاء في يوم أديب كبير من أدباء الأتراك ويده كتيب صغير فيه مفكرات
« ضا باشا » بخطه ، فقرأت ما ترجمته بالحرف :

« توغلنا في الفتوحات حتى توسطنا كبد أوروبا ، ودخلنا « فينا » ، واضطرونا
للتخلى عنها ، وليس لنا ثمة أدنى أثر أدبي أو مادي . وهكذا بالاستدلال
سيكون حالنا في بقية تركيا أوروبا مثل بلغاريا ، والفلاخ ، والبغدان
والصرب ، والجبل الأسود ، وغيره من البلدان .

إنه ليحزن المؤرخ كلما تكرر قول الشاعر العربي :

إن آثارنا تبدل علينا فانظروا بعدنا إلى الآثار
أما العرب ففي كل ما فتحوه من البلاد ، حربا كان أو صلحا ، قد تركوا من
الآثار الأدبية والمادية ، ما لا يقوى على ملامشاته الأدهار . فالمسلم ، أو المسيحي
واليهودي ، في مصر والشام والعراق ، يحافظ كل منهم قبل كل شيء على نسبته
العربية ، فيقول « عربي » ثم يذكر جامعته الدينية .

(١) المصدر السابق - ص ٢٢٣ - ٢٢٦

فهي تنطق بأفصح بيان على مر الدهور أنها حكمت من تلك الأمة.
وآثارهم المادية في الأندلس لا تقل عن آثارهم المدنية في باقي الأمصار
والأغرب أن التركي والجركسي والأرناؤوطي ، وغيرهم من العناصر ، يستعرب
متى وجد أو سكن في بلاد العرب بأقرب الأوقات ، ويمتزج في المجموع حتى
تخال أنه «عربي قح» .

أما في حكمنا فلم نستطع أن نستترك أدنى فئة من حكمناهم من الأمم بكمال
العدل الإسلامي ، والسماح التركي ولين الجانب] . أهـ .

* * *

لو كان ضيا باشا لأزلت له ريبة من حال قومه الأتراك .
إن المرحوم ضيا باشا أشكل عليه الأمر ، لما اعتقد أن الأتراك قد شابهوا
العرب تماما ، بمعنى أنهم دخلوا في دين الإسلام ، وجروا على سننهم
بافتوحات ، من حيث العدل ولين الجانب . ولكن فاته أن لكل دين لسانا
ولسان دين الإسلام (العربي) . ولكل لسان آداب ، ومن هذه الآداب تحصل
ملكة الأخلاق ، وعلى حفظها تتكون العصية .

فالأتراك أهملوا أمرا عظيما ، وحكمة نافعة قالها السلطان محمد الفاتح . رحمة
الله عليه . وأحب أن يعمل بها السلطان سليم . وهي قبول اللسان العربي
لسان الدولة ، وتعميمه بين من دان بالإسلام من الأعاجم ليفقهوا أحكامه
ويعشوا على سنى الارتقاء . بعلومه وآدابه ومكارم أخلاقه ومحاسن عوائده .

فالعرب ما يجحوا بفتوحاتهم بشكل الدين الظاهري فقط ، بل بفهم

أحكامه والعمل بآدابه . وذلك ما تم ولا يتم إلا باللسان . وهو أهم الأركان .
قامت السلاطين العظام من آل عثمان بفتوحات جلية . وعملت خيرات
ومبرات جزيلة ، وقربوا إليهم من كان في عصرهم من فحول العلماء من
المسلمين ، وقد تفردوا إذ ذاك بمعرفة اللسان العربي . وبعض علومه . وعرف
أولئك الفحول قدر اللسان العربي . وغالوا في التقدير حتى إنهم كانوا (على
ما قيل) لا يعطون وظيفة علمية إلا لمن يحفظ القاموس العربي للفيروز آبادي
(وهذا لو صح . غلو غير معقول) . وليس هو من الفائدة في شيء .

بقيت الأتراك في فتوحاتهم على تلك الصورة . وفي مجموعهم بدادة صرفة
لم يتخذوا غير القوة المادية آلة . ولم ينقلوا سواها للبلاد .

نعم إنهم تدينوا بالإسلام على أبسط حالاته وأشكاله بكمال التعبد . ولكن
على بعد سحيق من فهم معاني القرآن وآداب اللسان . والعرب لو كانوا مثلهم
لما استطاعوا أن يكونوا أحسن أثرا منهم . ولما كان لهم حضارة ولا مدنية
ولبقوا بدادة محضة . همهم فتح البلاد للاستغلال ، وجمع الأموال للرفاه
والترف . أو للبلدخ والسرف .

الأمر الذي قضى على الدول التي نخلت قبل الإسلام وبعده . والتي ما كان
ليقضى عليها سواه . فالانغماس في السفه والترف والبلدخ والسرف ، من العوامل
الأساسية في حالي الاضمحلال والانقراض ، وأقل نتائجه صرف الهمم عن
معالي الأمور . وعدم الاكتراث بما يحتاجه الملك من التعهد بأسباب دوام
ال عمران .

وأشد ما فيه من المخاطر احتقار مطالب الجمهور التي كلما تبادى الملك

المحجب وعونته المترفون المسرفون في إهمالها والضعط على طالبها ، تحتشد الأحقاد في الصدور ، وتستحكم منهم النقرة ، ولا يلبث كل ذلك طويلا حتى يظهر في حين لا يرقبه الملك ولا أعوانه الذين غصبوا حق الأمة وهضموا حقوقهم العامة بصفاتهم « خاصة »

فالأتراك قد اتفقوا شكلا مع العرب ، والنتيجة من حيث هي نتيجة مؤلة فواحدة للقومين والأمتين أما فضل العرب بترك الآثار العمرانية والأدبية فليس له كبير أهمية بالنظر إلى نتائج الأمور ومصيرها .

* * *

إن عدم ترك الأتراك أثرا بعد أن توغلوا في فتحهم لأوروبا ، ودخولهم « لفينا » وتخليهم عن تلك الأمصار بدون آثار أدبية أو عمرانية ، لا يعد حطة . كما أن بقاء آثار العرب في الأندلس من أقدم واجبات من استطاع أن يأتي بتلك الآثار ، وتجشم لإبرازها وإبداعها تلك المهالك والأخطار والأموال ، أن يعد لحفظها في حورته ، ونحت سلطانه ما استطاع من قوة ، لا أن تبقى أثرا بعد عين .

والأثر في مثل هذه الحال أدعى للحرن ، لأنه أفصح من كل بلاغة على التفريط ، وأنطق على السفه وعدم الكفاءة من كل حجة وبرهان .

بل أرى أن عدم ترك الأثر على هذا النمط أولى من تركه ، لعدم التأثير (وان خالف هذا القياس بعض الأوروبيين) .

فالفرنسيس مثلا ، ألف مهرة كتبهم «شناعات الحرب السبعينية» سنة

١٨٧٠ م ، وصوروا ضعفهم تجاه الألمان ، وعدم تدبيرهم للأمور ، وهفوات قوادهم . وأسباب خذلانهم ، وما أتاه عدوهم من الجرائم ، والتثيل بصورة أقطع من أن يصورها العدو الألمان ، فهم يذكرون ذلك ليثأروا ، ولكن على اهتمام متواصل ، لتروى الأمة ، وإعداد ما يستطيعون من قوة .

وأما العرب والترك ففي كل فتوحاتهم ، سواء فيه من ترك آثارا أو لم يترك فقد تركوا من بعدهم خلفا من الأبناء يذكرون مجد الفتح ويفتخرون بأعمال آبائهم وأجدادهم . وعن إعداد القوة هم غافلون . وعن واجباتهم لاهون ، وإن ذكرتهم لا يذكرون . وإن أيقظتهم لا يفيقون ، بل هم في غفلتهم راقدون ، وعلى القدر كل شيء يحيلون .

ولو عملوا بالقانون الإلهي ، وبقوله : « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » لكان أوفر محير للأمة . و (السعى) أدل السبل على النجاح وأحسن ما تربي عليه الناشئة .

المسألة الشرقية ^(١)

مختصر المسألة الشرقية . هي العراك بين الغربي والشرقي . وقد لبس كل منهما لصاحبه درعا من الدين .

فالغربي تدرع بالنصرانية . والشرقي بالإسلامية ، وأهل الديانتين كالألة الصماء بأيدي محركها فالقائمون بالنصرانية يسخرون الدين لأجل الدنيا ويحسنون أمر دنياهم وما تتطلبه مظاهر الحياة .

والعاملون بالإسلامية . يسخرون الدنيا لأجل الدين ، وإذا هم لا يعملون بأحكامه . يخسرون الدين والدنيا معا .

إن فتح القسطنطينية ، تلك العاصمة العصماء . من قبل السلطان محمد الفاتح (٨٥٦ - ٨٥٧) هي التي ولدت الخقد في الملوك المسيحيين ضد المسلمين ، وأخذت من ذلك الوقت تجمع كيدها ونحصرهما . لمناسبة الدولة العثمانية . وتعمل على إذلالها وضعفعتها . وإخراجها من فتوحاتها الأوروبية بكل وسيلة ، وفي كل سانحة وفرصة .

(١) المصدر السابق . ٢٢٨ - ٢٤٢ .

والأكثر في الحروب والتعلب . والانتصار فيها ، إنما يكون بالقوة والعلم
ولو أن الدولة العثمانية راعت من يوم تأسست ، أو من يوم ما استقلت به سنة
٦٩٩^(١) ، وراقبت حركات العالم الغربي ، وجرت معه حيثما جرى في مضمار
المدنية ، والحصارة ، وقرنت إلى فوحاتها المادية ، القوة العلمية ، على نحو
ما فعلت اليابان أقله ، لما كان ثمة مسألة شرقية ، أو لما ظهر ذلك التباين الذي
لا يثبت معه الحكم طويلا ، وهو تحكم الجهل بالعلم ، أو «حكومة جهل
تحكم حكومات علم» ، ولا يتسنى اليوم للسيف المجرى أن يحكم بأمة يدافع عنها
مدافع العلم ، وما مسألة الدين إلا ذريعة تظهر بعد استحالة القوة للوصول
لتلك الغاية «وهي دفع الجهل ، والحكومة الجاهلة عن الحكم بأمة عالمة لها
تاريخها ولسانها ، وآثارها ، ولو كانت بالية» .

وإذا كان للضعيفة الدينية شيء من الدخول في إيجاد المسألة الشرقية
والاحتفاظ بها ، فإنها ليست هي كل أسباب المسألة . بدليل أن سلاطين
آل عثمان فتحوا ، وتوغلوا ، وضموا الممالك ، وكانوا يدينون بالإسلام . ومن
دخل في ملكهم ونحت سيطرتهم كانوا بصارى ، وأشد تمسكا بالنصرانية مما
هم الآن . فلو كان أمر الدين هو الباعث على هذا الحقد والمهاضة ، لكان
الأولى أن يظهر إذ ذاك ، وعدم ظهوره ، بل رضوخ الطوائف والإمارات
النصرانية للحكم العثماني الإسلامي ، أكبر دليل على أن مسألة الدين لم تكن
هي وحدها الفاعلة في أمر المسألة الشرقية ، التي امتدت ، وستممت إلى غير

(١) هجرية - وهي توافق سنة ١٣٠٠م ، وفيها كان تأسيس الدولة العثمانية في الأناضول .

تركيا ، وستعم كل قارة وكل حكومة تتفق في شكلها وحكمها وتفریطها مع حكومة تركيا .

إذا تفحصنا عوامل تغلب الدول الإسلامية على الحكومات النصرانية لوجدناه منحصرًا « في القوة والعلم » . وهكذا يدول أمر الدول انتصارًا وانكسارًا .

والدول المسيحية اليوم إنما يغلبون الحكومات الإسلامية بالعلم ، مصدر القوة وينغلب المسلمون بالجهل ، مصدر الضعف .

علم الأتراك يوم تسنى لهم فتح الممالك « علم الحروب وتعبئة الجيوش » وجهل الأوروبيون ذلك . ولم يضارعوهم فيه ، فانتصر الأتراك وانكسر الفريجة

التزم الأتراك ، والسلاطين العظام منهم جانب الدين ، وكان على منصة المشيخة الإسلامية علماء أعلام ، وفقهاء ، وأجلاء علمون عاملون بحقيقة الإسلام وأحكامه . فعدلوا في الرعية ، وأمّوا من دخل في ذمتهم ، وسهلوا لهم الصعاب ، وحافظوا على جامعتهم من دين ولسان وعادة ، فرضخ المستعمرون (بالفتح) من الطوائف النصرانية لقوة العثمانيين وعلمهم وبالنسبة لجهل غيرهم في تلك الأعصر .

فظل النصارى في طاعة العثمانيين ، وظلوا في كل المعاني رعية لهم ما دامت تلك المؤهلات والصفات في الفريقين . القوة والعلم في الحاكم ، والضعف والجهل في المحكوم . حتى إذا انعكس الأمر ، وبان الجهل مصدر الضعف في الأمة الحاكمة ، وظهر العلم مصدر القوة في الأمم المحكومة ، نهضت للتخلص من ربة الاستعباد لمن دونهم في العلم ، واستبسلت في الرجوع لحكم ذاتها

بذاتها . وقد سهل عليهم كل صعب في هذا السبيل ، إقرار الدولة لهم على جامعاتهم الكبرى ، من دين ولسان وتاريخ ، تلك النعمة التي كانت وتكون على الدولة أكبر نعمة ، ولا مناص لها من تحمل أعباء ذلك ، وهي سنة الوجود .

لأن الأمم المحكومة إذا تيسر لها المحافظة على جامعاتها ، من دين ولسان وتاريخ ، ولم تستحل وتنحل في غير عنصرها ، فهي أقرب الناس للفرص وأعلق الخلق بإعادة مجدها ، ومجديد وإعادة سيرتها الأولى . ولن تشيها أشد العوامل عن المطالبة بها ، وتزداد نشاطا ، وتستمد قوة معنوية كلما آنت من حاكمها المستهين بها استغلاله بغير حق . واستهضاها لحقها بغير وجه مشروع وبقهر ليس له من الانصاف نصيب . وبقتل يحيى ميت العرائم .

ومن ينظر إلى تاريخ الدولة العثمانية ، ونشأتها ، لا يتالك نفسه من الإعجاب بنشاطها ، وكثرة ما فتحت من الممالك ، وأخضعت لسلطانها من الأمم ، ويأخذ به الاستغراب كل مأخذ من تفريطها ، وعدم جريها مع أحكام الزمن ، وحرمانها نفسها ، ومن دخل في حكمها من الأمم أن تجرى وإياهم في ميدان الحضارة ، وأن يبقى لها أثر من الآثار في تلك الممالك والأمصار .

نشأت في الجيل السابع للهجرة ، أو آخر القرن الثالث عشر الميلادي بآسيا الصغرى ، فاستخلص السلطان عثمان الأول ما بأيدي السلجوقيين من الملك . وهو القسم الشرقي . ومشوا على ما بيد الروم من القسم الغربي .

وقد حول العثمانيون أنظارهم ، وصرفوا قوتهم واهتمامهم إلى شبه جزيرة

البلقان ، تلك البقعة الغربية في وضعها الجغرافي ، إذ وقعت في أقصى الجنوب الشرقى من أوروبا ، وإلى جانب آسيا .

وبعد انقسام المملكة الرومانية إلى شرقية وغربية ، كانت شبه جزيرة البلقان في المملكة الشرقية ، وفيها غير تركيا : اليونان والصرب ورومانيا والجبل الأسود ، ولك من هذه الأمم عنعنات ، ومطامع ، وعروق وأنساب ونزعات طائفية واختلافات مذهبية ، وأميال سياسية ، كانت معها البلقان في سائر الأعصر مهد الفتن والقتل ، ولا تزال كذلك . وسيعم بلاء البلقان أهله ويتعدى إلى ما سواه من الممالك ، لأن كل دولة من هذه الدويلات الصغيرة تطمح في تكبير حوزتها ، وهذا الكبر لا يتم إلا بتصغير جارتها ، أو بابتلاعها ومن وراء هذه المطامع في حكومات البلقان وابتلاع بعضهم بعضا ، الدول الضخمة كروسيا والنمسا ومن ساعد على استقلالهم ، وإخراجهم من الحكم العثماني . وهم بمساعدة البلقانيين على الاستقلال إنما يريدون أن يتلعه ويملكوه جزءا بعد جزء ، وستكون الحججة . عنصر السلاوى ، والصقلى وكانت الحججة من قبل تخليص النصرانية من الحكم الإسلامى ، والصحيح : قوى يحاول اقتناص وابتلاع الضعيف .

* * *

هذا بحث يطول .. ولنعُد إلى ما كنا فيه من النظر إلى ما ترك العثمانيون من الأثر فيما افتتحوه من الممالك .

افتتح السلطان مراد الثانى بلغاريا سنة ١٣٨٢ م . وبقيت تحت حكم العثمانيين وفي حوزتهم نحو من أربعة أجيال ، والبلغاريون قوم أشداء ، وأصلهم

من المغول ، مثل المجر والفنلنديين . تزحوا من جهات قازان في روسيا وأوروبا ونزلوا بلاد البلقان في الجيل^(١) السابع للميلاد ، وهي من أول نشأتها ألقت الاستقلال وحافظت على مكانتها . وكانت دولة البيزنطيين تخشى بأسها . ثم أخذت في التقهقر ، فافتتحها الروسيون ، ثم ناهضتهم وأعادت استقلالها في القرن الحادى عشر . ثم دخلت في حوزة الروم وصارت جزءا من المملكة الرومانية الشرقية ، ثم استقلت ثالثة . ولم يفقد البلغاريون استقلالهم أربعة أجيال إلا مع العثمانيين . وماذا فعلوا مع البلغار في مدى تلك الأجيال ، وأى أثر عثماني تركوا في بلغاريا ؟ .. لا شىء .. بلى .. تركوا لهم جامعاتهم الكبرى من دين ولسان وتاريخ . يسرون مع الحضارة والمدنية مع السائرين وحكامهم الأتراك من القاعدين مكتفين بالخفضة والغطسة والفخر بالأسلاف .

هذه أربعة قرون وبلغاريا تحت الحكم العثماني ، وهي لا تزداد إلا انحطاطا . حتى إذا ما صارت إيالة ممتارة بموجب معاهدة برلين ، نهضت وقطعت شوطا بعيدا في الحضارة والعمران والترقى ، وصار لها جانب يخشى حتى من الدولة العثمانية .

أما الصرب ، فهي أيضا من فتوحات مراد الثانى سنة ١٣٨٩ م . وبقيت كذلك في حوزة العثمانيين أكثر من أربعة قرون . وقد حاولت التخلص من حكم العثمانيين مرارا ، وآخر ثورة قام بها الصربيون دامت أربعة عشر عاما

(١) الجيل : القرن .

نال بها الصربون من الباب العالى نوعا من الاستقلال ، وسنة ١٨٧٨ م
استقلت تماما بمقتضى معاهدة باريس ، ولحق بجارتها بلغاريا .

وكذلك اليونان ، فقد أخضعتها الدولة العثمانية مع من أخضعت من ممالك
البلقان ، وظلت فى حوزتها ونحت حكمها إلى سنة ١٨٢٩ م ، فاستقلت بمنصرة
أوروبا وبعد حروب طويلة دامت سبع سنين ، واشتركت فيها العارة
(الأسطول) المصرية بقيادة إبراهيم باشا ، إذ أرسلها محمد على باشا الكبير إلى
«المورة» (الأمر المعروف) .

أما رومانيا ، وكانت فى القرن الثانى عشر عبارة عن إمارة «فلاخيا»
و«مولدافيا» ، وقد خضعوا للعثمانيين ، وكانوا يؤدون الجزية من سنة ١٣٩٢ م
إلى سنة ١٧١٦ م . ثم بعد ذلك دخلوا تحت سلطة الحكم العثمانى ، ثم احتلت
روسيا البلاد وأعادت لهم امتيازاتهم التى كانت لهم وخسروها من سنة
١٧١٦ م ، ثم كانت ثورة سنة ١٨٢٦ م وانتهت باختيار الرومانيين البرنس
«شارل دى هو هنزلن» الألمانى . ثم قرر مؤتمر برلين استقلال الولايتين المعروفتين
«بالفلاخ والبغدان» استقلالاً تاماً ، ودعاهما باسم رومانيا ، وفى سنة ١٨٨١ م
جعلت الإمارة مملكة ونودى بأمرها ملكاً .

أما الجبل الأسود ، وله من اسمه نصيب ، فهو مقاطعة صغيرة ، جبلية
وعرة ، لا تزيد مساحته عن ٣٦٣٠ ميلاً مربعاً ، وسكانه مائتان وسبعة وأربعون
ألفاً . وهم من العنصر الصقلبى . وأكثرهم فلاحون رعاة ، على غاية من
شقاء العيش ، هذه الإمارة الحقيرة ، قديمة العهد بالاستقلال ، ولم يرضخها
ويفتحها من العثمانيين إلا ذلك السلطان العظيم سليمان القانونى ، الذى وصلت

السلطنة العثمانية في عصره إلى منتهى المجد والعظمة .

ولما كان الجبل الأسود على ما ذكرنا من الفقر والوعورة ، وأهله أولئوبأس وشدة واستبسال في الدفاع عن استقلالهم ، فكانت الدولة تعد الجبل من ولاياتها ، والجبلون من حين لآخر يجاهرون بالعصيان ، حتى إذا حملت عليهم جيوش العثمانيين يتظاهرون بالرضوخ ، وهكذا من سنة ١٥٢٦ م إلى زمن البرنس «نقولا» وهو ملك الجبل الحالي ظل معترفا بسيادة الدولة إلى سنة ١٨٦٢ م ، ثم جاهر بالعصيان والتمرد حتى إذا كان مؤتمر برلين ، «ذلك القضاء المبرم» على الدولة ، فقد أعلن استقلال الجبل الأسود ، والتحق بإخوانه أمراء شبه جزيرة البلقان ، وتخلصوا من حكم آل عثمان .

هذه هي شبه جزيرة البلقان التي افتتحها العثمانيون ، وبقيت في حوزتهم وتحت سلطانهم الأجيال ، فماذا أحدثت في تلك الممالك من آثار العمران ؟ وماذا تركت في تلك الشعوب من الذكرى ؟ وماذا أعدت من الخزم والرأى والتدبير لبقاء تلك المقاطعات والإمارات في حوزتها ؟

وإذا كان الجواب : «لا شيء» .. حينئذ يضطرنا الإنصاف ، إلى أن نقول : إن الدولة العثمانية في فتوحاتها ، وما شاهدناه من تفريطها ، لم تكن لتحسن الاستعمار^(١) ، بل بقيت سدا منيعا للأمم المحكومة منها ، يحول بينها وبين الأخذ بأسباب الحضارة ومجاعة الأمم الراقية في مدنيها وعلومها وصنائعها .
شعوب من ذكرنا من ممالك البلقان يزيدون عن السبعة عشر مليونا ، ولكل

(١) الاستعمار ، هنا ، معنى : العمران

أمة ومملكة جامعات ومميزات ، من تاريخ ودين ولسان وعادات وأخلاق
وهي في كل هذا على طرفي نقيض مع العثمانيين الأتراك ، فلو أخذت الدولة
بالحزم بعد الفتح ، وعملت بصائب الفكر والرأى ، لعلمت أن بقاء تلك
الممالك في حوزتها يحتاج للإيجاد جامعات تجمعها مع شعوبها فتعتمد إلى وسائل
تعميم لسانها ، بإحداث دور علم وغيرها ، حتى إذا استطاعت ، وتسنى لها في
ظرف جيل أو جيلين أن تعميم لسانها ، كان لها أحد العوامل الكبرى للبقاء
ولعدم سرعة الانفصال والتفكك ، إذ يكونون أتراكا باللسان مثلاً ، أو بالدعوة
الدينية كما تفعل اليوم دول الاستعمار بيت المبشرين من الانجليين والرهبان ،
ويتشيدهم « دور العلم » .

فإذا انتشرت الدعوة الدينية ، وقبلتها الأمة المستعمرة ، اشتركوا بجامعة
ثانية ، وهي اللسان ، والدين ، فكان الارتباط أشد وأوثق .

وهكذا إذا فازت على مدى أربعة أجيال ، أن تعميم الجامعات التي لها بين
تلك الشعوب ، اشتدت عرى الاتحاد وانتفى التباير ، وأسباب النفرة ، أما
والدولة العثمانية لم تفعل في ممالك البلقان ما ذكرنا ، ولم تفكر فيه ، فضلاً عن
أن تسعى إليه ، فكان خروج تلك الممالك من حوزتها ، واستقلالهم أمراً محتماً
وقوعه لا مرد له (سنة الله في خلقه) .

ثم لننظر في فتوحات الدولة للممالك الإسلامية ، من مصر ، والشام فحلب
فبغداد ، وتونس ، وسائر الممالك العربية ، فنراها قد تمكنت من الفتح مع قليل
من المقاومة والحروب ، وكان لجامعة الدين التأثير العظيم في قبول الحكم
العثماني ، ولو أن الدولة قبلت من يوم استقلالها ، وعملت بالفكرة من عهد

السلطان محمد الفاتح ، أو السلطان سليم ، بأن يتخذ اللسان العربي . وهو لسان الدين ، لسانا رسميا . وتسعى بكل قوتها وجهدها لتعريب الأتراك ، لكانت في أمنع قوة وآمن حصن من الانتفاض والخروج عن سلطانهم ، ولكنها فعلت العكس . إذ فكرت بتثريك العرب . وما أسفها سياسة وأسقمه من رأى لأن تدين الأتراك بالدين الإسلامى ، على جهل باللسان العربى . جعل لهم فى القلوب متزلة ، ساقط وتسوق الأمة العربية للعطف عليهم مع سائر المسلمين .

فما قولك لو تعربت ، وانتفى من بين الأمتين النعرة القومية . وزال داعى النفور والانقسام « بالتركى وبالعربى » ، وصاروا أمة عربية . بكل ما فى اللسان من معنى . وفى الدين الإسلامى من عدل . وفى سيرة أفاضل العرب من أخلاق ، وفى مكارمهم من عادات .

لا ريب لو تيسر ذلك لكان إعادة عصر الرشيد للمسلمين ميسورا . وجمع شتات الممالك الإسلامية تحت لواء سلطان عادل همام . مثل الفاتح أو السلطان سليمان ، أو السلطان سليم . غير عسير .

ولكن مع الأسف . عدم قبول فكرة السلطان الفاتح ، أو السلطان سليم لتعميم اللسان العربى . خطأ بين . لا يضارعه إلا توغل العثمانيين فى أوروبا . وشبه جزيرة البلقان . وجعل القسطنطينية عاصمة السلطنة والخلافة .

لأن المستعمرة منها عظم موقعها وطاب هواؤها ، لا يصح أن تتخذ قاعدة أو عاصمة الملك ، لأسباب أهمها : أن المستعمرة كالثوب العارية ، قابل للاسترداد ، والممالك لا تسقط ولا تتبعثر أجزاءها إلا من ضعف السلطان فى

عواصمها . ومنها بُعد المستعمرة . على الغالب ، عن مجموع القوة ، وإحاطتها بأعداء الملك وأعدائه .. الخ ..

انظر ، هل ترى دولة أوروبية جعلت عاصمة ملكها في غير قلب مملكتها وفي غير مكان نشأة تلك الأمة . فالانكليز لم يجعلوا عاصمتهم ، مع سعة ملكهم إلا جزيرة بريطانيا ، وفي قلبها مدينة «لندن» وهي الجزيرة التي سكنها البريطانيون في دور توحشهم . والفرنسيين في باريس ، قلب بلاد الغالين .

وهكذا بقية الدول ، لأنه على تقدير ذهاب المستعمرات كلها ، وانتقاضها فإنه يبقى من البلاد ما كان لهم ملكا خاصا . وعلى هذا جرى الخلفاء الراشدون فقرهم كان المدينة . وهي قلب البلاد العربية . محاطة بقوة العرب من سائر الجهات ، ثم الأمويون ، في الشام ، ثم العباسيون في بغداد ، والعاصمة أنشأها المنصور إنشاء ، وكان في ملكهم من المدن ما هو أطيب هواء . وأمنع موقعا من بغداد ، ومع ذلك فلم يستبدلوا العارية بالملك الصرف .

نعم إن فتح القسطنطينية فيه من الفخر للفاتح ما لا يحويه الدهر ، خصوصا بعد أن حاوله الأمويون وبعثوا بالجيوش تحت قيادة يزيد ، ومعه خالد أبو أيوب الأنصاري ، صاحب المقام المعروف بالسلطان أيوب ، ولم يظفروا .

ثم العباسيون . واكتفى الرشيد ومن بعده بأخذ الجزية من ملكها ، وعبرهم من ملوك الإسلام ، ولم يظفر بالفتح ، وبمعنى الحديث الشريف «لنفتحن القسطنطينية» ، فنعم الأمير أميرها ، ونعم الجيش ذلك الجيش» ، إلا ذلك الفاتح العادل الكبير السلطان محمد طيب الله ثراه .

ولا أرتاب أن فتح القسطنطينية لو تيسر للأمويين أو للعباسيين ، لما جعلوها

عاصمة ملكهم ، بل جعلوها كغيرها من الممالك مستعمرة ، تتقوى المملكة
بجباية الأموال منها ، وفوضوا أمر إدارة شئونها لأحد الدهاة منهم ، كما فوضوا
مصر ، والأندلس ، والسند ، وبخارى ، وبلاد الفرس ، وغيرها للمقتدرين
من العمال ، وهذا هو الخزم وغاة الصواب .

وأما شبه جزيرة البلقان ، فإن كان في ظاهر أمر فتحها من الأتراك ما يدل
على القوة واليأس ، فإنه في حقيقة الأمر كان مصدر بلبال للدولة . وإضعاف
لقتها ، ولم تسكن فيها القلاقل والفتن . ولم تفت الدولة من تجهيش الجيوش ،
وراقة الدماء في سبيلها ، كل ذلك ، وبالتيجة كان البقاء في البلقان غير
مضمون ، بل كان استقلال ممالك البلقان مجزوما فيه من كل عاقل .

ولقد سمعت من المرحوم «على باشا» ذلك الصدر الأعظم ، الكبير
العقل ، النافذ النظر . وهو يعتقد أن داء البلقان سوف يضعف جسم الدولة ،
وسوف تضطر مكرهة على التخلي عن البلقان ، بعد خسارات مادية ومعنوية
لا يمكن تعويضها ، وأنه وجد طريقة للتخلص من البلقان مع حفظ شرف
الدولة والاستعاضة عنه بمبالغ جسيمة يمكن إصلاح بقية المملكة بها .

ويا للأسف ، كيف أن هذا الرجل الكبير لم يتوفق لتحقيق هذا الفكر
السليم ، والعمل الذي فيه كل خير وكان أمر الله مفعولا .

فلو فعلت الدولة ، وأخذت برأى على باشا وغيره من حكماء الوزراء
أو بالذى تصوره لها من أنها تتخذ بغداد عاصمة ملك ومقر الخلافة ، وعندها
الدجلة والفرات والخابور والبصرة وشط العرب . ذلك النيل الذى يفيض كل
أربع عشرة ساعة مرة ، وتلك السهول الخصيبة التى على جانبي وضحى ذينك

النهرين العظيمين ، والتي مساحتها عشرة أضعاف أراضي مصر ، على أقل تعديل ، وأعظم منها خصبا وأكثرها إنباتا .

* * *

رحم الله محمد على باشا ، ذلك الأُمى الكبير ، نابغة رجال أعصار وأجيال ، فقد طوى تحت جتته هما تدكدك الجبال ، وقلنا يقدم به على هائل الأعمال ، وتحت عمامته دماغا فعلا وعقلا حوالا وبصرا نافذا ، وفكرا ثاقبا ورأيا صائبا .

بلغ الرجل من حدة الذهن وفرط الذكاء والدهاء وبعد النظر أنه بعد أن حسّ خراج مصر تحسينا بينا ، ونظم ما اختل من أمورها ، واستنهر النيل للقناطر الخيرية ، ومنها يجرى في الجداول والترع ، عرض على الباب العالي والتمس من السلطان أن يعيظه بالبصرة عن مصر ، وأنه بعد إسعاف هذا المسئول ، مئة وفضلا ، فتأمل ٩٩ ..

هذا الرجل العظيم ، لو لم يعلم يقينا أن البصرة خير من مصر ، لما طلب ما طلب ، هذه هي البصرة ، وأما الموصل « ذات الريعين » ، فما شئت عنها فقل .

ثم إذا علمنا أن المسافر من بغداد في عصر الرشيد كان يمشي في ظل الأشجار حتى يبلغ غوطة دمشق ، ومصب هر « قويق » في حلب ، ثم إذا انجبه من هناك للشمال ورأى سيحون وجيحون يجريان في سهول « أطنة » ، وفي الجنوب عند دمياط ورشيد والإسكندرية يصب النيل المبارك ، وأن كل تلك الممالك والأمصار والأنهار ، وهي ملك خاص للمسلمين ، لا ينزعهم بها

منازع إلا أولو القوة من أهل المطامع . ونزاعهم بالختل والخذاع وبالحيلة والمكر ليس إلا .

فلو أنصف الأتراك أنفسهم ، وأخذوا بالخزم . واستعربوا . وترأسوا ذلك الملك وعدلوا في أهله . وجروا على سنن الرشيد أو المأمون - على الأقل - ولا نقول . على سنن وسيرة الخلفاء الراشدين .

فمن كان من دول الأرض أغنى منهم مملكة ؟ أو أعز جانباً ؟ وأمنع حوزة ؟ من ؟؟ ولكن مع الأسف . إن إخواننا الأتراك لم يحسنوا من أعمال الدنيا غير « الحرب » . وهم فيما عدا ذلك ، وفيما يختص في شؤون العمران - أقل روية وعملاً من سواهم . يسوء في ، وأنا ممن يحبهم . وأنا أثر كل ما افتركت بما ارتكبه من الخطأ في عدم قبولهم اللسان العربي ، لسان الدين الطاهر . والأدب الباهر . وديوان الفضائل والمفاخر . باللسان التركي !! . ذلك اللسان الذي لو تجرد من الكلمات العربية والفارسية لكان أفقر لسان على وجه الأرض . ولعجز عن القيام بحاجيات أمة بدوية ، ولولا أنه خليط من ثلاثة ألسته . لما رأينا للأتراك شعراً يُقرأ ، أو منشوراً يُفهم ، أو بياناً يترجم عن جنان . وهو في حالته هذه إذا وزن مع لسان من الألسته الحية ، تجده قد خف وزناً ، وانحط معنى .

فكيف يعقل تتريك العرب ، وقد تبارت الأعاجم في الاستعراب وتسابقت ، وكان اللسان العربي لغير المسلمين ، ولم يزل ، من أعز الجامعات وأكبر المفاخر ، فالأمة العربية هي « عرب » قبل كل دين ومذهب وهذا الأمر من الواضح والظهور للعيان ، ما لا يحتاج معه إلى دليل أو برهان .

لقد كاشفت السلطان عبد الحميد في أكثر هذه المواضيع في خطوات عديدة . فكان يسمع بكل إصغاء . ولكنه في النتيجة كان قليل الاحتفاء بكل ما قلته له . وفهمت من أوضاعه . وأسارير وجهه . أنه لا يعتقد أن قبول اللسان العربي . وفكرة الفاتح والسلطان سليم بذلك صواب . وكذلك لا يجب أن يعترف أن توغلهم في أوروبا . وفتح شبه جزيرة البلقان كان خطأ .

نعم . . إن زمن العمل قد مضى وانقضى . وكان الخزم في إخراج تلك التصورات إلى حيز العمل ، والدولة العثمانية إبان عزها واستكمال قوتها وبأسها ، أما اليوم فالأمر للقوة . والطاعة على الضعيف . وليس باستطاعة عبد الحميد أن يفعل ما كان بإمكان السلطان الفاتح . أو السلطان سليمان . أو السلطان سليم أن يفعله .

فحولت وجهي عن ما لا يمكن إلى ما يمكن . وفيه وقاية ما بقى من أملاك السلطنة العثمانية في غير أوروبا .

فقلت لسلطان عبد الحميد : أتأذن في تقديم لائحة في تصوراتي ، لتحسين حالة المملكة . والتحوط بصونها من مطامع الأعداء ؟ . قال : لا أريد أن تكتب شيئا من ذلك ، إذ لا أحب أن يطالع أحد على ما يدور بيننا . بل قل لي ما تشاء أن تكتبه بكل حرية وصراحة . فأنا لك من السامعين . قلت : أعتقد جلالة السلطان أن مصر لو بقيت ولاية ترسل إليها الولاة من الآستانة . مثل باكير باشا . ومحمد باشا اليكشي . وأمثالهم . لجمع الأموال من غير وجهه وبوزيعها على رجال الدولة هنا « الآستانة » فقط . على ما هو مشهور وغير خاف على جلالته . هل هو خير لمصر وأهلها وللسلطنة ؟ أم جعلها خديوية كما هي

قبل الانكليز ، خاضعة للدولة ، ومن الأجزاء المتممة للسلطنة ، يأتخر خديويها بأمرهم ، والعساكر المصرية عثمانية تسرع لتلبية الأمر باللاحاق مع جيوش السلطان ، ويكل المعنى رعية خاضعة طائعة ؟ .. فتفكر مليا ، وحول وجهه نحو النافذة عني ، حتى ظننت أن الحديث قد أساءه ، وأنه لا يجب الخوض فيه ولا العود إليه ، وإذا هو بغتة قد التفت ، وتوجه بكليته إلى ، وكأنه قد انتهى من ذكرى ماجرى من محمد على باشا وابنه إبراهيم باشا ، وكيف أنه كاد أن يستخلص السلطنة العثمانية فتحا بالقوة . وقال : لو قلنا إن وجودها خديوية أحسن من بقائها ولاية ، ثم ماذا ؟ .. قلت : يا مولاي ، إن السلطنة العثمانية تتألف اليوم من ثلاثين ولاية ، ومساحة أملاكها في آسيا فقط ستماية وواحد وستين ألف ميل مربع ، ومساحة بريطانيا وإيرلاندا مائة وعشرون ألف ميل . فتأمل (١) فتبدأ بالبعيد منها ، والمطموع فيها ، مثل طرابلس الغرب ، فتجعلها خديوية ، ثم إلى ولايات بغداد ، فالبصرة والموصل فتجعلها خديوية ، وإلى بيروت ، وسورية ، وحلب ، مع القدس فتجعلها خديوية ، ثم إلى جزائر بحر سفيد وكريد مع أدرنة وسلانيك فتجعلها خديوية ، ويشترط عليها تعزيز العمارة البحرية قبل كل شيء .

ثم الحجاز ، فتجعل خديويها الأقدر من الأشراف الهاشميين اليوم والأحسن سيرة ، ثم اليمن ، وخديويها يكون الإمام الزيدى .

أما الأناضول وولاياته قونية . وأنقرة . وأيدى . وأطنة . وقسطنطين . وسيواس . وديار بكر . وبغليس . وأرضروم . ومعمورة العزيز . وآن وطرابزون . فتقسم إلى ثلاث خديويات . يكون لكل خديوية منفذ بحرى

الواحد على البحر الأسود إما في سيواس أو صامسوم . والثاني في بروسه والثالث في أزمير .

وبلاد الألبان ، وهي ولايات قوصوه ، ويانيه ، وأشقودرة ، ومتاستر فتجعلها خديوية أيضا . هذه يا مولاي عشر خديويات ، بل عشر ممالك كل واحدة منها أعظم موقعا من اليونان ، وأكبر مساحة ، وأخصب أرضا ، وأنشط قوما . وأرجح عقولا ، وما يقعدهم عن اللحاق بمن انفصل عن السلطنة العثمانية . أو التفوق عليهم ، إلا شكل الحكم ، وقيود وأغلال المركزية القاتلة للهمم ، الموهنة للعزائم .

ومن يرسل لتلك الولايات من الولاة اليوم ، أحد رجلين ، إما الخامل البليد ، المرتكب ، وهم جمع المال وتوسيع الخراب . وإما الرجل النشيط العاقل ، وليس له من الأمر شيء . إلا الاستئذان من الباب العالى لترميم جسر في بغداد مثلا سقط منه حجران أو أكثر . فلا يصدر الإذن إلا بعد أشهر وأعوام . وبعد أن يكون طغيان النهر قد جرف كامل الجسر .

هذه الخديويات ، يا مولاي ، أول من تفوضها إليهم ، أهل بيتك من أمراء آل عثمان ، فتخلصهم من القعود من النساء ، وتربية الخصيان فيحسن بالضرورة ، كل منهم ما تولاه من أجزاء السلطنة ، ومصير ذلك التحسين والخير إليه ولأسرته ، ويكون مع كل أمير وزير فاضل أمين . ثم لا أرى مانعا يمنع من العهد ببعض الخديويات إلى من عرف من الوزراء بالإخلاص والهمة ورجاحة العقل . ومن غير الوزراء أيضا . وجلالة السلطان إذا شاء وفتش عنهم ، وجدهم في غير حاشيته الذين يدخلون على بلاطه . ولحضوره ويحشون آذانه

بالباطل ، ويمتنعون عنه كل حقيقة ، ويقصون عن قربه كل فاضل .

وقد رأيت السلطان ، وهو على تمام الإصغاء لما أقول ، قد تقطب وجهه وعلته كآبة امتعاض وحزن ، فقلت : يا مولاي ! وعزة الحق ، وبولائي لأمر المؤمنين ، ونصحي للمسلمين ، أن ما ساقني لما قلته إلا الاخلاص ، والحرص على ملكك ، والغيرة على الدولة والممالك الإسلامية الشرقية ، التي ليس لجمع شتاتها ، وتوحيد كلمتها إلا الاعتصام والانضواء تحت لواء الخلافة ، وحالاتك ترى أن أجزاء السلطنة أخذت تتفكك ، الجزء بعد الآخر ، فصار من الواجب نظم الممالك وأجزائها سلك من النظام أوثق ، وأشد وأحكم . وما وجدت ذلك السلك إلا بذلك الشكل الذي قدمته ، ولما انتهت .. هز السلطان رأسه وتناول لفافة من التبغ ، أسرع في تدخينها ، وقال :

ماذا تركت يا حضرة السيد للسلطان ؟ وما أبقيت لتخت آل عثمان ؟ قلت : يبقى جلالة مولاي السلطان ، ملك أولئك الملوك ، وينضم إلى العرش العثماني عشرة عروش غير عرش مصر ، ثم متى نهضت تلك المقاطعات ، والخديويات ، وأخذت نصيبها من الرقي وال عمران وصارت « مثلاً » خديوية العراق مثل خديوية مصر ، ثروة وانتظاماً ، لاشك في أن إيران تسرع لمقام السلطنة العظمى ، للاتحاد معها ، اذ هي في أمس الحاجة لشد الازر . ولصون كيائها من مطامع الغرب ، الموجه نحو عموم دول الشرق .

ثم ما أسرع الافغان للانتظام في ذلك السلك ، سلك اجتماع كلمة دول الشرق الإسلامية تحت راية الخلافة العظمى والسلطنة الكبرى . ثم ومتى تم ذلك ، وسيتم إن شاء الله . هل تقعد أهل الهند ، وراجاتها وأمرائها ، والملاية

وثمانون مليوناً من المسلمين ، عن نصرة الخليفة الأعظم والحقاق لشهد ساعد
خوانهم ليدفعوا غارة الغرب عن الدول الإسلامية في الشرق . وعن هندهم
أيضا ، أو ينهضوا نهضة الرجل الواحد للتخلص من ربة الاستعمار
والمستعمرين . ويرجع الشرق للشرقين ، وما ذلك على الله بعزيز .

أما السلطان عبد الحميد ، فكان سيق الظن . لا يأمن أحدا ، ويسىء
الظن في كل أحد ، فقال لى : يا حضرة السيد ، هل اجتمعتم بإسماعيل كمال
بك في هذه الأيام ؟ .. فانتقلت بسرعة إلى ما يرمى إليه السلطان ، وهو أن
إسماعيل كمال بك كان قد كلف ، أو تعين لولاية طرابلس الغرب وطلب توسيع
صلاحياته . وأن يكون له الحق في عقد قرض لتحسين وإصلاح الولاية
وغير ذلك . وقد سمعته من بعض الزائرين . وليس من نفس الرجل
أجبت : يا مولاي ، أعتقد أنني لا أسخر ضميرى لجد العرب «إسماعيل بن
إبراهيم الخليل» . إذا . فما أبعد إسماعيل كمال . أن يسخرنى . أو أن أسخر له .
وما اتبعت فيما عرضته على جلالتهكم الا داعى النصيح والإخلاص فلم يرد
السلطان جوابا على ما ذكرته وسردته . بل قال ، مثلا تركيا «آت اسكدردن
كجنتدى» ومعناه : «ان الجواد اجتاز اسكدار» . وهو مثل يضربونه عند
الأتراك «لما غات من الأمر» ولا حيلة فيه .

* * *

هذا ما كان منى في هذا الشأن . يا شيخ بنى محزوم^(١) . وهذا ما كان من

(١) المحاطب هما محمد باشا المحزومى . مدون «حاطرات» جمال الدين الافغانى . وصاحب الفصل في
حفظ هذه الفصول والاحاديث واحواطر التى أملاها جمال الدين .

السلطان عبد الحميد ، سلطان العثمانيين ، وخليفة المسلمين ، الذى تعنو له وجوه ما يقرب من الثلاثمائة مليون ، ينتظرون من هذه الدولة هبة ليحيا بها حقهم ، ويموت ويهلك باطل غيرهم .

كيف لا تذهب النفس حسرات ، وأكبر سلطان فى المسلمين ، هذا موقفه من الجمود عن قبول النصيح ، وإصلاح الملك ، والمحافظة ، أو المطالبة بصريح حقه فى أجزاء سلطنته ، بل روح الممالك الإسلامية «باب الحرمين ، مصر» .

وفى صون مصر فى حوزة الملك الإسلامى ، وكشف الانكليز عنها صون للممالك العثمانية ، وغلق لكل بلية مهياة فى المسألة الشرقية .

وعزة الحق ! إن ما كتبه عن حق مصر ، وما استنهضت من اطمم ، وما حذرت به من سوء المصير ، لوتلى على الأموات لتحركت أرواحهم ، ولوفرقت على أجدادهم ، ولأحدثت لأعدائهم أحلاما مزعجة ، ومرأى مريعة . كاد أن لا يخلو سطر من (العروة الوثقى) إلا وفيه ذكر مصر ، ولا براهين وأدلة على ظلم الانكليز . إلا ويتمثل فى مصر ، ولا خوف من شر مستطير يفكك أجزاء السلطنة العثمانية إلا وتراه فى التهاون فى أمر مصر . وذلك لأن جرح مصر كان ولم يزل له فى جسم الأمة الإسلامية والعرب عموما نفول ، ويعروقها اتصال .

ولا يفوتن أهل الشرق العلم بأن كل مدينة ، وكل مقاطعة إسلامية شرقية هى بمنزلة مصر ، وإن لم تسقط تحت حكم أهل المطامع اليوم ، فالشراك لها منصوبة ، والسقوط - والعباذ بالله - قريب . إلا اذا نشطت العقول وعمل أولو العزم ، ولت الأمم الشرقية شعثا ، ووحدت كلمتها وطلبت حفظ ملكها بأسبابه ، وعزة الحرية والاستقلال بمؤهلاتها .

ما قرعت آذان المسلمين والشرقيين عموماً بالحجج القاطعة ، وهتكت أستار
الطامعين بالبراهين الساطعة ، وأظهرت فظائع حكمهم بمن حكموا محسوساً ، إلا
لأقرب البعيد من زمن الاستعباد ، وأقصر طيات المسافة في الدل والمهانة لمن لم
يسقط بعد من المقاطعات الشرقية ، وله من الزمن ما يؤجل معه سقوطه ، ويتم
شعته ، ويمد بعضهم لبعض يساً ، عسى أن تكون يد الله فوق أيديهم .

ولكن ، بالأسف ! إن مبدأ تدهور ممالك المسلمين في الشرق كان من
شاهق عظيم ، لا يمكن للحكيم الوقوف في سبيل سقوطه وهو في وسط
الانحدار ، أو بقربه من نقطة المركز . ذلك الشاهق العظيم ، شاهق حكمة
الدين ؟ .. وإذا كان انحطاط الأمم مرضاً ، وله سير معلوم ، فيتعذر على الطبيب
الحاذق توقيف السير ، بل غاية ما يمكنه الإتيان بالملطفات والمسكنات حتى
ينتهي السير ، ويبل العليل ، ويدخل في دور النقاهة ، هذا إذا لم يميت ، وكان
في موته راحة ، وليت مع الأموات خير من ميت الأحياء ! ولقد أحسن من
قال :

ليس من مات فاستراح يميت إنما الميت ميت الأحياء
... نعم هو الحق الذي لا مرية فيه ، لو استقلت قدرة البشر بالتأثير ما انحط
رفيع ، ولا ضعف قوى ، ولا انهدم مجد ، ولا تقوض سلطان . ولكن هو
القدر فلا يغالب . ولو كان لنصح الحكيم تأثير لما أخطأ الجاهل .

(١) السلطان عبد الحميد

إن السلطان عبد الحميد ، لو وزن مع أربعة من نوابغ رجال العصر لرجحهم ذكاء ودهاء وسياسة خصوصا في تسخير جليسه .
ولا عجب إذا رأيناه يذلل ما يقام للملكه من الصعاب من دول الغرب ، ويخرج المناوىء له من حضرته راضيا عنه ، وعن سيرته وسيره ، مقتنعا بحجته سواء في ذلك الملك والأمير والوزير والسفير ولكن . يا للأسف ، ! إن عيب الكبير كبير ، والجبن من أكبر عيوب الملوك ! .

* * *

رأيت من السلطان ارتياحا لقبول كل ما ذكرته له من محاسن الحكم الدستوري ، وأن الإسلام أول من عمل به في سلطانه . ورأيت يعلم دقائق الأمور السياسية ، ومرامى الدول الغربية ، وهو معد لكل هوة تطرأ على الملك مخرجا وسلا .

وأعظم ما أدهشني ، ما أعد من خفي الوسائل ، وأمضى العوامل ، كي لا تتفق أوروبا على عمل خطير في الممالك العثمانية ، ويرى عيانا محسوسا أن تجزئة

(١) المصدر السابق . ص ٢٤٥ - ٢٤٨

السلطنة العثمانية لا يمكن إلا بخراب الممالك الأوروبية بأسرها .

وهكذا كانت يقظته لدول البلقان الصغيرة التي أحدثتها أوروبا ، أحبولة لتضعضع بها السلطنة العثمانية ، وتندرع بها للتدخل في الشؤون ، لتقتطع من أجزاء المملكة ، جزءا بعد آخر ، وكلما حاولت أوروبا أن تجمع كلمة دول البلقان ، للحروج عن الدولة بحرب ، كان السلطان يسارع بدهائه العجيب لحل ما ربطوه وتفريق ما جمعه من كلمة وكيد . فالبلغار مع شدة شكيمتهم ودهاء أميرهم البرنس فرديناند ، رضخ طائعا لأمر عبد الحميد ، ولبس الشعار العثماني (الطربوش) ، واقتخر برتبة المشيرية ، وانتظم مع مشيرى الدولة في حفلة صلاة الجمعة « السلامك » .

أما أمير الحبلى الأسود « نقولا » ، فكان أمره مع السلطان عبد الحميد كولد لا يرى الفرج إلا من أيه . كان كلما شككا قلة ذات اليد ، وطلب كفالة على استقراض زهيد ، يرسله له دون عوض ولا سند . أكثر جهاز ابنته التي زفها على ولى عهد إيطاليا (الملك الحالى الآن) كان من جيب السلطان عبد الحميد . وهكذا بقية دول البلقان مع ذلك السلطان العظيم الشأن .

ضاققت أوروبا ذرعا بسياسة السلطان عبد الحميد ، وحيطته ويشت من أكثر دول البلقان . فمحلت كيدها بدس الدسائس ، وصرفت همها بالاستقواء إلى أخف الدويلات حلوما وأكثرها غرورا وطيشا ، وهى دولة اليونان . فقد بدأت تتحرش بالدولة العثمانية لتتدهور بالحرب مع السلطان عبد الحميد .

* * *

أما ما رأيته من يقظة السلطان وشدة حذره وإعداده العدة اللازمة لإبطال

مكايد أوروبا ، وحسن نواياه واستعداده للنهوض بالدولة (الذى فيه نهضة المسلمين عموما) فقد دفعنى إلى مد يدى له ، فبايعته بالخلافة والمملك . علما علم اليقين أن الممالك الإسلامية فى الشرق لا تسلم من شرك أوروبا . ولا من السعى وراء إضعافها وتجزئتها ، وفى الأخير ازدرادها واحدة بعد الأخرى . إلا بيقظة وانتباه عمومى ، وانصواء تحت راية الخليفة الأعظم .

* * *

وأى الأعمال أنكرها مولانا السلطان على ؟ .. إلى أقسم لك بعزة الحق أنه لم يدر بينى وبين عباس حلمى خديوى مصر شىء من هذا (نقل الخلافة إليه) أصلا .. لماذا انزعج السلطان وأزعج لهذه الأكاذيب ؟؟

وما وسعنى لغيظ لم أكظمه ، من اهتمام السلطان بمثل هذا الهتان ، وهذه الاختلاقات والأراجيف المضرة فى حيثية الخلافة . وعظيم خطرهما ، ورفعة شأنها ، مع معرفتى دناءة مختلفيها ومرتبياها ، وهو يدعو عليهم بشر الدعاء كالعجوز الدردبيس البتراء .

ليسمح لى جلالة السلطان أن أذكر مثلا حضرى الآن .. إن أحد الأمراء استزار رجلا فى قصره . فلما جاء الرجل وجد على باب القصر كلبا هائلا عقورا . يجرأ على الأسود . وربما افترسها . فهز عليه ، ونبح ، وتحفز للوثوب وخاف الزائر وأحجم عن الدخول .. فى أثناء ذلك أشرف الأمير من نافذة القصر . وأهل بالزائر . وسهل . واستعجله بالصعود إليه .

قال : أيها الأمير ، كيف الوصول إليك ؟؟ وهذا الكلب العقور المدهش باسط ذراعيه . فاغر فاهه ؟؟ انهره ، أو مر من يمنعه عنى .

قال الأمير: أنا من هذا الكلب أخوف منك .. وهكذا أظن حالنا
يا صاحب الشوكة .

* * *

أعوذ بالله أن أكون من المنافقين ، أو أن أفعل ما أنكره على الغير ، وأن
أكون همارا مشاء نعيم . ما هذا الهذيان في هذا الزمان ؟؟ وفي أى مقام جليل
خطير ، هم يتلاعبون ؟؟

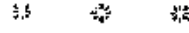
خلافة عظمى ؟ وإمامة كبرى !!

لقد هزلت حتى بدا من هزائها كلاما وحتى سامها كل مفلس
الخلافة ! كفاءة الله في خلقه ، فأين أحلام أولئك العجزة من مقام الإمامة ،
والخلافة ، وما تتطلبه من الشروط والصفات ؟ أين ؟؟ !

الحديوي (عباس حلمي الثاني) بظروفه ، وما أحاق وأحاط بمصره ، هو
عندى أعجز من السلطان عن تصريف أمور الخلافة ، والقيام بأعبائها على
ما يلزمها من مزايا وشروط ، أهمها الاستقلال .

نعم لو تخلصت مصر من براثن بريطانيا ، وتسنى لعباس ، مع ذكائه
وتطلعه ، أن تكون له همة محمد على الكبير ، ومضاء إبراهيم ، وسخاء إسماعيل
لوقع من الخلافة على ما يرجوه ، ولكن أين الولاية الخاصة لأمر المؤمنين اليوم
في ممالك الإسلام ؟؟ وأين المؤمنون الملتفون حول خليفة الرسول المصطفى - صلى
الله عليه وسلم - ؟؟ وأين الحرية المطلقة للخليفة في تعريفها على وجه الشريعة أو
السير على سيرة الراشدين ؟ وأين القوة التي يدفع بها إذلال أو استعمار أو استعباد

المسلمين في بلادهم وممالكهم وديارهم ؟ وأين ؟ وأين ؟ فلا حول ولا ..



يا جلالة السلطان .. مللت من تعاطينا الشكاية ... ومن غيرك صاحب
الأمر ؟ ؟ !!

تخذ بجزم جدك محمود ، واقص الحائنين من خاصتك (الذين يبعدون عن
بلاطك حقائق تخريب الوزراء هنا والعمال في الولايات ، وهم صنائعهم وجباة
جيوبهم الخاصة) .

خفف الحجاب عنك ، وأظهر للملأ ظهورا يقطع من الحائنين الظهور .
وأعتقد أن نعم الحارس الأجل « فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة
ولا يستقدمون » .

سبحان الله .. إن جلالة السلطان يلعب بمقدرات الملايين من الأمة على
هواه ، وليس من يعترض منهم . أفلا يكون لجمال الدين حق أن يلعب في
سبحته كيف يشاء ؟ !!

أتيت لأستميح جلالتك أن تقيلني من بيعتي لك ، لأنى رجعت عنها .
نعم .. بايعتك بالخلافة ، والخليفة لا يصلح أن يكون غير صادق الوعد . بيد
جلالتك الحل والعقد ، وبإمكانك ألا تعد ، وإذا وعدت وجب عليك
الوفاء ، وقد رجوتك بالأمر القلاني ، ووعدت بأنك تمضيه ، ولم تفعل .

عبد الرحمن الكواكبي
(١٢٧٠ - ١٣٢٠ هـ - ١٨٥٤ - ١٩٠٢ م)

(أ) الأتراك . والعرب .
(ب) دور العرب القيادي في الإحياء الإسلامي

(١) مخالفة الأتراك للعرب ^(١)

أما عدم التطابق في الأخلاق بين الرعاة والرعية ، فله شأن عظيم ، كما يظهر للمتأمل المدقق في تواريخ الأمم من أن أعظم الملوك الموفقين والقواد الفاتحين كالإسكندر ، وعمر ، وصلاح الدين ، - رضى الله عنهما - ، وجنكيز ، والفتح ، وشرلكان الألماني ، وبطرس الكبير وبونابرت ، لم يهزوا في تلك العظائم إلا بالعزائم الصادقة مع مصادفة تطابقهم مع رعاياهم وجيوشهم في الأخلاق والمشارب تطابقا تاما ، بحيث كانوا رؤساء حقا لتلك الأجسام ، لا كراس جمل على جسم ثور ، أو بالعكس ، وهذا التطابق وحده يجعل الأمة تعتبر رئيسها رأسها ، فتضاني دون حفظه ودون حكم نفسها بنفسها ، حيث لا يكون لها في غير ذلك فلاح أبدا . كما قال الحكيم المتنبي :

إنما الناس بالملوك ، وهل يفلح عرب ملوكها عجم ؟ !

ومما لا خلاف فيه أن من أهم حكمة الحكومات أن تتخلق بأخلاق الرعية . وتتحد معها في عوائدها ومشاربها ، ولو في العوائد غير المستحسنة في ذاتها . ولا أقل من أن تجارى الحكومة الأجنبية أخلاق الرعية ولو تكلفا وقتيا ، إلى أن توفق لاجتذابهم إلى لغتها فأخلاقها فجنسيتها ، كما فعل الأمويون والعباسيون

(١) الأعوان الكاملة لعبد الرحمن الكواكبي ص ٣٢٣ . ٣٢٥

والموحدون^(١) . وكما تهتم به الدول المستعمرة الافرنجية في هذا العهد . وكما فعل جميع الأعاجم الذين قامت لهم دول في الإسلامية ، كآل بويه والسلجوقيين^(٢) والأيوبيين^(٣) والغوريين والأمراء الجراكسة وآل محمد على^(٤) ، فإنهم ما لبثوا أن استعربوا وتخلقوا بأخلاق العرب . وامتزجوا بهم وصاروا جزءا منهم .

وكذلك المغول والتتار صاروا فرسا وهنودا . فلم يشذ في هذا الباب غير المغول

(١) وهي التي أسسها فيلسوفها وداعيتها « المهدي » محمد بن نورث « (٤٧١ - ٥٢٥ هـ - ١٠٧٨ - ١١٣٠ م) في المغرب والأندلس . وهي دولة ذات عقيدة إسلامية سلفية مع اتعاه إلى العقل ورفض لتعريعات الفقهاء وتحرجاتهم الغربية عن العقل . والتي سادت مجتمع « المرابطين » ولقد تأسست دولة الموحديين عندما استولى « المهدي » محمد بن نورث بواسطة رجله القوي وقائد حيوشه « عبد المؤمن بن علي » على مراكش سنة ٤١٥ هـ - ١١٤٦ م . كما انتهت هذه الدولة بسقوط مراكش العاصمة بيد قبيلة « بني مرين » شبه البدوية سنة ٦٦٨ هـ (١٢٦٩ م) . راجع فيليب حتى (تاريخ العرب) « مجبول » ص ٣٠٣ - ٦٥٣ . عبد الواحد المراكشي (المعجب في سحيص أخبار العرب) ص ٢٤٥ وما بعدها طبعة القاهرة سنة ١٩٦٣ م

(٢) البويهيون يتحدرون من قبائل الديلم حوئي نهر قزوين . ولقد سيطروا على خلافة بغداد من سنة ٣٣٤ هـ (٩٤٥ م) حتى سنة ٤٤٧ هـ (١٠٥٠ م) ثم تبعهم السلاجقة الذين سيطروا على خلافة بغداد . ودام لهم السلطان موحدا تارة مجزأة تارة أخرى حتى سنة ٥٩١ هـ (١١٩٤ م) راجع : فيليب حتى (تاريخ العرب) « مطون » ص ٢٠٤ - ٥٧٨

(٣) وهي الدولة التي أسسها صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م)

(٤) والكواكي متأثر في تقسيمه هذا لأسرة محمد على بعممين أساسيين : « أ » تحرته الذاتية في التعاون مع الحديوي عباس حدى . وهي التحرر التي أتاحت للكواكي حرية الحركة والكتابة والتفكير في وطنه الثاني . القاهرة . بعد فراره من بير الأنراك العثمانيين المستلظ على حب . موطنه الأول

ب « ذلك التقسيم الذي قدمه جمال الدين الأفغانى حكم هذه الأسرة والذي تآثرت سطورهم وعباراته في كتاباته وأحاديثه . حتى شاعت في ذلك التاريخ راجع في موضوع العامل الثاني كتابنا « الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى » ص ٩٦ . ٤٦٦

الأتراك ، أى العثمانيين . فإنهم بالعكس يفتخرون بمحافظتهم على غيرة رعاياهم
لهم . فلم يسعوا باستراكتهم^(١) كما أنهم لم يقبلوا أن يستعربوا ، والمتأخرون منهم
قبلوا أن يفرنسوا أو يتألمنوا . ولا يعقل لذلك سبب غير شديد بغضهم للعرب ، كما
يستدل عليه من أقوالهم التى تجرى على ألسنتهم مجرى الأمثال فى حق العرب :

كإطلاقهم على عرب الحجاز « ديلنجى عرب » أى « العرب الشحاذين » .
وإطلاقهم على المصريين « كور فلاح » . بمعنى « الفلاحين الأجلاف » .

و « عرب جنكنه سى » ، أى « نور العرب » ، و « قبضى عرب » أى « النور
المصريين » .

وقولهم عن عرب سوريا : « نه شامك شكرى ونه عربك بوزى » ، أى « دع
الشام وسكرياتها ولا تر وجوه العرب » .

وتعبيرهم بلفظة « عرب » عن « الرقيق » وعن كل حيوان أسود .

وقولهم : « سس عرب » أو « عربى قدر » .

(١) وذلك قبل ظهور الحركة « التطورانية » فى تركيا ، وهى الحركة التى سعت لتتريك العرب ، والتى
كانت نواة الحركة القومية التركية التى ازدهرت بعد إسبار السلطنة العثمانية فى أعقاب الحرب العالمية
الأولى والحركة التطورانية هذه واصطفاها سمات العرب القومية كانت من العوامل التى عجلت
شورة العرب ضد الأتراك فى سنة ١٩١٦ م راجع فى ذلك كتابنا (العروة فى العصر الحديث) ص
٣١٣ وما بعدها ٣٣٩ وما بعدها

و «عرب عقلى» ، أى «عقل عربى» أى «صغير» ، و «عرب طبيعى» ،
أى «ذوق عربى» ، أى فاسد» ، و «عرب جكه سى» أى «حنك عربى» ، أى
كثير الهزر» .

وقولهم : «بوفى يبارسه م عرب أوله يم» أى «إن فعلت هذا أكون من
العرب» .

وقولهم : «نرده عرب نرطنبوره» ، أى «أين العرب من الطنبور»^(١) .

هذا والعرب لا يقابلونهم على كل ذلك سوى بكلمتين : الأولى هى قول
العرب فيهم : «ثلاث خلقت للجور والفساد : القمل ، والترنك والجراد» .

والكلمة الثانية : تسميتهم بالأروام . كناية عن الريبة فى إسلاميتهم وسبب
الريبة أن الأتراك لم يخدموا الإسلامية بغير إقامة بعض حوامع لولا حظ نفوس
ملوكهم بذكر أسمائهم على متابرها لم تقم .

ولنهم أتوا الإسلام بالطاعة العمياء للكبراء ، وبخشية الفلك أبى المصائب ،
وباحترام مواقد النيران «أوجاقات» ، فزادوا بذلك بلات فى طين الخرافات .

(ب) دور العرب القيادى فى الإحياء الإسلامى^(٢)

قررت الجمعية فى اجتماع الوداع المنعقد فى رابع أيام العيد بعض أمور ينبغى أن

(١) والطنبور آلة موسيقية . والمراد : أين العرب من الفن الموسيقى إحصاء بأصحاب الدوق الراقى
والشعور المرفف والخس الرقيق

(٢) الأعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبي . ص ٣٣٥ - ٣٥٨ «والحديث عن جمعية أم القرى» .

تسرو ولا تزداع ، غير أنها رأيت أن يلحق منها بهذا السجل ما يأتي :

قرار عدد « ٦ » : إن الجمعية بعد البحث الدقيق والنظر العميق في أحوال وخصال جميع الأقوام المسلمين الموجودين وخصائص مواقعهم ، والظروف المحيطة بهم ، واستعداداتهم وجدت أن لجزيرة العرب ولأهلها ، بالنظر إلى السياسة الدينية مجموعة خصائص وخصال لم تتوفر في غيرهم . بناء عليه رأيت الجمعية أن حفظ الحياة الدينية متعينة عليهم لا يقوم فيها مقامهم غيرهم مطلقا ، وأن انتظار ذلك من غيرهم عبث محض (١) .

على أن لبقية الأقوام أيضا خصائص ومزايا تجعل لكل منهم مقاما مها في بعض وظائف الجامعة الإسلامية : مثل : إن معاناة حفظ الحياة السياسية ولاسيما الخارجية متعينة على الترك العثمانيين (٢) .

ومراقبة حفظ الحياة المدنية التنظيمية يليق أن تناط بالمصريين (٣) .

(١) لأن الجمعية إنما تريد « طريق السلف » ، و « الحركات السلفية » سيلا لحفظ « الحياة الدينية » وتجديدها ، وشبه الجزيرة العربية ، في ذلك الحين كان عامرا بمد متعاطم للحركة السلفية ، سواء أكان ذلك في شياها أم في الجنوب ، أما الحياة السياسية والحربية والاقتصادية والعلمية فان الكواكبي يرى حلقتها في غير البدو ويراها مرهونة بهمة بقية العرب ومساعدات غير العرب من المسلمين .

(٢) ويعلق الكواكبي هنا قوله . « لأنهم متقنون فن « الدبلوماسية » ، أي المرافعة في المقال والتلون في الأحوال » .

(٣) والكواكبي لا يخرج المصريين من العرب ، وإنما هو يميزهم عن العثمانيين ، وكذلك عن العرب العثمانيين في المشرق لأنهم كانوا يومئذ ، سياسيا ، تحت النير الاستعماري الإنجليزي ، وليسوا ، في الواقع ، جزءا من الدولة العثمانية التي انعقدت جمعية أم القرى لابقاظ العرب المستظلمين برأيها أساسا .

والقيام بمهام الحياة الجندية يناسب أن يتكفل بها الأفغان وتركستان والحزر والقوقاس يميناً ومراكش وإمارات أفريقيا شمالاً .

وتدبير حفظ الحياة العلمية والاقتصادية خير من يتولاها إيران وأواسط آسيا والهند وما يليها . وحيث كانت الجمعية لا يعنينا غير أمر النهضة الدينية . بناء عليه رأيت الجمعية من الضروري أن تربط آمالها بالجزيرة وما يليها . وأهلها ومن يجاريهم^(١) ، وإن تبسط لأنظار الأمة ما هي خصائص الجزيرة وأهلها والعرب عموماً ، وذلك لأجل رفع التعصب السياسي أو الجنسي ، ولأجل إيضاح أسباب ميل الجمعية للعرب . فنقول :

- ١ - الجزيرة : هي مشرق النور الإسلامى .
- ٢ - الجزيرة : فيها الكعبة المعظمة .
- ٣ - الجزيرة : فيها المسجد النبوى وفيه الروضة المطهرة .
- ٤ - الجزيرة : أنسب المواقع لأن تكون مركزاً للسياسة الدينية لتوسطها بين أقصى آسيا شرقاً وأقصى أفريقيا غرباً .
- ٥ - الجزيرة : أسلم الأقاليم من الأخلاط جنسية وأدياناً ومذاهب .
- ٦ - الجزيرة : أبعد الأقاليم عن مجاورة الأجانب .
- ٧ - الجزيرة : أفضل الأراضى لأن تكون ديار أحرار لبعدها عن الطامعين والمزاحمين نظراً ل فقرها الطبيعي .

(١) وهذا دليل على أن همم الكواكى للعرب إنما كان منها مرأ وحصارياً ومستشيراً ، لا محصوراً فى سكان شبه الجزيرة فقط ، بل فى « العرب عموماً » ، كما يقول : أما التذكير على « الجزيرة وما يليها » وأهلها ومن يجاريهم « فهو إشارة لتحصيله العرب العنانيين . أى عرب المشرق . بالمزيد من الاهتمام .

- ٨ - عرب الجزيرة : هم مؤسسو الجامعة الإسلامية^(١) لظهور الدين فيهم^(٢) .
- ٩ - عرب الجزيرة : مستحكم فيهم التخلق بالدين لأنه مناسب لطبائعهم الأهلية أكثر من مناسبتة لغيرهم .
- ١٠ - عرب الجزيرة : أعلم المسلمين بقواعد الدين لأنهم أعرقهم فيه ومشهود لهم بأحاديث كثيرة بالمتانة في الإيمان .
- ١١ - عرب الجزيرة : أكثر المسلمين حرصا على حفظ الدين وتأيينه والفخار به . خصوصا والعصية النبوية لم تزل قائمة بين أظهرهم في الحجاز واليمن وعمان وحضرموت والعراق وأفريقيا^(٣) .
- ١٢ - عرب الجزيرة : لم يزل الدين عندهم حنيفا سلفيا بعيدا عن التشديد والتشويش^(٤) .

(١) أى الرابطة الروحية والمادية التى تربط أهل الله الإسلامية .

(٢) وهما يعلق الكواكى بقوله : « وكذلك من يتبعهم من العشائر القاطنة بين القرآت ودجلة والبارحين إلى أفريقيا »

(٣) وهذا يدل على قصد الكواكى بـ « العرب » سكان العالم العربى فى القارتين الآسيوية والأفريقية . من المحيط الأطلسى إلى الخليج العربى

(٤) الدين الحنيف ، والملة الحنيفة والحنيفية ، وصف يطلق على الإسلام والشرعية التى جاء بها . وهو من المصطلحات المختلف فى معناها ، وإن يكن أقربها وأشهرها هو : أن الدين الحنيف . هو المنتسب إلى شريعة إبراهيم ، فلقد كان العرب المتعبدون ببقايا هذه الشريعة - قبل الإسلام - يسمون : « الحنفاء » ، أى الموحدين

- ١٣ - عرب الجزيرة : أقوى المسلمين عصبية وأشدّهم أنفة لما فيهم من خصائص البدوية^(١)
- ١٤ - عرب الجزيرة : أمراؤهم جامعون بين شرف الآباء والأمهات والزوجات ، فلم تختل عزتهم .
- ١٥ - عرب الجزيرة . أقدم الأمم مدنية بدلي : سعة لغتهم ، وسمو حكمتهم وأديبانتهم .
- ١٦ - عرب الجزيرة : أقدر المسلمين على تحمل قشف المعيشة و سيل مقاصدهم . وأنشطهم على التغرب والسياحات . وذلك لبعدهم عن الترف المذل لأهله .
- ١٧ - عرب الجزيرة : أحفظ الأقوام على جنسيتهم وعاداتهم . فهم يحافظون ولا يختلطون .
- ١٨ - عرب الجزيرة : أحرص الأمم الإسلامية على الحرية والاستقلال وإباء الضيم^(٢) .
- ١٩ - العرب عموما : لغتهم أغنى لغات المسلمين في المعارف ومصوطة بالقرآن الكريم من أن تموت .
- ٢٠ - العرب . لغتهم هي اللغة العمومية بين كافة المسلمين البالغ عددهم ٣٠٠ مليون^(٣) .

(١) ويعلق الكواكي هنا بقوله : « وقوة ذلك لم يزالوا يأخذون حرجا من يأخذون باسم هدية . »
 (٢) وما يطلق الكواكي بقوله « هذا سبب عدم انقياد أهل اليمن ومن يليهم للعثمانيين »
 (٣) وتعداد المسلمين اليوم يقترب من التسعمائة مليون نسمة . يبلغ تعداد العرب منهم نحو مائة وخمسين مليون نسمة

- ٢١ - العرب : لغتهم هى اللغة الخصوصية لمائة مليون من المسلمين وغير المسلمين .
- ٢٢ - العرب : أقدم الأمم اتباعا لأصول تساوى الحقوق وتقارب المراتب فى الهيئة الاجتماعية .
- ٢٣ - العرب : أعرق الأمم فى أصول الشورى فى الشؤون العمومية ^(١) .
- ٢٤ - العرب : أهلى الأمم لأصول المعيشة الاشتراكية ^(٢) .
- ٢٥ - العرب : من أحرص الأمم على احترام العهود عزة ، واحترام الذمة إنسانية ، واحترام الجوار شهامة ، وبذلك المعروف مروءة ^(٣) .

(١) ويعلق الكواكى هنا بقوله : « يشهد لهم بذلك القرآن فى قصة بلقيس مع سليمان عليه السلام حيث قالت تخاطب الملأ ، أى المستشارين الأشراف » (يأيتها الملأ افتنوى فى أمرى ، ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون ، قالوا نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد ، والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين ، قالت : إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون) ... » .

(٢) وفى فكر الكواكى عن الاشتراكية شهادة أصالة لهذا الفكر فى تراثنا العربى الإسلامى الحديث الذى هو امتداد لتراثنا القديم . ويراجع فى ذلك الفصل الذى كتبناه عن فكره الاشتراكى فى أعماله الكاملة .

(٣) ويعلق الكواكى هنا بقوله : « يكى رهانا على ذلك محاملة أهل الجزيرة لسياح الافرنج . ما عدا تلك الفعلة التى اندفع إليها ابن الصايح . ونال عليها عدد عامين رتبة باشا . وترجيح اليهود المهجرة للبلاد العربية وعدم اشتراك البلاد العثمانية فى حوادث الارس الأخيرة كالموصل . وماددين وسعرد . ونصيبين . والمدن العربية من ولاية حلب . وأما حوادث لندن . والشام . وحبش فى القرن السابق . فما كانت متولدة عن تعصب دينى أو حسمى بل عن عرور جماعة من الدرور بالانكلير وجماعه من المسيحيين بانيون الثالث » . أهـ . وإشارة الكواكى الأخيرة إنما تعنى الفتنة والمذابح التى دارت ما بين الدرور والمواربة فى سنة ١٨٦٠ م . واتى راح صاحبها عشرات الآلاف من القتل والمصابين

٢٦ - العرب : أنسب الأقوام لأن يكونوا مرجعا في الدين وقدوة للمسلمين حيث كان بقية الأقوام قد اتبعوا هديهم ابتداء فلا يأنفون عن اتباعهم أخيرا .

فهذه هي الأسباب التي جعلت جمعية أم القرى أن تعتبر العرب هم الوسيلة الوحيدة لجمع الكلمة الدينية ، بل الكلمة الشرقية والجمعية تسأل الله تعالى أن يوفق ملوك المسلمين وأمراءهم للتصلب في الدين وللعزم والعزم عساهم يحفظون عزهم وسلطانهم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وأن يحميهم من التعصب السيئ للسياسات والجنسيات . ومن الكبر والأنفة . ومن التخاذل والانقسام . ومن الانقياد إلى وساوس الأجانب الأضداد ، وإلا فينتابهم الخطر القريب المهدق بهم وتتخاطفهم التسور المحلقة في سماتهم . والله الموفق . إليه ترجع الأمور .

عبد الحميد بن باديس
(١٣٠٥ - ١٣٥٩ هـ ١٨٨٧ - ١٩٤٠ م)

- (أ) محمد صلى الله عليه وآله وسلم رجل القومية العربية ..
- (ب) العرب في القرآن ..
- (ج) الوحدة العربية .. هل بين العرب وحدة سياسية ؟ .
- (د) مصطفى كمال ...
- (هـ) الخلافة ؟ .. أم جماعة المسلمين ؟؟ ..

(١)

محمد

صلى الله عليه وآله وسلم
رجل القومية العربية^(١)

لا يستطيع أن ينفع الناس من أهمل أمر نفسه . فعناية المرء بنفسه - عقلا وروحاً وبدناً - لازمة له ليكون ذا أثر نافع في الناس ، على منازلهم منه في القرب والبعد ، ومثل هذا كل شعب من شعوب البشر لا يستطيع أن ينفع البشرية مادام مهملًا مشتتًا لا يهديه علم ، ولا يمتنه خلق ، ولا يجمعه شعور بنفسه ولا بمقومانه ولا بروابطه . وإنما ينفع الخضم الإنساني ويؤثر في سيره من كان من الشعوب قد شعر بنفسه فنظر إلى ماضيه وحاله ومستقبله فأخذ الأصول الثابتة من الماضي ، وأصلح من شأنه في الحال ، ومد يده لبناء المستقبل يتناول من زمنه وأمم عصره ما يصلح لبنائه معرضاً عما لا حاجة له به أو ما لا يناسب شكل بنائه الذي وضعه على مقتضى ذوقه ومصلحته .

فمحمد - صلى الله عليه وآله وسلم - وهو رسول الإنسانية ، كانت أول عنايته موجهة إلى قومه وكانت دعوته على ترتيب حكيم بديع لا يمكن أن يتم إنسانياً أو شعبياً إلا بمراعاته : فكان « أول دعوته - صلى الله عليه وآله وسلم - لعشيرته لقوله تعالى : « وأندر عشيرتك الأقربين »^(٢) فلما نزلت صعد

(١) كتاب آثار ابن باديس ج ٢ ص ١٧ - ٢١

(٢) الشعراء : ٢١٤ .

الصفاء ثم نادى « يا صباحاه » - وكان دعوة الجاهلية إذا دعاها الرجل اجتمعت إليه عشيرته - فاجتمعت إليه قريش عن بكرة أبيها ، فعم وخص فقال :
 أوأيتمكم لو أخبرتكم أن العدو مصبحكم أمم مصدق ؟ . قالوا : ما جربنا عليك كذبا . قال : فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد . يا بني كعب ابن لؤي ، يا بني مرة بن لؤي ، يا آل عبد شمس ، يا آل عبد مناف يا آل هاشم . يا آل عبد المطلب يا صفية ، يا فاطمة ، سلوى من مالى ما شئتم ، واعلموا أن أولياى يوم القيامة المتقون ، فإن تكونوا يوم القيامة . مع قربانكم ، فذلك . وإياى ، لا يأتى الناس بالأعمال وتأتون بالدنيا تحملونها على أعناقكم فأصد بوجهى عنكم فتقولون يا محمد فأقول هكذا - وصرف وجهه إلى الشق الآخر - غير أن لكم رحما سابلها ببلالها .. ثم وجه دعوته إلى بقية العرب لقوله تعالى : « لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك »^(١) ، وهم عامة العرب ، فكان يعرض نفسه على قبائل العرب فى مواسم الحج وما يتصل بها من أسواقهم . ثم عم دعوته . لقوله تعالى : « لأنذركم به ومن بلغ »^(٢) ، فكانت ملوك الأمم وقد عمّت دعوته العرب ونهيا أمرهم لعموم دخولهم فى الإسلام ، وكان ذلك أيام هديته مع قريش قبيل فتح مكة . ثم تجد أكثر السور المكية قد وجه فيها الخطاب إلى قريش وإلى العرب ، وعولجت فيه مفاصلهم الاجتماعية وضلالاتهم الشركية وما كان مهم من تحريف وتبديل لملة إبراهيم فكان أول الإصلاح متوجها إليهم ومعنيا بهم حتى يتشكّلوا من وهدة جهلهم

(١) الفصص : ٤٦

(٢) الأنعام : ١٩ .

وضلالهم وسوء حالهم وتستنير عقولهم وتطهر نفوسهم وتستقيم أعمالهم فيصلحوا لتبليغ دين الله وهدى رسوله - صلى الله عليه وآله وسلم - للأمم بالقول والعمل . ثم لأجل أن يشعروا بأن القرآن هو كتاب هداية لهم كلهم ، وأن الرسول لهم كلهم ، أنزل القرآن على سبعة أحرف ، فعم جميع لهجاتهم ، وكان النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - يخاطبهم بتلك اللهجات وينطق بالكلمات منها ليس من لهجة قريش . وكان في هذا ما أشعرهم بوحدهم بالثقافتهم حول مركز واحد ينتهون كلهم إليه ويشتركون فيه . وقد نبه على هذا المعنى قوله تعالى : « وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسئلون » ^(١) فأخبره أن القرآن شرف له ولقومه - نزل بلغتهم ونهض بهم من كبوتهم وأخرجهم من الظلمات إلى النور وهبأهم لهداية الأمم وإتقاذها من الهلاك وقيادتها لغزها وسعادتها - وأنهم يسألون عن هذه النعمة . يقول هذا ليعملوا بالقرآن ويعلموا أن شرفه إنما هو للعالمين .

على أن العرب رشحوا لهداية الأمم ، وإن الأمم التي تدين بالإسلام وتقبل هدايته ستتكلم بلسان الإسلام ، وهو لسان العرب ، فينمو عدد الأمة العربية بنمو عدد من يتكلمون لغتها ، ويهتدون مثلها بهدى الإسلام . علم هذا فبين أن من تكلم بلسان العرب فهو عربي وإن لم يتحدر من سلالة العرب ، فكان هذا من عنايته بهم لتكثير عددهم لينهضوا بما رشحوا له . بين هذا في حديث رواه ابن عساکر في تاريخ بغداد بسنده عن مالك الزهري عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال : (جاء قيس بن مطاطية إلى حلقة فيها سلمان الفارسي وصهيب الرومي وبلال الحبشي فقال : هذا الأوس والخزرج قد قاموا بنصرة

(١) الرخوف : ٤٤ .

هذا الرجل « يعنى النبی - صلى الله عليه وسلم - » لما بال هذا « يعنى الفارسی والرومی والحشی ما يدعوههم إلى نصره وهم ليسوا عربا مثل قومه » فقام إليه معاذ بن جبل - رضى الله عنه - فأخذ بتلابيبه « ما على محره من الثياب » ثم أتى النبی - صلى الله عليه وآله وسلم - فأخبره بمقالته فقام النبی - صلى الله عليه وآله وسلم - مغضبا يجر رداءه « لما أعجله من الغضب » حتى أتى المسجد ثم نادى : الصلاة جامعة « ليجتمع الناس » . وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : « أيها الناس . الرب واحد والأب واحد . وإن الدين واحد . وليست العربية بأحدكم من أب ولا أم وإنما هي اللسان فمن تكلم بالعربية فهو عربي » فقام معاذ فقال : ها تأمرني بهذا المنافق يا رسول الله ؟ قال : « دعه إلى النار » فكان قيس ممن ارتد في الردة فقتل .

تكاد لا تخلص أمة من الأمم لعرق واحد . وتكاد لا تكون أمة من الأمم لا تتكلم بلسان واحد . فليس الذي يكون الأمة ويربط أجزاءها ويوحد شعورها ويوجهها إلى عايتها هو هبوطها من سلالة واحدة . وإنما الذي يفعل ذلك هو تكلمها بلسان واحد : ولو وضعت أخوين شقيقين يتكلم كل واحد منهما بلسان وشاهدت ما بينهما من اختلاف نظر وتباين قصد وتباين تفكير . ثم وضعت شاميا وجزائريا - مثلا ينطقان باللسان العربي ورأيت ما بينهما من اتحاد وتقارب في ذلك كله . لو فعلت هذا لأدركت بالمشاهدة الفرق العظيم بين الدم واللغة في توحيد الأمم .

فانظر بعد هذا إلى ما قرره هذا النبی الكريم . رسول الإنسانية ورجل القومية العربية . في الحديث المتقدم فقضى بكلمته تلك على العصبية العنصرية الضيقة المفرقة . فيه على تساوى البشر في أنهم كلهم مخلوقون لله . فربهم واحد

وأهم كلهم من عنصر واحد . فأبوهم آدم واحد ، وذكر بأخوة دين الإسلام دين الأخوة البشرية والتسامح الإنساني . ثم قرر قاعدة عظمى من قواعد العمران والاجتماع في تكوين الأمم . ووضع للأمة العربية قانونا دينيا اجتماعيا طبيعيا لتسع دائرتها لجميع الأمم التي رشحت لدعوتها إلى الإسلام بلغة الإسلام . وقد كان ذلك من أعظم ماسهل نشر الهداية الإسلامية وتقارب عناصر البشرية وامتزاجها بعضها ببعض حتى كان ثمرة اتحادها وتعاونها ذلك التمدن الإسلامي العربي الذي أنار العالم شرقا وغربا . وكان السبب في نهضة الغرب والأساس لمدينة اليوم . وبذلك أيضا كانت الأمة العربية اليوم تتجاوز السبعين مليونا علما لا تخلو منهم قارة من قارات المعمورة .

كأن رسول الإنسانية ورجل القومية العربية أمته هذا التكوين المحكم العظيم . ووجهها لتقوم للإسلام والبشرية بذلك العمل الجليل . فلم يكونوا لتستولى على الأمم . ولكن لتنقذهم من سلطة المتسولين باسم الملك أو باسم الدين ولم يكونوا لتستخدم الأمم في مصالحها . ولكن لتخدم الأمم في مصالحهم . ولم يكونوا لتدوس كرامة الأمم وشرفها ولكن لتنهضهم من دركات الجهل والذل والفساد . إلى درجات العز والصلاح والكرامة وبالجملة : لم يكونوا لأنفسهم بل كانوا للبشرية جمعاء . فبحق قال فيهم الفيلسوف العظيم غوستاف لوبون : لم يعرف التاريخ فاتحا أرحم من العرب نعم لأنهم فتحوا فتح هداية لا فتح استعمار . وجاءوا دعاة سعادة لا طغاة استعباد .

هذا هو رسول الإنسانية ورجل القومية العربية الذي كان له الفضل - بإذن

الله - عليها ، ويشهد المنصفون من غير العرب وغير المسلمين له بهذا الفضل ويتغنى العرب غير المسلمين بذكره . وكم ديجت أقلام الكتاب والشعراء من إخواننا نصارى العرب بالشرق من حلل البيان في الثناء عليه والإشادة بفضله .

هذا هو رسول الإنسانية ورجل الأمة العربية الذي نهتدى بهديه ، ونخدم القومية العربية خدمته ، ونوجهها توجيهه ، ونحيا لها ونموت عليها ، وإن جهل الجاهلون ... وخدع المخدوعون ... واضطرب المضطربون ...

وإلى أعتابه الكريمة نتقدم بهذه الكلمة في مولده الشريف ، الذي هو عيد الإسلام والعروبة والإنسانية كلها . عاد الله فيه باللطف والرحمة على الجميع .

(ب) العرب في القرآن^(١)

- ١ -

حق على كل من يدين بالإسلام ويهتدى بهدى القرآن أن يعتنى بتاريخ العرب ومدنيتهم وما كان من دولهم وخصائصهم قبل الإسلام ، وذلك لارتباط تاريخهم بتاريخ الإسلام ، ولعناية القرآن بهم ، ولاختيار الله لهم لتبليغ دين الإسلام وما فيه من آداب وحكم وفضائل إلى أمة الأرض . فأما أنهم قد ارتبط تاريخهم بالإسلام ، فلأن العرب هيئوا تاريخياً لأجل أن ينهضوا بأعباء هذه الرسالة الإسلامية العالمية ، ولأن الله الحكيم العدل الذى يضع الأشياء فى مواضعها بحكمة ، ويأمرنا أن ننزل الناس منازلهم فى شريعته ، ما كان ليجعل هذه الرسالة العظيمة لغير أمة عظيمة ، إذ لا ينهض بالجليل من الأعمال إلا الجليل من الأمم والرجال . ولا يقوم بالعظائم إلا العظام من الناس .

وأما عناية القرآن بالعرب فلأجل تربيتهم ، لأنهم هم الذين هيئوا لتبليغ الرسالة فيجب أن يأخذوا حظهم كاملاً من التربية قبل الناس كلهم . ولهذا نجد كثيراً من الآيات القرآنية فى مرآيتها البعيدة إصلاحاً لحال العرب وتطهيراً لمجتمعهم وإثارة لمعانى العزة والشرف فى نفوسهم ، ومن هذا الباب الآيات التى

(٢) كتاب آثار ابن ناديس - ج ٢ - ص ٥٩ - ٧٦

يذكر بها العرب أن هذا القرآن أنزل بلسانهم مثل : « إنا جعلناه قرآنا عربيا »^(١)
« إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون »^(٢) والذين يعقلون القرآن قبل الناس كلهم
هم العرب . ومن أول القصد إلى العرب والعناية بلسانهم وتنبيههم إلى أن القرآن
أنزل بلسانهم دون جميع الألسنة . جلبا لهم حتى يعلموا أنه أنزل لهم وفيهم قبل
الناس كلهم .

إن العرب قوم يعتزون بقوميتهم وهم قوم ذوو عزة وإباء خصوصا في
الجاهلية فكان من حكمة القرآن أن يجلب بافرهم ويقرب بعيدهم بأن هذا القرآن
أنزل بلسانهم .

ومن هذا الباب توسعة الله في قراءة القرآن على سبعة أحرف وهى اللهجات
التي تجتمع على صميم العربية وتختلف في غير ذلك . وسع عليهم في ذلك لتشعر
كل قبيلة أن هذا القرآن قرآنها . لأن اللسان الذى نزل به لسانها . وهذا هو
ما يقصده القرآن . ومن هذا الباب أيضا إشعارهم بأن صاحب الرسالة منهم
« لقد جاءكم رسول من أنفسكم »^(٣) الآية .

فن الطبيعة العربية الخالصة أنها لا تخضع للأجنبي في شيء لا في لغتها
ولا في شيء من مقوماتها ولذلك نرى القرآن يذكرها بالشرف ويحدثها كثيرا عن
أمة اليهود التي لا ياديها إلا بيايى إسرائيل تذكيرا لها بنجدها الذى هو مناط
فخرها . كل ذلك لأنها أمة تحيا بالشرف والسمو والعلو . ويذكرها بالذكر -

(١) الزخرف ٣

(٢) يوسف ٢

(٣) التوبة ١٢٨

وهو في لسانها الشهرة الطاهرة والثناء المستفيض يقول تعالى نبيه وهو يعني القرآن: «فاستمسك بالذي أوحى إليك إنك على صراط مستقيم وإنه لذكر لك ولقومك»^(١). والأنبياء لم يبعثوا إلا في مناسب الشرف ومناجى القوة ومناجى العزة ليبينى المجد الطريف من الدين على المجد التليد من أحساب الأمة وأنسابها وشرفها وعزتها. وما كان لها من مناقب تلتئم مع أصول الدين. فقولته تعالى: «إنه لذكر لك ولقومك» يعني أنه شرف لكم. وقومه هم العرب لا محالة. ويقول بعد ذلك: «وسوف تسئلون» ليشعرهم أن عليهم من الواجبات في مقابلة هذا الشرف الذى أعطوه ما ليس على غيرهم. ولا شك أن ثمن المجد غال.

وهذا الشرط الذى ذكره الله وذكر به العرب هو شرط واجب الاعتبار والتنفيذ.

لأن الأمة التى لا تؤدى ثمن المجد لا تحافظ عليه. ثم هى أمة لا يعتمد عليها فى الهوض بنفسها ولا بعيرها. وإنما ذكرهم الله بذلك لينهضوا بالأمم على ذلك الأساس وهو إحياء الشرف الإنسانى فى نفوسها، وليعاملوها على ذلك الأساس بالعدل والرحمة والمكرام، وما ذكر القرآن العرب بتكرام بنى آدم وخلقتهم فى أحسن تقويم إلا ليعاملوهم على هذه القاعدة التى وضعها الخالق، وإن أعداء البشرية اليوم وقبل اليوم يعمدون إلى قتل الشرف من النفوس ليستدلوا من هذا النوع ما أعر الله ويهينوا منه ما كرم الله.

(١) الزخرف: ٤٤

والخلاصة أن عناية القرآن بإحياء الشرف في نفوس العرب ضرورية لإعدادهم لما هيئوا له من سياسة البشر . وبهذا نستعين على فهم السر والحكمة في اختيار الله للعرب للهوض بهذه الرسالة الإسلامية العالمية واصطفائه إياهم لإنقاذ العالم مما كان فيه من شر وباطل . وهذا السر هو أن ما كانوا عليه من شرف النفس وعزتها والاعتداد بها هو الذي هيأهم لذلك ولو كانوا أدلاء لما تهيئوا لذلك العمل العظيم .

وانظروا واعتبروا ذلك بحال أمة هي أقرب أمة إلى العرب وهي أمة إسرائيل فإنها لم تكن مهياة لإنقاذ غيرها . وإنما هيئت لإنقاذ نفسها فقط لأن مقوماتها النفسية لم تصل بها إلى تلك الدرجة العليا : ولذلك عانى موسى معها ما عانى مما قصه القرآن علينا لنعتبر به في الحكم على الأمم .

ولا حاجة إلى التطويل في الحديث عن بني إسرائيل فإن القرآن قد فصل لنا شئهم تفصيلا ، وإنما أنبهكم على هذا الفارق الجوهرى بين الأمتين .

وقد تقولون إن بني إسرائيل اختارهم الله وفضلهم على العالمين ، والجواب الذى يشهد له الواقع أنه اختارهم لينقذوا أنفسهم من استعباد فرعون وليكونوا مظهرا للنبوة والدين في أول أطوارهما وأضيق أدوارهما وهذا هو الواقع فإن الأمة العربية استطاعة أن تنهض بالعالم كله وأن تظهر دين الله على الدين كله ، وأما بني إسرائيل فإنهم ما استطاعوا أن ينهضوا حتى بأنفسهم وإنما نهض بهم موسى نهضة قائمة على الخوارق ، وما نهضوا بأنفسهم إلا بعد موسى بزمن ، مع اتصال جبل النبوة فيهم ومغادة الوحي الإلهي ومراوحتهم لهم .

فالأمتان العربية والإسرائيلية متمايزتان بحديث القرآن عنهما ، وإذا تلمسنا

الحكمة المقصودة من اختيار الله لبني إسرائيل . مع أنهم غير مستعدين للقيام
بنهضة عالمية عامة ، وجدنا تلك الحكمة في القرآن مجلوة في أبلغ بيان ، في قوله
تعالى : « ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم
الوارثين ونمكن لهم في الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا
يحذرون » (١) .

فالسّر المتجلى من هذه الآية هو أن الله أراد بما صنع لبني إسرائيل وبما قال
لهم أن يعلم هذا العالم الإنساني من سنن الله في كونه ما لم يكن يعلم ، وهو إخراج
الضد من الضد وإخراج الحى من الميت وإفقاذا الأمة الضعيفة التى لا تملك شيئاً
من وسائل القوة الروحية ولا من وسائل القوة المادية من العباد الأقوياء
المتألهين ، فهو مثل عملى ضربه الله لخلّاص أضعف الضعفاء من محالب أقوى
الأقوياء ، وجعل المستضعفين أئمة وارثين ، وسادة غالبين ، والتمكين لهم في
الأرض ، ورؤية الأقوياء المستعلين في الأرض عاقبة باطلهم لكيلا ييأس
المستضعفون في الأرض من روح الله ، وقد قال موسى لبني إسرائيل تمكيننا لهذا
المعنى في نفوسهم : « عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر
كيف تعملون » (٢) .

وإلى هذا المثل العملى تشير الآية : « ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم
وهم ألوّف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم إن الله لذو فضل على

(١) القصص : ٥ .

(٢) الأعراف : ١٢٩ .

الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون» (١) .

وأما العرب فإنهم اختيروا لوظيفة عالمية عامة لما فيهم من شرف متأصل واستعداد كامل وصفات مهيئة . ولهذا كان منبع الرسالة بمكة وشأنها عند العرب هو شأنها ، فهم مجمعون على تخليصها ولأنها في وسط الجزيرة وصميمها ووسط الجزيرة بعيد كل البعد عن المؤثرات الخارجية في الطباع والألسنة تلك المؤثرات التي يجلبها الاحتكاك بالأجانب والاختلاط بهم . وكل أطراف الجزيرة لم تخل من لؤة في الطباع وعجمة في الألسنة ، جاءت من الاختلاط بالأجنبي ، ولا أضرم على مقومات الأمم من العروق الدساسة . فالبن دخلتها الدخائل الأجنبية من الحبشة والفرس على طباع أهلها وألسنتهم . والشام ومشارفه كانت مشرفة على الاستعجام ، والعراق والجزيرة لم يسلمتا من التأثير بالطباع الفارسية . فكانت هذه الأطراف تنطوي على عروبة مزعزة المقومات ولم يحافظ على الطبع العربي الصميم إلا صميم الجزيرة . ومنه مكة التي ظهر فيها الإسلام ، وهذا الوسط وإن كان عريقا في الصفات التي تسمى العصر لأجلها جاهليا . ولكنه بعيد عن الذل الذي يقتل العزة والشرف من النفوس والجاهل يمكن أن تعلمه والجاني يمكن أن تهذبه ، ولكن الدليل الذي نشأ على الذل يعسر أو يتعذر أن تغرس في نفسه الدليلة المهيئة عزة وإباء وشهامة تلحقه بالرجال .

هذا توجيه موجز مقرب لاختيار الله تعالى العرب للنهوض بالرسالة العامة .

(١) المرة : ٢٤٣ .

وشىء آخر يرتبط بهذا وهو أن الله كما اختار العرب للنهوض بالعالم كذلك
اختار لسانهم ليكون لسان هذه الرسالة وترجمان هذه النهضة . ولا عجب في
هذا ، فاللسان الذى اتسع للوحى الإلهى لا يضيق أبدا بهذه النهضة العالمية مهما
اتسعت آفاقها وزخرت علومها .

العرب فى القرآن

- ٢ -

أيها الإخوان :

جعلنا عنوان الخطاب « العرب فى القرآن » وقلنا فى أول كلمة منه إن العناية بالعرب حق على كل مسلم لارتباط تاريخهم بتاريخ الإسلام . فما هو حظ العرب من القرآن من الناحية التاريخية بعد أن سمعتم هذه التوجيهات العامة .

والعرب مظلومون فى التاريخ ، فإن الناس يعتقدون ويعرفون أن العرب كانوا همجا لا يصلحون لدنيا ولا دين حتى جاء الإسلام فاهتدوا به فأخرجهم من الظلمات إلى النور .

هكذا يتخيل الناس العرب بهذه الصورة المشوهة ، ويزيد هذا التخيل رسوخا ما هو مستفيض فى آيات القرآن من تقبيح ما كان عليه العرب ليحذرنا من جاهلية أخرى بعد جاهليتهم .

والحقيقة التى يجب أن أذيعها فى هذا الموقف هى أن القرآن وحده هو الذى أنصف العرب . والناس بعد نزول القرآن قصروا فى نظرتهم التاريخية إلى العرب فنشأ ذلك التخيل الجائر عن القصد . والتاريخ يجب ألا ينظر من جهة واحدة

بل ينظر من جهات متعددة وفي العرب نواح تجتبي ونواح تجتنب ، وجهات تلم وتقبح وجهات يثنى عليها وتمدح . وهذه هي طريقة القرآن بعينها . فهو يعيب من العرب رذائلهم النفسية كالوثنية ونقائصهم الفعلية كالقسوة والقتل . وينوه بصفاتهم الإنسانية التي شادوا بها مدنياتهم السالفة واستحقوا بها النهوض بمدنية المدينيات .

ولذا كر عادا فهي أمة عربية ذات تاريخ قديم ومدنية باذخة ذكرها القرآن فذكرها بالقوة والصولة وعزة الجانب ونعى عليها الصفات الذميمة التي تنشأ عن القوة قال تعالى : « فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة ، أو لم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة »^(١) .

فالنظرة التاريخية المجردة في هذه الآية وفيما ورد في موضوعها تربنا أن عادا بلغت من القوة والعظمة مبلغا لم تبلغه أمة من أمم الأرض في زمنها حتى إن الله جل شأنه لم يتحد قوتهم : « من أشد منا قوة ؟ » إلا بقوته الإلهية التي يدعن إليها كل مخلوق ، ولو كانت في أمم الأرض إذ ذاك أمة أقوى منهم لكان الأبلغ أن يتحداهم بها . وأن أمة تقول هذه الكلمة بحالها أو مقالها هي أمة معتدة بقوتها وعظمتها .

ومن هذه الآية وحدها نستفيد أن عادا كانت أشد الأمم قوة ، وأنها ما بلغت هاهنا الدرجة من القوة إلا بمؤهلات جنسية طبيعية للملك وتصير الأرض ، وأن تلك المؤهلات فيها وفي غيرها من شعوب العرب هي التي أعدتهم للنهوض بالرسالة الإلهية .

(١) فصلت : ١٥

وإن القرآن لا ينكر عليهم هذه المؤهلات وإنما ينكر عليهم لوازمها ولا ينكر عليهم القوة والعظمة وإنما ينكر عليهم أن يجعلوها ذرائع للباطل والبغى ومحادة الله ، بدليل قوله لهذه الأمة : « ويزدكم قوة إلى قوتكم »^(١) . فهو يضمن لهم إن هم آمنوا وعملوا الصالحات يزد قوتهم تمكيناً وبقاءً ، ومحال أن ينكر القرآن على الناس القوة وهو الداعي إليها والمنفر من الضعف وإنما شرع القرآن يحجب الدعوة إلى القوة أن تكون للحق وللخير وللرحمة والعدل .

وكذلك قوله تعالى : « أتبنون بكل ريع آية تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون وإذا بطشتم بطشتم جبارين فاتقوا الله وأطيعون »^(٢) ، فإن هذه الآية - زيادة عن إفادتها لمعنى ما قدمناه - تكشف لنا نواحي من تاريخ هذه الأمة العربية ومبلغ مدنيّتها وتعميرها فهي تدل على أنهم كانوا بصراء بعلم تخطيط المدن والأبنية ، وهو علم لا يستحكم إلا باستحكام الحضارة في الأمة ، وماخذ هذا من قوله : « بكل ريع » .

والآية في قوله (آية) هي بناء شامخ يدل على قوتهم أو هي آية هادية للسائرين ، وهي على كل حال بناء عظيم يدل على عظمتهم وقوتهم وما زالت عظمة البناء تدل على عظمة الباني .

ولم ينكر عليهم نبيهم نفس البناء الذي هو مظهر القوة ، وإنما أنكر عليهم الغاية المقصودة لهم من ذلك البناء الشامخ فحط الإنكار قوله : « تعبثون » ،

(١) هود : ٥٢ .

(٢) الشعراء : ١٢٨ .

ولا شك أن كل بناء شامخ لا يكون لغاية شريفة محمودة فهو عبث وباطل .

والمصانع ، يقول المفسرون إنها مجارى المياه أو هى القصور ، وعلى القولين فهى دليل على معرفتهم بفن التعمير علما وعملا وبلوغهم فيه مبلغا عظيما فهى من شواهدنا على ما سقنا الحديث إليه .

ولكن ليت شعري ما الذى صرف المفسرين اللفظيين عن معنى المصنع اللفظى الاشتقاقى ؟ والذى أفهمه ولا أعدل عنه هو ان المصانع جمع مصنع من الصنع كالمعامل من العمل ، وأنها مصانع حقيقية للأدوات التى تستلزمها الحضارة ويقتضيها العمران . وهل كثير على أمة توصف بما وصفت به فى الآية ، أن تكون لها مصانع بمعناها العرفى عندنا ؟ بلى ! وإن المصانع لأول لازم من لوازم العمران وأول نتيجة من نتائجها .

ولا أغرب من تفسير هؤلاء المفسرين للمصانع إلا تفسير بعضهم للسائحين والسائحات بالصائمين والصائمات ! والحق أن السائحين هم الرحالون والرواد للاطلاع والاكتشاف والاعتبار والقرآن الذى يحث على السير فى الأرض والنظر فى آثار الأمم الخالية حقيق بأن يحشر السائحين فى زمرة العابدين والحمددين والراكعين والساجدين ، فرىما كانت فائدة السياحة أتم وأعم من فائدة بعض الركوع والسجود .

ولا يقولن قائل : إذا كانت المصانع ما فهمتم فلماذا يقبحها لهم وينكرها

عليهم ؟ فإنه لم ينكرها عليهم لذاتها وإنما أنكر عليهم غاياتها وثمراتها . فإن المصانع التي تشيد على القسوة . والقسوة لا تحمد في مبدأ ولا غاية . وأى عاقل يرتاب في أن المصانع اليوم هي أدوات عذاب لا رحمة ووسائل تدمير لا تعمير ؟ فهل يحمد لها على عمومها وأن دلائل حضارة ومدنية كانت ؟

ومن محامد المصانع أن تشاد لنفع البشر ولرحمتهم ومن لوازم ذلك أن تراعى فيها حقوق العامل على أساس أنه إنسان لا آلة .

« وإذا بطشتم بطشتم جبارين » لا بد لكل أمة تسود وتقوى من بطش . ولكن البطش فيه ما هو حق بأن يكون انتصافا وقصاصا وإقامة لقسطاس العدل بين الناس . وفيه ما هو بطش الجبارين . والجبار هو الذي يجبرك على أن تعمل بإرادته لا بإرادتك . فبطشة إنما يكون انتقاما لكبريائه وجبروته وإرضاء لظلمه وعتوه وتنفيذا لأرادته الجائرة التي لا تبنى على شورى وإنما تبنى على التشهى وهوى النفس . لذلك لم ينقم منهم البطش لأنه بطش . وإنما نقم منهم بطش الجبابة الذي كله ظلم .

وفي القرآن ما هو كالتسمة لبحشنا عن حضارة العرب . وكالعلاقة لحضارة عاد بعينها . وهي حكاية عاد إرم ذات العماد

فهذا الوصف البليغ الذي نقرؤه في سورة الفجر صريح بألفاظه ومعانيه في أنه وصف الحضارة عمرانية لا نظير لها . فالعماد لا تكون إلا في القصور والأبنية الباذخة والمدن المخططة على نظام محكم . وقد قال تعالى وهو العالم بكل شيء إنه « لم يخلق مثلها في البلاد »^(١) . ومدينة هذا وصفها لا تشيدها إلا أمة لا نظير لها في

(١) الصجر : ٨

القوة وآثار الحضارة يتبع بعضها في الضخامة والعظم . والوصف القرآني لها وإن سيق للاتعاظ بعاقبتهم يدل الباحث التاريخي على أنهم بلغوا في الحضارة غاية لا وراءها . وهم أمة عربية . فهذه المدينة شيدت في جزيرة العرب لا محالة . وإن الأقرب في التذكير بهم والاتعاظ بمصيرهم أن تكون الرؤية في قوله تعالى : « ألم تر » علمية لأن التذكير عام لمن تتيسر له رؤية العين ولن لم تتيسر له . ولو اقتصرت الأمم الإسلامية بأوامر القرآن لنشأ فيها رواد يرودون الجزيرة ويحبون مجاهلها . ولو فعلوا لأمكن أن يعثروا على آثار هذه المدينة أرض عاد وهي معروفة ، ويجمعوا بين الرؤية البصرية والرؤية العلمية وبين العلم والاتعاظ ، وإننا لا نعبأ في مقام البحث العلمي بما حف هذه الحكاية من أساطير . ولا بما وقع فيه شيخ المؤرخين ابن خلدون حينما تعرض لنقض تلك الأساطير .

العرب في القرآن

- ٣ -

وأمة أخرى من الأمم العربية وهي ثمود ، وهي أمة عربية نلغنها بلعن القرآن لها . ولكننا نذكرها بما ذكرها به القرآن من قوة وتعمير وحضارة . فصالح رسول هذه الأمة يقول في دعوتها إلى الله وتعريفها بنعمه : (هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها)^(١) . فأمة أمة لا تعمر الأرض إلا إذا ملكت وسائل التعمير . وهي كثيرة ، ومجموعها هو ما نسميه الحضارة أو المدنية .

وقد كشفت لنا عن هذا الاستعمار التمودي عدة آيات بليغة الوصف . ولكن أبلغها وصفا وأدقها تصويرا قوله تعالى : « أتتركون فيما ههنا آمنين في جنات وعيون وزروع ونخل طلعها هضيم وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين »^(٢)

أما المغزى الذي سبقت هذه الآية لأجله فهو النعي عليهم ، كيف يستعينون بنعم الله ، التي يسرها لهم ، على الكفر به ، وإنذارهم أن الكفر بها وبمؤتيها سيكون سببا في زوالها ، وفي ضمن هذا عرفنا حالتهم التي كانوا عليها في تعمير

(١) هود : ٦١

(٢) الشعراء : ١٤٩ .

الأرض ، وهي حالة أمة بلغت النهاية في الحضارة المادية وفنونها من زرع الأرض وتلوينها بأصناف الشجر منظمة وتقسيم المياه على تلك الغروس إلى ما يستلزمه كل ذلك من علم بحال الأرض وطبائعها وأحوال الأشجار المغترسة وطبائعها وأحوال الفصول الزمنية وأحوال الجو وأحوال التلقيح والآبار والجنى وعلم بأصناف التمتع من مناظر ومجالس ومقامات ومآكل . ثم القيام على حفظ ذلك العمران من إفساد الأيدي السارقة ، وكل هذا مما يستلزمه وصف القرآن لحالهم لأجل تذكيرهم والتذكير بهم ، وقد ذكرهم القرآن في مواضع يلتفتانهم لنحت الحجر ، والشجر والحجر آيتا الحضارة المبصرتان ، ومن يعرف الحضارة الرومانية بهذا الوطن يعرف أنها ما قامت إلا على نحت الحجر وغرس الشجر .

وإن نحت الحجر ليستدعى حاسة فنية ويستدعى مع ذلك قوة بدنية ، وقد نعتهم القرآن في نحتهم للحجر بحالة ملايسة فوصفهم مرة بأنهم آمنون ومرة بأنهم فارهون ، والفاره هو الذى يعمل بنشاط وخفة ولا يأتيه ذلك إلا من خبرته بما يعمل وعلمه بدقائقه واعتياده له . ومعنى هذا أن أصول هذه الصناعة التى اشتهر بها المصريون القدماء والرومان قد رسخت فيهم ، ولكن التاريخ المتقول ظلم العرب وبخسهم حقهم كما قلت لكم فى طالعة الخطاب .

هاتان أمتان من الأمم العربية أثبت القرآن حالهما فكان لنا مصدرا تاريخيا معصوما فى إثبات حضارة الشعوب العربية التى برزت فيها الأمم .

ولنتقل الآن إلى ناحية أخرى من نواحي الجزيرة وهى اليمن التى عرفها اليونان وغيرهم وعرفوا المدنيات التى قامت فيها فسعوها بالعربية السعيدة ، وإنا

إذا انتقلنا إلى هذه الناحية من الجزيرة نجد العز القُدُموس^(١) والمجد الباذخ والماضي الزاهر لهذه الأمة التي نفتخر بالانتساب إليها ونباهي الأمم بمدنياتها بالحق والبرهان . وإننا في حديثنا عن اليمن لا نخرج عن شواهد القرآن .

قال تعالى : « لقد كان لسبإ في مسكنهم آية جتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين دواقي أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي إلا الكفور وجعلنا بينهم وبين القرى التي ناركتنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير سيروا فيها ليالي وأياما آمنين فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق »^(٢) .

ليس المقام مقام تبسط في وجوه البلاغة المعجزة التي تنطوي عليها هذه الآيات ، فقد استوعبت تاريخ أمة في سطور . وصورت لنا أطوارا اجتماعية كاملة في جمل قليلة أبدع تصوير . ووصفت لنا بعض خصائص الحضارة والبدواة في جمل جامعة لا أظن غير اللسان العربي يتسع لحملها كقوله : « قرى ظاهرة » وكقوله : « وقدرنا فيها السير » . وكقوله : « باعد بين أسفارنا » ، حتى إذا وصل القارئ إلى مصير هذه الأمة التي سمع ما هاله من وصفها واجهه قوله تعالى : « فجعلناهم أحاديث » ، وأدركه الفرق في لجج البلاغة الزاخرة .

اللهم إن السلامة في الساحل ، وإننا لا نعدو موضوعنا تصور حضارة

(١) القُدُموس . أي القديم .

(٢) سبأ : ١٥ - ١٩

العرب مما يحكيه القرآن عنها في معرض بيان مصائبها حين كفرت بأنعم الله وبرسله .

الآيات صريحة في أن مدنية سبأ كانت مدنية زاهرة مستكملة الأدوات ومن قرأ القرآن بعقله فهم ما نفهم من آياته وعلم كما نعلم أن مدن سبأ كانت عامرة بالبساتين عن يمين وشمال ويمين من ؟ وشمال من ؟ إنه ولا شك يمين السائر في تلك المدن أو الأراضي وشماله ، ومعنى هذا أن طرق السير كانت منظمة تبعا لتنظيم الغروس عن يمينها وشمالها . والاكتشافات الأثرية اليوم التي كان لليمن حظ ضئيل منها - وإن كان على غير يد أهلها - تشهد بأن أم الحضارات اليمنية كانوا من أسبق الأمم إلى بناء السدود المنيعة لحصر المياه والانتفاع بها في تعمير الأرض ، وإقامة السدود لا تتم بالفكر البدوي .. والعمل البدوي - بل تتوقف على علوم فكرية . منها الهندسة ، والهندسة تتوقف ثمراتها على علوم كثيرة ، وعلوم العمران كعروق المدن يمد بعضها بعضا ، فهي مترابطة متماسكة متلاحمة - فما يكون السبئيون بلغوا في الهندسة مبلغا أقاموا به سد مأرب حتى يبلغوا في غيره من علوم العمران ذلك المبلغ .

ولكن لما كفروا بأنعم الله واستعملوها في ما يسخطه سخط الله عليهم من الأسباب ما خرب عمرانهم وأباد حضاراتهم وذلك قوله تعالى : « فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم ... الخ » .

ويقول في وصف عمرانهم : « وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة » ، يعني أن عمرانهم لم يكن محدودا ، وإنما كان متصلا ببعضه ببعض فالقرى والمدن يظهر بعضها من بعضها لقربها وتلاحمها فلا يكاد المسافر يرح

مدينة حتى تبدو له أعلام الأخرى ، ولا يكون هذا إلا إذا كان العمران متصلاً . وهذا هو معنى الظهور في الآية فهو ظهور خاص . وتقدير السير هو أن يكون منظماً ، ومن لوازمه أن تكون الأوقات مضبوطة بالساعات والطرق محدودة بالعلامات التي تضبط المسافة ، وقوله تعالى : « سيروا فيها ليالى وأياماً آمنين » يرشدنا إلى امتداد العمران مسافة الليالى والأيام وأن الأمن كان ماداً رواقه على هذا العمران ولا يتم العمران إلا بالأمن ، ولكن فات القوم أن يحصنوا هذه المدينة الزاخرة بسياج الإيمان والشكر والفضيلة والعدل وكل مدينة لم تحصن هؤلاء فصرها إلى الخراب ، والناس من قديم مفتونون بعظمة المظاهر يحسبون أنها خالدة بعظمتها باقية بذاتها ، فالقرآن يذكرنا كثيراً من مصائر الأمم حتى لا نغتر بمظاهرها وحق يعلم أن سنة الله لا تتخلف في الآخرين كما لم تتخلف في الأولين

وأما قوله تعالى : « قالوا ربنا باعد بين أسفارنا » فإن المفسرين السطحيين يحملونه على ظاهره ، وأى عاقل يطلب بعد الأسفار ؟ والحقيقة أنهم لم يقولوا هذا بألسنتهم وإنما هو نتيجة أعمالهم . ومن عمل عملاً يفضى إلى نتيجة لازمة فإن العربية تعبر عن تلك النتيجة بأنها قوله . وهذا نحو من أنحاء العربية الطريفة .

ومارال الناس - على عاميتهم - يقولون فيمن عمل عملاً يستحق عليه الضرب أو القتل : إنه يقول اقتلى أو اضربنى ، وهو لم يقل ذلك وإنما أعماله هي التي تدعو إلى ذلك ، فالمعنى أن أعمالهم هي التي طلبت جزاءها اللازم لها المرتبط بها ارتباط اللازم بالملزوم والبدال بالمدلول ، فكأن ألسنتهم قالت ذلك

ويؤيد هذا في القرآن كثير ، ومنه قوله تعالى : «سيجزيهم» وصفهم لأن الجزاء أثر للفعل فهو مرتبط به ولا يقولن قائل : القول يقع مدلوله في القلب حالا ولا كذلك العمل فقد يتأخر جزاؤه طويلا - لأن الجزاء إذا كان محقق الوقوع يصير كأنه حاصل بالفعل ، وكل عاقل يقطع بأنه إذا وقع الظلم من الظالم فقد استحق عليه الجزاء ، ولا يلاحظ مسافة ما بين الظلم وجزائه .

أما المباعدة بين أسفارهم التي اقتضاها كفرهم بأنعم الله : فهي كناية عن محو العمران وحراب القرى التي كانت ظاهرة متقاربة حتى لا يبقى منها إلا القليل فيبعد ذلك القليل بالطبع بحراب الكثير .

وأين العمران المتلاحم الذي يرتاح فيه المسافر لضبط المسافة وتعدد المشاهد من الحراب الذي يوحش النفس فيزيد المسافة بعدا على بعد .

ومكة سبأ وعرشها العظيم وملكها ، وما قصه القرآن من نشأ أعظم وأروع ، فخير سليمان - عليه السلام - يقول عنها : «وأوتيت من كل شيء وطا عرش عظيم»^(١) وما وصف عرش ملكة سبأ بالعظيم عند سليمان نبي الله الذي سخر له الجن والريح - إلا وهو في نفسه عظيم .

أيها الإخوان :

إن في قصة ملكة سبأ في القرآن لدرسا تنفجر منه ينابيع العظمة والعبرة ورشادا إلى ما تقوم به الأمم ، ولولا أن هذا الخطاب قد طال لآثرنا منها العبر وأثرنا بها العبر . ولكن لا يفوتنا أن نلخص منها إشارات وما عليكم بعد ذلك

(١) العمل . ٢٣

إلا أن تتدبروا الآية ففيها نظام الشورى صريح لا مواربة فيه . وفيها ان بناء الأمم
إعما يعتمد على القوة ، وقد تكون مؤنثة فلا بد أن يسدها بأس شديد . وفيها أن
الملأ هم الأشراف وأهل الرأي وهم أعضاء المجالس الشورية . ولعلهم كانوا
بالانتخاب العرفي . وهو نظام مدني . ولعلهم كانوا بالانتخاب الطبيعي أو
الوراثي . وهو لا يكون إلا في الأمم التي شبت عن طوق البداوة .
ولعل كاتبها من كتابا يتناول هذا البحث . بحث الانتخاب في الإسلام .
ولئن استرشد القرآن في هذا الباب ليرشدته .

هذه مدنيات ضخمة غرت في هذه الأمة التي أهلها الله لحمل الرسالة
الإلهية إلى العالم . وهذه بعض خصائص هذه الأمة التي هيأها الله للنهوض
بالعالم وإنقاذه من شرور الوثنية وبلباتها ومن ضلال العبودية بجميع أصنافها .
وإن القومية العربية موضوع مرامي الأطراف . وليس من الممكن الإحاطة به في
مثل هذا الخطاب . وحسبي أن أكون قد خدمتها من هذه الناحية التي هي
خدمة للإسلام والقرآن ، وعليكم السلام .

— ج —

الوحدة العربية

(١) هل بين العرب وحدة سياسية ؟

إذا قلنا العرب فإننا نعى هذه الأمة الممتدة من المحيط الهندي شرقا إلى المحيط الاطلسي غربا ، والتي فاقت سبعين مليونا عدا ، تنطق بالعربية وتفكر بها وتتغذى من تاريخها وتحمل مقدارا عظيما من دمها ، وقد صهرتها القرون في بوتقة التاريخ حتى أصبحت أمة واحدة .

هذه الأمة العربية تربط بينها — زيادة على رابطة اللغة — رابطة الجنس ورابطة التاريخ ، ورابطة الألم ، ورابطة الأمل ، فالوحدة القومية والأدبية متحققة بينها ولا محالة . ولكن هل بينها وحدة سياسية ؟

الوحدة السياسية لا تكون إلا بين شعوب تسوس نفسها فتضع خطة واحدة تسير عليها في علاقاتها مع غيرها من الأمم . وتتعاقد على تنفيذها ، والدفاع عنها يدا واحدة . فهي مقتدرة على الدفاع عنها كلما كانت حرة في وضعها . وأما الأمم المغلوبة على أمرها فهذه لا تستطيع أن تضع أمرا لنفسها . فكيف تستطيع أن تدافع عما تقرره مع غيرها ؟ . وهي لم تستطع أن تعتمد على نفسها في داخليتها فكيف يعتمد عليها في خارجيتها ؟ فالوحدة السياسية بين هذه الأمم أمر غير ممكن ولا معقول ولا مقبول .

(١) كتاب آثار ابن باديس . ج ١ ، م ٢ ص ٣٩٨ - ٤٠١

وإذا نظرنا إلى الأمة العربية على ضوء هذه الحقيقة فإننا نجد منها شعوبا مستقلة استقلالاً حقيقياً فهذه تمكن بينها الوحدة السياسية وتجب . وقد وقعت في هذه الأيام - والحمد لله - فعلا بين المملكة السعودية والعراق واليمن ، ومن المنتظر انضمام مصر والشام إليهم يوم يتم استقلالهما . ثم نجد شعوبا أخرى وهي شعوب الشمال الأفريقي المصابة بالاستعمار فهذه لا وحدة سياسية بينها ولا بين غيرها ولا يتصور أن تكون . ومن الخير لها أن تعمل كل واحدة منها في دائرة وضعيتها الخاصة على ما يناسبها من الخطط السياسية التي تستطيع تنفيذها بالطرق المعقولة الموصلة . مع الشعور التام بالوحدة القومية والأدبية العامة والمحافظة عليها واجهازة بها ، ونحن نعلم أن الواقع اليوم في شمالنا الأفريقي العربي هو هذا بعينه . فنقول - بكل صدق وصراحة - إن كل شعب من شعوب هذا الشمال مستقل تمام الاستقلال بخططه في سياسته ، لا نعرف هيئة منهم تتصل بهيئة مع عمل الجميع على تغذية الشعور بالوحدة القومية والأدبية العامة . هذا رأينا في الوحدة السياسية بين شعوب العرب . ونحن نعتقد أنه هو رأى جميع إخواننا العاملين في هذا الشمال .

- د -

مصطفى كمال

رحمه الله^(١)

في السابع عشر من رمضان المعظم^(٢) ختمت أنفاس أعظم رجل عرفته البشرية في التاريخ الحديث ، وعبقري من أعظم عباقرة الشرق ، الذين يطلعون على العالم في مختلف الأحقاب ، فيحولون مجرى التاريخ ويخلقونه خلقا جديداً ذلك هو مصطفى كمال بطل غاليبولي في الدردنيل وبطل سقاربا في الأناضول وباعث تركيا من شبه الموت إلى حيث هي اليوم من الغنى والعز والسمو .

وإذا قلنا بطل غاليبولي فقد قلنا قاهر الانكليز أعظم دولة بحرية لدى هزمها في الحرب الكبرى بشر هزيمة لم تعرفها في تاريخها الطويل . وإذا قلنا بطل سقاربا فقد قلنا قاهر الانكليز وحلفائهم من يونان وطيان وفرنسيين بعد الحرب الكبرى ومجلبهم عن أرض تركيا بعد احتلال عاصمتها والنهزم أطرافها وشواطئها .

وإذا قلنا باعث تركيا فقد قلنا باعث الشرق الإسلامي كله ، فنزلة تركيا التي تبوأتها من قلب العالم الإسلامي في قرون عديدة هي منزلتها ، فلا عجب أن يكون بعثه مرتبطا ببعثها . لقد كانت تركيا قبل الحرب الكبرى هي جبهة صراع

(١) كتاب آثار ابن باديس - ٢ مجلد ٢ ص ٢١٣ - ٢١٧

(٢) سنة ١٣٥٧ هـ . الموافق ١٠ نوفمبر سنة ١٩٣٨ م

الشرق إزاء هجمات الغرب ، ومرمى قذائف الشره الاستعماري والتعصب النصراني من دول الغرب . فلما انتهت الحرب وخرجت تركيا منها مهشمة مفككة تناولت الدول الغربية أمم الشرق الإسلامي تمتلكها تحت أسماء استعمارية ملطفة . واحتلت تركيا نفسها واحتلت عاصمة الخلافة وأصبح الخليفة طوع يدها وتحت تصرفها . وقال المارشال النبي - وقد دخل القدس - : (اليوم انتهت الحروب الصليبية) . فلو لم يخلق الله المعجزة على يد كمال لذهبت تركيا وذهب الشرق الإسلامي معها ، لكن كمالا الذي جمع تلك الفلول المبعثرة فالتف به إخوانه من أبناء تركيا البررة . ونفخ من روحه في أرض الأناضول حيث الأرومة التركية الكريمة وغيل^(١) ذلك الشعب النبيل وقاوم ذلك الخليفة الأسير وحكومته المتداعية ، وشيوخه الدجالين من الداخل ، وقهر دول الغرب وفي مقدمتها انكلترا من الخارج . لكن كمالا هذا أوقف الغرب المغير عند حده وكبح من جياحه وكسر من غلوائه ، وبعث في الشرق الإسلامي أمله وضرب له المثل العالي في المقاومة والتضحية فنهض يكافح ويجاهد . فلم يكن مضطوق محي تركيا وحدها بل محي الشرق الإسلامي كله . وبهذا غير مجرى التاريخ ووضع للشرق الإسلامي أساس تكوين جديد ، فكان بحق - كما قلنا - من أعظم عباقرة الشرق العظام الذين أثروا في دين البشرية ودنياها من أقدم عصور التاريخ .

إن الإحاطة بنواحي البحث في شخصية أتاتورك (أبي الترك) مما يقصر عنه الباع ، ويضيق عنه المجال ، ولكنني أرى من المناسب أو من الواجب أن أقول

(١) الغيل - هما - منها : العرين .

كلمة في موقفه إزاء الإسلام . فهذه هي الناحية الوحيدة من نواحي عظمة مصطفى أتاتورك التي يتقبض لها قلب المسلم ويقف متأسفاً ، ويكاد يولى مصطفى في موقفه هذا الملامة كلها حتى يعرف المسئولين الحقيقيين الذين أوقفوا مصطفى ذلك الموقف ، فمن هم هؤلاء المسئولون ؟ ...

للمسئولون هم الذين كانوا يمثلون الإسلام وينطقون باسمه . ويتولون أمر الناس بنفوذه ، ويعدون أنفسهم أهله وأولى الناس به .

هؤلاء هم خليفة المسلمين وشيخ إسلام المسلمين ومن معه من علماء الدين وشيوخ الطرق المتصوفون ، والأمم الإسلامية التي كانت تعد السلطان العثماني خليفة لها .

أما خليفة المسلمين فيجلس في قصره تحت سلطة الانجليز المحتلين لعاصمته ساكتا ساكتا ، مستغفرا الله ، بل متحركا في يدهم تحرك الآلة لقتل حركة المجاهدين بالأناضول ، ناطقا بإعلان الجهاد ضد مصطفى كمال ومن معه ، الخارجين عن طاعة أمير المؤمنين ...

وأما شيخ الإسلام وعلمائوه فيكتبون للخليفة منشورا يمجّيه باسمه ويوزع على الناس بإذنه ، وتلقيه الطائرات اليونانية على القرى برضاه يبيع فيه دم مصطفى كمال ويعلن خيانتة ويضمن السعادة لمن يقتله .

وأما شيوخ الطرق الصالون وأتباعهم المتومنون فقد كانوا أعوانا للانجليز وللخليفة الواقع تحت قبضتهم . يوزعون ذلك المنشور ويثيرون الناس ضد المجاهدين .

وأما الأمم الإسلامية التي كانت تعد السلطان العثماني خليفة لها فمنها - إلا قليلا - من كانوا في بيعته فانتقضوا عليه ثم كانوا في صف أعدائهم وأعدائه ، ومنها من جاءت مع مستعبدتها حاملة السلاح على المسلمين شاهرة له في وجه خليفتهم .

فأين هو الإسلام في هذه (الكليات) ^(١) كلها ؟ وأين يصره مصطفى الناصر المحروب ، والمجاهد الموتور منها ؟ .

لقد ثار مصطفى كمال حقيقة ثورة جامعة ، ولكنه لم يثر على الإسلام ، وإنما ثار على هؤلاء الذين يسمون بالمسلمين . فألغى الخلافة الزائفة ، وقطع يد أولئك العلماء عن الحكم ، فرفض مجلة الأحكام ^(٢) ، واقتلع شجرة زقوم الطرقية من جذورها . وقال للأمم الإسلامية عليكم أنفسكم وعلى نفسي ، لا خير لي في الاتصال بكم ما دمت على ما أنتم عليه ، فكونوا أنفسكم ثم تعالوا تتعاهد وتعاون كما تتعاهد وتعاون الأمم ذوات السيادة والسلطان .

أما الإسلام فقد ترجم القرآن لأمتة التركية بلغتها لتأخذ الإسلام من معدنه ، وتستقيه من نبعه . ومكنها من إقامة شعائره فكانت مظاهر الإسلام في مساجده ، ومواسمه تتزايد في الظهور عاما بعد عام ، حتى كان المظهر الإسلامي العظيم يوم دفنه والصلاة عليه . نغمده الله برحمته .

لسنا نبرر صنيعه في رفض مجلة الأحكام ، ولكننا نريد أن يذكر الناس أن

(١) المائمه ١ .

(٢) هي مجلة الأحكام العدلية ، وفيها المجموعة القانونية العثمانية المأخوذة عن مذهب الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان .

تلك الحقبة المبنية على مشهور وراجح مذهب الحنفية ما كانت تسع حاجة أمة من الأمم في كل عصر ، لأن الذي يسع البشرية كلها في جميع عصورها هو الإسلام بجميع مذاهبه ، لا مذهب واحد أو جملة مذاهب محصورة كأننا ما كان وكائنة ما كانت ، ونريد أن يذكر الناس أيضا أن أولئك العلماء الجامدين ما كانوا يستطيعون أن يسمعوا غير ما عرفوه من صغرهم من مذهبهم وما كانت حواصلهم الضيقة لتسع لأكثر من ذلك كما يجب أن يذكروا أن مصر بلد الأزهر الشريف ما زالت إلى اليوم الأحكام الشرعية - غير الشخصية - معطلة فيها . وما زال (كود) نابليون مصدر أحكامها إلى اليوم . وما زال الانتفاع بالمذاهب الإسلامية في القضاء - غير المذهب الحنفى - مهجورا كذلك إلا قليلا جدا .

نعم ! إن مصطفى أتاتورك نزع عن الأتراك الأحكام الشرعية ، وليس مسئولا في ذلك وحده ، وفي إمكانهم أن يسترجعوها متى شاءوا وكيفما شاءوا ولكنه رجّع لهم حريتهم واستقلالهم وسيادتهم وعظمتهم بين أمم الأرض . وذلك مالا يسهل استرجاعه لو ضاع ، وهو وحده كان مبعثه ومصدره ، ثم إخوانه المخلصون . فأما الذين رفضوا الأحكام الشرعية إلى (كود) نابليون فهاذا أعطوا أمنهم ؟ وماذا قال علماءهم ؟ .

فرحم الله مصطفى ورجح ميزان حساسه في الموازين ، وتقبل إحسانه في المحسنين .

والى الأمة التركية الشقيقة الكريمة الماجدة ، التى لنا فيها حفدة وأحوال والتى تربطنا بها أواصر الدين والدم والتاريخ والحوار ، والتى تذكر الحزائر أيامها

بالجميل ، وترى شخصها دائما ماثلا فيما تركت لها من مساجد ومعاهد للدين الشريف ، والشرع الجليل ، إلى تركيا العزيزة نرفع تعازي الجزائر كلها مشاركين لها في مصابها ، راجين لها الخلف الصالح من أبنائها ، ومزيد التقدم في حاضرها ومستقبلها .

وإلى هذا فنحن نهنيها برئيس جمهوريتها الجديد عصمت اينونو ، بطل (اينونو) ومؤتمر لوزان وثنى مصطفى كمال . وإن في إجماعها على انتخابه لدليلا على ما بلغتة تركيا الكريمة من الرشد في الحياة الذي تبلغ به - إن شاء الله - من السعادة والكمال ما يناسب مجدها القدموس ، وتاريخها الحافل بأعظم الرجال ، وجلال الأعمال .

- ه -

الخلافة أم جماعة المسلمين ^(١) ؟

إن الخلافة هي المنصب الإسلامى الأعلى الذى يقوم على تنفيذ الشرع الإسلامى وحياطته بواسطة الشورى من أهل الحل والعقد من ذوى العلم والخبرة والنظر . وبالقوة من الجنود والقواد وسائر وسائل الدفاع .

ولقد أمكن أن يتولى هذا المنصب شخص واحد صدر الإسلام وزمنا بعده - على فرقة واضطراب - ثم قضت الضرورة بتعديده فى الشرق والغرب . ثم انسلك عن معناه الأصلى وبقي رمزا ظاهريا تقديسيا ليس من أوضاع الإسلام فى شىء .

فيوم ألغى الأتراك الخلافة - ولسنا نبرر كل أعمالهم - لم يلغوا الخلافة الإسلامية بمعناها الإسلامى وإنما ألغوا نظاما حكوميا خاصا بهم وأزالوا رمزا خياليا فتن به المسلمون لغير جدوى . وحاربهم من أجله الدول الغربية المتعصبة والمتخوفة من شبح الإسلام .

علمت الدول الغربية المستعمرة فتنة المسلمين باسم «خليفة» فأرادت أن تستغل ذلك مرات عديدة أصيبت فيها كلها بالفشل . ليس عجيبا من تلك الدول أن تحاول ما حاولت وغاياتها معروفة ومقاصدها بيّنة . وإنما العجب أن يندفع المسلمون وعلى رأسهم أمراء وعلماء منهم . ومن هذا الاندفاع ما يتحدث

(١) كتاب آثار ابن باديس . ج ١ مجلد ٢ ص ٤١٠ - ٤١٢ .

به في مصر فتردد صداه الصحف في الشرق والغرب وتتهم له صحافة الانكليز على الخصوص ، يتحدثون في مصر وفي الأزهر عن الخلافة كأنهم لا يرون المعادل الانكليزية الضاربة في ديارهم ولا يشاهدون دور الخمر والفجور المعترف بها في قانونهم .

كفي غرورا واتخذا . إن الأمم الإسلامية اليوم - حتى المستعبدة منها - أصبحت لا تخذعها هذه التهاويل ولوجاءها من تحت الجيب والعائم .

للمسلمين - مثلاً لغيرهم من الأمم - ناحيتان : ناحية سياسية دولية وناحية اجتماعية . فأما الناحية السياسية الدولية فهذه من شأن أمهم المستقلة ولا حديث لنا عليها اليوم . وأما الناحية الأدبية الاجتماعية فهي التي يجب أن تهتم بها كل الأمم الإسلامية المستقلة وغيرها لأنها ناحية تتعلق بالمسلم من جهة عقيدته وأخلاقه وسلوكه في الحياة في أي بقعة من الأرض كان . ومع أي أمة عاش وتحت أي سلطة وجد . وليست هذه الناحية الإنسانية الخضة دون الناحية الأولى في مظهر الإسلام ولا دونها في الحاجة إلى الحفظ والنظام لأجل خير المسلمين على الخصوص وخير البشرية العام ..

إن الأمم الكاثوليكية - مثلاً - على اختلاف أوضاعها السياسية وتباين مشاربها وأنظارها فيها - ترجع في ناحيتها الأدبية الدينية إلى مركز أعلى هو بابا روما المقدس الشخص والقول في نظر جميعهم .

نعم ليس لنا - والحمد لله - في الإسلام بعد محمد - صلى الله عليه وآله وسلم - شخص مقدس الذات والقول تدعى له العصمة . ويعتبر قوله تنزيلاً من حكيم حميد . ولكن لنا جماعة المسلمين - وهم أهل العلم والخبرة الذين

من أنفسها بعيدة كل البعد عن السياسة وتدخل الحكومات . لا الحكومات الإسلامية ولا غيرها .

لقد كنت كاتبته صاحب الفضيلة شيخ الأزهر الشريف بهذا المعنى ولكنني لم أتلّق منه جواباً . وعرفت السبب يوم بلغنا أن إخواننا الأزهريين هتفوا - يوماً - بالخلافة لملك مصر فاروق الأول .

وسرى صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر . أن خيال الخلافة لن يتحقق وأن المسلمين سينتهون يوماً ما - إن شاء الله - إلى هذا الرأي .

- ٤ -

حسن البنا

(١٣٢٤ - ١٣٦٨ هـ - ١٩٠٦ - ١٩٤٩ م)

(أ) موقف الإخوان المسلمين من الوحدة القومية والعربية والإسلامية .

(ب) الإخوان المسلمون والخلافة .

(أ) موقف الإخوان المسلمين من الوحدة القومية والعربية والإسلامية^(١)

كثيراً ما تنوع أفكار الناس في هذه النواحي الثلاث : الوحدة القومية^(٢) ، والوحدة العربية ، والوحدة الإسلامية ، وقد يضيفون إلى ذلك الوحدة الشرقية ، ثم تنطلق الألسنة والأفكار بالموازنة بينها وإمكان تحقيقها أو صعوبة ذلك الإمكان ، ومبلغ الفائدة أو الضرر منها ، والتشجيع لبعضها دون البعض الآخر . فما موقف الإخوان المسلمين من هذا الخليط من الأفكار والمناحي ؟ ولا سيما وكثير من الناس يغمزون الإخوان المسلمين في وطنيتهم ويعتبرون تمسكهم بالفكرة الإسلامية مانعاً إياهم من الإخلاص للناحية الوطنية ، والجواب على هذا أننا لن نعيد عن القاعدة التي وضعناها أساساً لفكرتنا ، وهي السير على هدى الإسلام وضوء تعاليمه السامية - فما موقف الإسلام نفسه من هذه النواحي ؟

إن الإسلام قد فرضها فريضة لازمة لا مناص منها أن يعمل كل إنسان لخير

(١) من « رسالة المؤتمر الخامس » ص ٤٥ - ٤٩ طبعة القاهرة - دار الاعتصام سنة ١٩٧٧م

(٢) أي الوطنية والأستد البنا يتحدث في دمه مصر

بلده وأن يتفانى في خدمته . وأن يقدم أكبر ما يستطيع من الخير للأمة التي يعيش فيها . وأن يقدم في ذلك الأقرب فالأقرب رحما وجوارا . حتى إنه لم يجر أن تنقل الزكوات أبعد من مسافة القصر إلا لضرورة إشارا للأقربين بالمعروف فكل مسلم مفروض عليه أن يسد الثغرة التي هو عليها وأن يخدم الوطن الذي نشأ فيه . ومن هنا كان المسلم أعمق الناس وطنية وأعظمهم نفعا لمواطنيه . لأن ذلك مفروض عليه من رب العالمين . وكان الإخوان المسلمون أشد الناس حرصا على خير وطنهم . وتفانيا في خدمة قومهم . وهم يتمنون لهذه البلاد العزيزة^(١) المجيدة كل عزة ومجد وكل تقدم ورفق . وكل فلاح ونجاح وقد استهت إليها رئاسة الأمم الإسلامية بحكم ظروف كثيرة تضافرت على هذا الوضع الكريم ، وإن حب المدينة لم يمنع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يحن إلى مكة وأن يقول لأصيل . وقد أخذ يصفها : يا أصيل دع القلوب تفر . وأن يجعل بلالا يهتف من قرارة نفسه :

ألا ليت شعري هل أبيت ليلة بواد وحول أذخر وجليل
وهل أردن يوما مياه محنة وهل يبدون لي شامة وطفيل؟^(٢)

فالإخوان المسلمون يحبون وطنهم . ويحرصون على وحدته القومية بهذا الاعتبار . ولا يحدون غضاظة على أي إنسان أن يخلص لبلده . وأن يفنى في سبيل قومه . وأن يتمنى لوطنه كل مجد وكل عز وفخار . هذا من وجهة القومية الخاصة .

(١) أي مصر

(٢) أذخر وحليل ومحنة وشامة وصفيل معلم بمكة المكرمة

ثم إن هذا الإسلام الخفيف نشأ عربيا ووصل إلى الأمم عن طريق العرب وجاء كتابه الكريم بلسان عربي مبين وتوحدت الأمم باسمه على هذا اللسان يوم كان المسلمون مسلمين ، وقد جاء في الأثر : إذا ذل العرب ذل الإسلام ، وقد تحقق هذا المعنى حين دال سلطان العرب السياسي وانتقل الأمر من أيديهم إلى غيرهم من الأعاجم والديلم ومن إليهم ، فالعرب هم عصبه الإسلام وحراسه - وأحب هنا أن ننبه إلى أن الإخوان المسلمين يعتبرون العروبة كما عرفها النبي - صلى الله عليه وسلم - فيما يرويه ابن كثير عن معاذ بن جبل - رضي الله عنه - : « ألا إن العربية اللسان ألا إن العربية اللسان » . ومن هنا كانت وحدة العرب أمرا لا بد منه لإعادة مجد الإسلام وإقامة دولته وإعزاز سلطانه - ومن هنا وجب على كل مسلم أن يعمل لإحياء الوحدة العربية وتأييدها ومناصرتها ، وهذا موقف الإخوان المسلمين من الوحدة العربية .

يقي علينا أن نحدد موقفنا من الوحدة الإسلامية - والحق أن الإسلام كما هو عقيدة وعبادة ، هو وطن وجنسية ، وأنه قد قضى على الفوارق النسبية بين الناس ، فالله تبارك وتعالى يقول : « إنما المؤمنون إخوة »^(١) والنبي - صلى الله عليه وسلم - يقول « المسلم أخو المسلم » ، « المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم » .

فالإسلام والحالة هذه لا يعترف بالحدود الجغرافية ولا يعتبر الفوارق الجنسية الدموية ، ويعتبر المسلمين جميعا أمة واحدة ، ويعتبر الوطن الإسلامي وطنا واحدا مهما تباعدت أقطاره وتناعت حدوده ، وكذلك الإخوان المسلمون

(١) الحجرات ١٠٠ .

يقنسون هذه الوحدة ويؤمنون بهذه الجامعة ويعملون لجمع كلمة المسلمين وإعزاز أخوة الإسلام . ينادون بأن وطنهم هو كل شبر أرض فيه مسلم يقول لا إله إلا الله محمد رسول الله . وما أروع ما قال في هذا المعنى شاعر من شعراء الإخوان :

ولست أدري سوى الإسلام لى وطننا الشام فيه ووادى النيل سيان
وكلمنا ذكر اسم الله فى بلد عددت أرجاءه من لب أوطانى

يقول بعض الناس : إن ذلك يناقض تيار الفكرة السائدة فى العالم . فكرة التعصب للأجناس والألوان ، والعالم الآن تجرفه موجة القوميات الجنسية ^(١) ، فكيف تقفون أمام هذا التيار ؟ وكيف تخرجون على ما اتفق عليه الناس ؟ وجواب ذلك أن الناس مخطئون وأن نتائج خطئهم فى ذلك ظاهرة ملموسة فى إقلاق راحة الأمم وتعذيب ضحايا الشعوب مما لا يحتاج إلى برهان . وليست مهمة الطبيب أن يحارى المرضى . ولكن أن يعالجهم وأن يهديهم سواء السبيل وتلك مهمة الإسلام ومن وصل بدعوته بالإسلام .

ويقول آخرون . إن ذلك غير ممكن ، والعمل له عبث لا طائل تحته ومجهود لا فائدة منه ، وخير للذين يعملون لهذه الجامعة أن يعملوا لأقوامهم ويخدموا أوطانهم الخاصة بمجهودهم . والجواب على هذا : إن هذه لغة الضعف والاستكانة . فقد كانت هذه الأمم مفرقة من قبل ، متخالفة فى كل شىء : فى الدين . واللغة . والمشاعر . والآمال . فوحدها الإسلام وجمع قلوبها على

(١) أى القوميات العرقية

كلمة سواء . وما زال الإسلام كما هو بحدوده وبرسومه . فإذا وجد من أبنائه من ينهض بعبء الدعوة إليه وتجديده في نفوس المسلمين فإنه يجمع هذه الأمم جميعاً من جديد كما جمعها من قديم . والإعادة أهون من الابتداء والتجربة أصدق دليل على الإمكان .

يهتف بعض الناس بعد هذا بالوحدة الشرقية . وأظن أنه لم يتر هذه النبرة في نفوس المهاتفين بها إلا تعصب الغربيين لغربهم وسوء عقيدتهم في الشرق وأبنائه . وهم في ذلك مخطئون . وإذا استمر الغربيون على عقيدتهم هذه فستجر عليهم الوبال والنكال . والإخوان المسلمون لا ينظرون إلى الوحدة الشرقية إلا من خلال هذه العاطفة فقط . والشرق والغرب عندهم سيان إذا استوى موقفها من الإسلام . وهم لا يزنون الناس إلا بهذا الميزان .

وضح إذن أن الإخوان المسلمين يحترمون قوميتهم الخاصة باعتبارها الأساس الأول للموض المنشود . ولا يرون بأساً بأن يعمل كل إنسان لوطنه . وأن يقدمه في العمل على سواء . ثم بعد ذلك يؤيدون الوحدة العربية باعتبارها الحلقة الثانية في النهوض . ثم هم يعملون للجامعة الإسلامية باعتبارها السياج الكامل للوطن الإسلامي العام . ولي أن أقول . بعد هذا : إن الإخوان يريدون الخير للعالم كله فهم ينادون بالوحدة العالمية لأن هذا هو مرمى الإسلام وهدفه ومعنى قول الله تبارك وتعالى : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين »^(١) .

وأنا في غنى بعد هذا البيان عن أن أقول إنه لا تعارض بين هذه الوحدات بهذا الاعتبار . وبأن كلا منها تشد أزر الأخرى وتحقق الغاية منها . فإذا أراد

(١) الأنبياء . ١٠٧

أقوام أن يتخذوا من المناداة القومية الخاصة سلاحاً يميّت الشعور بما عداها
فالإخوان المسلمون ليسوا معهم . ولعل هذا هو الفارق بيننا وبين كثير من
الناس

(ب) - الإخوان المسلمون والخلافة^(١)

ولعل من تمام هذا البحث أن أعرض لموقف الإخوان المسلمين من
الخلافة وما اتصل بها . وبيان ذلك : أن الإخوان يعتقدون أن الخلافة رمز
الوحدة الإسلامية . ومظهر الارتباط بين أُمم الإسلام . وأنها شعيرة إسلامية
يجب على المسلمين التفكير في أمرها والاهتمام بشأنها . والخليفة مناط كثير من
الأحكام في دين الله . ولهذا قدم الصحابة رضوان الله عليهم النظر في شأنها على
النظر في تجهيز النبي - صلى الله عليه وسلم - ودفنه حتى فرغوا من تلك المهمة
واطمأنوا إلى إنجازها .

والأحاديث التي وردت في وجوب نصب الإمام وبيان أحكام الإمامة
وتفصيل ما يتعلق بها لا تدع مجالاً للشك في أن من واجب المسلمين أن يهتموا
بالفكر في أمر خلافتهم منذ حورت عن مناهجها ثم ألغيت إلى الآن -
والإخوان المسلمون لهذا يجعلون فكرة الخلافة والعمل لإعادتها في رأس
مناهجهم . وهم مع هذا يعتقدون أن ذلك يحتاج إلى كثير من التمهيدات التي
لا بد منها . وأن الخطوة المباشرة لإعادة الخلافة لا بد أن تسبقها خطوات : لا بد
من تعاون تام ثقافي واجتماعي واقتصادي بين الشعوب الإسلامية كلها . يلي
ذلك تكون الأحلاف والمعاهدات وعقد الاجتماع والمؤتمرات بين هذه البلاد

(١) من « رسالة المؤرخ الخامس » ص ٤٩ - ٥٠

وإن المؤتمر البرلماني الإسلامي لقضية فلسطين^(١) ودعوة وفود الممالك الإسلامية إلى لندن للمناداة بحقوق العرب في الأرض المباركة^(٢) لظاهرتان طيبتان وخطوتان واسعتان في هذا السبيل - ثم يلي ذلك تكوين عصبة الأمم الإسلامية . حتى إذا استوثق ذلك للمسلمين كان عنه الإجماع على « الإمام » الذي هو واسطة العقد . ومجمع الشمل . ومهوى الأفتدة وظل الله في الأرض .

(١) انعقد بالقاهرة في ١١ أكتوبر سنة ١٩٣٨م

(٢) الإشارة إلى مؤتمر المائدة المستديرة الذي انعقد ببغداد في ٧ فبراير سنة ١٩٣٩م .

- ٥ -

الإمام الشاطبي

أبو إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد الشاطبي
[٧٩٠ هـ ١٣٨٨ م]

● عروبة الشريعة . (١)

(١) [الموافقات] ج ٢ ص ٤٤ - ٤٨ تحقيق محمد عبي الدين عبد الحميد . طبعة القاهرة سنة ١٩٧٠ م .

إن هذه الشريعة المباركة عربية . لا تدخل فيها للألس الأعجمية وهذا وإن كان مبينا في أصول الفقه ، وأن القرآن ليس فيه كلمة أعجمية - عند جماعة من الأصوليين - أو فيه ألفاظ أعجمية تكلمت بها العرب وجاء القرآن على وفق ذلك فوقع فيه المعرب الذي ليس من أصل كلامها ، فإن هذا المبحث ، على هذا الوجه ، غير مقصود هنا ، وإنما المبحث المقصود هنا أن القرآن نزل بلسان العرب على الجملة ، فطلب فهمه إنما يكون من هذا الطريق خاصة . لأن الله تعالى يقول : « إنا أنزلناه قرآنا عربيا » ^(١) وقال : « بلسان عربى مبين » ^(٢) وقال : « لو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته أعجمى وعربى » ^(٣) ، إلى غير ذلك مما يدل على أنه عربى وبلسان العرب لا أنه أعجمى ولا بلسان العجم . فمن أراد تفهمه فمن جهة لسان العرب يفهم ، ولا سبيل إلى تطلب فهمه من غير هذه الجهة . وهذا هو المقصود من المسألة .

(١) يوسف : ٢ .

(٢) الشعراء : ١٩٥ .

(٣) فصت . ٤٤ .

وأما كونه جاءت فيه ألفاظ من ألفاظ العجم أو نجيء فيه شيء من ذلك فلا يحتاج إليه إذا كانت العرب قد تكلمت به . وحرى في خطابها وفهمت معناه . فإن العرب إذا تكلمت به صار من كلامها . ألا ترى أنها لا تدع على لفظه الذي كان عليه عند العجم إلا إذا كانت حروفه في الخارج والصفات كحروف العرب . وهذا يقل وجوده . وعند ذلك يكون مسوبا إلى العرب . فأما إذا لم تكن حروفه كحروف العرب . أو كان بعضها كذلك دون بعض . فلا بد لها من أن تردّها إلى حروفها . ولا تقبلها على مطابقة حروف العجم أصلا . ومن أوردان الكلم ما تتركه على حاله في كلام العجم . ومنها ما تتصرف فيه بالتغيير كما تتصرف في كلامها . وإذا فعلت ذلك صارت تلك الكلم مضمومة إلى كلامها . كالألفاظ المرتجلة والأوزان المستدأة لها . هذا معلوم عند أهل العربية لا نزاع فيه ولا إشكال

هنا فـ إن القرآن نزل بلسان العرب . وإنه عربي . وإنه لاعججة فيه فبمعنى أنه نزل على لسان معهود العرب في ألفاظها الخاصة وأساليب معانيها وأنها فيما فطرت عليه من لسانها تخاطب بالعام يراد به ظاهره . وبالعام يراد به العام في وجه . والخاص في وجه . وبالعام يراد به الخاص . وظاهر ويراد به غير الظاهر . وكل ذلك يعرف من أول الكلام أو وسطه أو آخره . وتتكلم بالكلام نبي أوله عن آخره أو آخره عن أوله . وتتكلم بالشئ يعرف بالمعنى كما يعرف بالإشارة . وتسمى الشئ الواحد بأسماء كثيرة والأشياء الكثيرة باسم واحد . وكل هذا معروف عندها لا ترقاب في شئ منه هي ولا من تعلق بعلم كلامها . فإذا كان كذلك فالقرآن في معانيه وأساليبه على هذا الترتيب . فكما أن لسان بعض الأعاجم لا يمكن أن يفهم من جهة لسان العرب . كذلك لا يمكن

أن يفهم لسان العرب من جهة فهم لسان العجم ، لاختلاف الأوضاع والأساليب ، والذي به على هذا المأخذ في المسألة هو الشافعي الإمام في رسالته الموضوعية في أصول الفقه ، وكثير من أتى بعده لم يأخذها هذا المأخذ ، فيجب التنبيه لذلك ، وبالله التوفيق .

٢

للغة العربية ، من حيث هي ألفاظ دالة على معان نظران :
أحدهما : من جهة كونها ألفاظا وعبارات مطلقة دالة على معان مطلقة وهي الدلالة الأصلية

والثاني : من جهة كونها ألفاظا وعبارات مقيدة دالة على معان خادمة وهي الدلالة التابعة .

فالجهة الأولى هي التي يشترك فيها جميع الألسنة ، وإليها تنتهي مقاصد المتكلمين ، ولا تختص بأمة دون أخرى ، فإنه إذا حصل في الوجود فعل لريد مثلا كالقيام ، ثم أراد كل صاحب لسان الإخبار عن زيد بالقيام تأتي له ما أراد من غير كلفة ، ومن هذه الجهة يمكن في لسان العرب الإخبار عن أقوال الأولين ممن ليسوا من أهل اللغة العربية وحكاية كلامهم ، وينأى في لسان العجم حكاية أقوال العرب والإخبار عنها ، وهذا لا إشكال فيه .

وأما الجهة الثانية فهي التي يختص بها لسان العرب في تلك الحكاية وذلك الإخبار ، فإن كل خبر يقتضى في هذه الجهة أموراً خادمة لذلك الإخبار بحسب المخبر والمخبر عنه والمخبر به ونفس الإخبار في الحال والمساق وبوع الأسلوب من الإيضاح والإحفاء والإيجاز والإطناب وغير ذلك ، وذلك أنك تقول في ابتداء الإخبار : « قام زيد » إن لم تكن ثم عناية بالمخبر عنه بل بالمخبر ، فإن كانت العناية بالمخبر عنه قلت : « زيد قام » ، وفي جواب السؤال أو ما هو منزل تلك المترلة « إن ريذا قام » ، وفي جواب المنكر لقيامه : « والله إن ريذا قام » ، وفي التنكير على من ينكر : « إنما قام زيد » ، ثم يتنوع أيضا بحسب تعظيمه أو تحقيره ، أعني المخبر عنه ، وبحسب الكناية عنه والتصریح به ، وبحسب ما يقصد في مساق الإخبار وما يعطيه مقتضى الحال . إلى غير ذلك من الأمور التي لا يمكن حصرها ، وجميع ذلك دائر حول الإخبار بالقيام عن زيد ، فمثل هذه التصرفات التي يختلف معنى الكلام الواحد بحسبها ليست هي المقصود الأصلي ، ولكنها من مكملاته وامتداته ، ويطول الباع في هذا النوع يحسن مساق الكلام إذا لم يكن فيه منكر ، وبهذا النوع الثاني اختلفت العبارات ، وكثير من أقاصيص القرآن ، لأنه يأتي مساق القصة في بعض السور على وجه ، وفي بعضها على وجه آخر ، وفي ثلاثة على وجه ثالث ، وهكذا ما تقرر فيه من الإخبارات لا بحسب النوع الأول إلا إذا سكت عن بعض التفاصيل في بعض ونص عليه في بعض ، وذلك أيضا لوجه اقتضاه الحال والوقت « وما كان ريك نسيا »^(١) .

(١) مريم : ٦٤

وإذا ثبت هذا فلا يمكن من اعتبار هذا الوجه الأخير أن يترجم كلاما من الكلام العربى بكلام العجم على حال ، فضلا عن أن يترجم القرآن وينقل إلى لسان غير عربى إلا مع فرض استواء اللسانين فى اعتباره عينا ، كما إذا استوى اللسانان فى استعمال ما تقدم تمثيله ونحوه ، فإذا ثبت ذلك فى اللسان المنقول إليه مع لسان العرب أمكن أن يترجم أحدهما إلى الآخر ، وإثبات مثل هذا بوجه يبين عسير جدا ، وربما أشار إلى شيء من ذلك أهل المنطق من القدماء ومن حذا حذوهم من المتأخرين ، ولكنه غير كاف ولا مغنى فى هذا المقام ، وقد تفى ابن قتيبة إمكان الترجمة فى القرآن ، يعنى على هذا الوجه الثانى ، فأما على الوجه الأول فهو ممكن ، ومن جهته صح تفسير القرآن وبيان معناه للعامة ومن ليس [لهم] ^(١) فهم يقوى على تحصيل معانيه ، وكان ذلك جائزا باتفاق أهل الإسلام ، فصار هذا الاتفاق حجة فى صحة الترجمة على المعنى الأصلى .

* * *

ولا بد فى فهم الشريعة من اتباع معهود الأميين ^(٢) ، وهم العرب الذين نزل القرآن بلسانهم ، فإن كان للعرب فى لسانهم عُرْف مستمر فلا يصح العدول عنه فى فهم الشريعة ، وإن لم يكن ثم عُرْف فلا يصح أن يجرى فى فهمها على ما لا تعرفه ، وهذا جار فى المعانى والألفاظ والأساليب ^(٣)

(١) غير موجودة بالأصل .

(٢) [المواقفات] ج ٢ ص ٥٦ .

(٣) [المواقفات] ج ٢ ص ٦٧ .

والاستدلال بالشرعية على الأحكام إنما هو من جهة كونها بلسان العرب
لا من جهة كونها كلاما فقط

٣

إن الله . عز وجل . أنزل القرآن عربيا لاعجمة فيه ^(١) . بمعنى أنه جار في
الفاظه ومعانيه وأساليبه على لسان العرب ، قال الله تعالى : « إنا جعلناه قرآنا
عربيا » ^(٢) وقال تعالى : « قرآنا عربيا غير ذي عوج » ^(٣) وقال تعالى : « نزل به
الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين . بلسان عربي مبين » ^(٤) .

وكان المنزل عليه القرآن عربيا أفصح من نطق بالضاد ، وهو محمد بن
عبد الله ، - صلى الله عليه وسلم - ، وكان الذين يبعث فيهم عربا أيضا . فجري
الخطاب به على معتادهم في لسانهم ، فليس فيه شيء من الألفاظ والمعاني إلا
وهو جار على ما اعتادوه ، ولم يداخله شيء ، بل نفي عنه أن يكون فيه شيء
أعجمي فقال تعالى : « ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر . لسان الذي

(١) الشاطبي [الاعتصام] ج ٢ ص ٢٩٣ ، ٢٩٤ طبعة القاهرة سنة ١٤١٠ هـ - بتعليق وتحقيق

الشيخ محمد رشيد رضا .

(٢) الزمر ٣ .

(٣) الزمر ٢٨ .

(٤) الشعراء : ١٩٣ - ١٩٥

يلحدون إليه أعجمي . وهذا لسان عربي مبين»^(١) ، وقال تعالى ، في موضع آخر : «ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا : لولا فصلت آياته»^(٢) ؟

هذا وإن كان بعث للناس كافة فإن الله جعل جميع الأمم وعامة الألسنة في هذا الأمر تبعا للسان العرب ، وإذا كان كذلك فلا يفهم كتاب الله تعالى إلا من الطريق الذي نزل عليه وهو اعتبار ألفاظها ومعانيها وأساليبها .

أما ألفاظها فظاهرة للعيان ، وأما معانيها وأساليبها فكان مما يعرف من معانيها اتساع لسانها ، وأن تخاطب بالشئ منه عاما ظاهرا يراد به الظاهر ويستغنى بأوله عن آخره ، وعاما ظاهرا يراد به العام ويدخله الخاص ، ويستدل على هذا ببعض الكلام ، وعاما ظاهرا يراد به الخاص . وظاهرا يعرف في سياقه أن المراد به غير ذلك الظاهر . والعلم بهذا كله موجود في (أول) الكلام أو وسطه أو آخره .

وتبتدئ الشئ من كلامها بين أول اللفظ فيه عن آخره ، أو بين آخره عن أوله ، ويتكلم بالشئ نعرفه بالمعنى دون اللفظ ، كما تعرف بالإشارة ، وهذا عندها من أفصح كلامها . لانفرادها بعلمه دون غيرها مما يحمله ، وتسمى الشئ الواحد بالأسماء الكثيرة ، وتوقع اللفظ الواحد للمعاني الكثيرة .

فهذه كلها معروفة (عندها) وتستنكر غيرها ، إلى غير ذلك من التصرفات التي يعرفها من زاول كلامهم وكانت له به معرفة وثبت رسوخه في علم ذلك

(١) السجل ١٠٣ .

(٢) فصلت : ٤٤

فإذا ثبت هذا فعلى الناطق في الشريعة والمتكلم فيها . أصولا وفروعا
أمران ^(١) :

(أحدهما) : ألا يتكلم في شيء من ذلك حتى يكون عربيا ، أو كالعرب
في كونه عارفا بلسان العرب ، بالغيا فيه مبالغ العرب ، أو مبالغ الأئمة
المتقدمين ، كالخليل وسيبويه والكسائي والفراء ومن أشبههم وداناهم
وليس المراد أن يكون حافظا كحفظهم وجامعا كجمعهم . وإنما المراد أن يصير
فهمه عربيا في الجملة . وبذلك امتاز المتقدمون من علماء العربية عن
المتأخرين ، إذ بهذا المعنى أخذوا أنفسهم حتى صاروا أئمة . فإن لم يبلغ ذلك
فحسبه في فهم معاني القرآن التقليد ، ولا يحسن ظنه بفهمه دون أن يسأل فيه
أهل العلم به .

قال الشافعي - لما قرر معنى ما تقدم - : « فن جهل هذا من لسانها - » يعني
لسان العرب - وبلسانها نزل الكتاب وجاءت السنة - فتكلف القول في
علمها ، تكلف ما يجهل بعضه ، ومن تكلف ما جهل وما لم تثبت معرفته كانت
موافقته للصواب - إن وافقه - غير محمودة والله أعلم ، وكان بخطئه غير معذور
إذا نطق فيما لا يحيط علمه بالفرق بين الخطأ والصواب فيه .
وما قاله حتى ، فإن القول في القرآن والسنة بغير علم تكلف - وقد نهينا عن
التكلف - ودخول تحت معنى الحديث ، حيث قال - عليه الصلاة
والسلام - : « حتى إذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤساء جهالا » - الحديث ^(٢) -
لأنهم إذا لم يكن لهم لسان عوى يرجعون إليه في كتاب الله وسنة نبيه رجع إلى

(١) [الاعتصام] ج ٢ ص ٢٩٧ - ٣٠١ .

(٢) رواه البخاري ومسلم والترمذي وابن ماجه وابن حبل

فهمه الأعجمي وعقله المجرد عن التمسك بدليل يضل عن الجادة .

وقد خرج ابن وهب عن الحسن أنه قيل له : رأيت الرجل يتعلم العربية ليقم بها لسانه ، ويصلح بها منطقته ؟ قال : نعم ! فليتعلمها ، فإن الرجل يقرأ فيعيا بوجهها فيهلك ! .

وعن الحسن قال : أهلكتهم العجمة . يتأولون على غير تأويله .

(والأمر الثاني) : أنه إذا أشكل عليه في الكتاب أو في السنة لفظ أو معنى فلا يقدم على القول فيه دون أن يستظهر بغيره ممن له علم بالعربية ، فقد يكون إماما فيها . ولكنه يخفى عليه الأمر في بعض الأوقات . فالأولى في حقه الاحتياط . إذ قد يذهب على العربي المحض بعض المعاني الخاصة حتى يسأل عنها .. وقد نقل من هذا .. عن الصحابة - وهم العرب - فكيف بغيرهم .
نقل عن ابن عباس . - رضى الله عنهما - . أنه قال : كنت لا أدري ما «فاطر السموات والأرض» . حتى أتاني أعرابيان يجتصمان في بئر . فقال أحدهما : أنا فطرتهما . أى أنا ابتدأتها .

وفيما يروى عن عمر . - رضى الله عنه - . أنه سأل ، وهو على المنبر . عن معنى قوله تعالى : «أو يأخذهم على تخوف»^(١) . فأخبره رجل من هذيل أن التخوف عندهم هو التنقص وأشباه ذلك كثيرة .

قال الشافعي : «لسان العرب أوسع الألسنة مذهبا ، وأكثرها ألفاظا» .

قال (١) : « ولا نعلمه يحيط بجميع علمه إنسان غير نبي . ولكنه لا يذهب منه شيء على عامتها حتى لا يكون موجودا فيها من يعرفه .. والعلم به عند العرب كالعلم بالسنة عند أهل العلم ، لا نعلم رجلا جمع السن فلم يذهب منها عليه شيء ، فإذا جمع (علم) عامة أهل العلم بها أتى على السن . وإذا فرق كل واحد منهم ذهب عليه شيء منها . ثم كان ما ذهب عليه منها موجودا عند غيره ممن كان في طبقة وأهل علمه .. وهكذا لسان العرب . عند خاصتها وعامتها لا يذهب منه شيء عليها ، ولا يطلب عند غيرها . ولا يعلمه إلا من نقله عنها ، ولا يشركها فيه إلا من اتبعها في تعلمه منها . ومن قبله منها فهو من أهل لسانها ، وإنما صار غيرهم من غير أهل لتركه ، فإذا صار إليه صار من أهل » .

هذا ما قال . ولا يخالف فيه أحد . فإن كان الأمر على هذا لزم كل من أراد أن ينظر في الكتاب والسنة أن يتعلم الكلام الذي به أدب ، وألا يحسن ظنه بنفسه في المسائل المشككة التي لم يحط بها علمه دون أن يسأل عنها من هو من أهلها ، فإن ثبت على هذه الوصاة كان - إن شاء الله - موافقا لما كان عليه رسول الله - عليه الصلاة والسلام - وأصحابه الكرام

... والصحابة . رضوان الله عليهم عرب (٢) . لم يحتاجوا في فهم كلام الله تعالى إلى أدوات ولا تعلم ، ثم من جاء بعدهم ممن ليس بعربي اللسان تكلف ذلك حتى علمه ، وحيث داخل القوم في فهم الشريعة وتنزيلها على

(١) أي الشافعي .

(٢) [الاعتصام] ج ٢ ص ٣٠٤ .

ما ينبغي فيها ، كسلمان الفارسي وغيره ، فكل من اقتدى بهم في تنزيل الكتاب
والسنة على العربية - إن أراد أن يكون من أهل الاجتهاد - فهو - إن شاء الله -
داخل في سوادهم الأعظم ، كائن على ما كانوا عليه ، فانتظم في سلك
الناجية .

المصادر

- ابن أبي الحديد : [شرح صحيح البلاغة] طبعة القاهرة سنة ١٩٥٩ م .
ابن الأثير : [الكامل في التاريخ] طبعة القاهرة .
: [أسد الغابة في معرفة الصحابة] طبعة دار الشعب .
القاهرة .
ابن باديس : [كتاب آثار ابن باديس] طبعة الجزائر سنة
١٩٦٨ م .
ابن حنبل : [المسند] طبعة القاهرة سنة ١٣١٣ هـ .
ابن خلدون : [المقدمة] طبعة القاهرة سنة ١٣٢٢ هـ .
ابن عبد ربه : [العقد الفريد] طبعة القاهرة سنة ١٩٧٣ م .
ابن عساكر : [تهذيب تاريخ ابن عساكر] طبعة دمشق .
ابن ماجه : [السنن] طبعة القاهرة سنة ١٩٧٢ م .
ابن منظور : [لسان العرب] طبعة دار المعارف . القاهرة .
أبو داود : [السنن] طبعة القاهرة سنة ١٩٥٢ م .
أبو يوسف : [كتاب الخراج] طبعة القاهرة سنة ١٩٨٥ م .
الأفغانى : [الأعمال الكاملة] طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨ م .
البخارى : [الصحيح] طبعة دار الشعب . القاهرة .
الترمذى : [السنن] طبعة القاهرة سنة ١٩٣٧ م .

- التهاوى : [كشاف اصطلاحات الفنون] طبعة القاهرة سنة ١٩٦٣ م .
- الجاحظ : [رسائل الجاحظ] طبعة القاهرة سنة ١٩٦٤ م .
- الحرحاني : [التعريفات] طبعة القاهرة سنة ١٩٣٨ م .
- جورج أنطونيوس : [يقظة العرب] طبعة دمشق سنة ١٩٤٦ م .
- حسن البنا : [مجموعة رسائل الإمام الشهيد] طبعة دار الشهاب . القاهرة .
- السنن : [رسالة المؤتمر الخامس] طبعة القاهرة سنة ١٩٧٧ م .
- السنن : [السنن] طبعة القاهرة سنة ١٩٦٦ م .
- الدارمي : [السنن] طبعة القاهرة سنة ١٩٦٦ م .
- السجاني - أحمد صدق : [السنن] طبعة القاهرة سنة ١٩٦٦ م .
- الدكتور : [الحركة السوسية] طبعة بيروت سنة ١٩٦٧ م .
- الراقعي - عبد الرحمن : [عصر محمد علي] طبعة القاهرة سنة ١٩٥١ م .
- زكريا سليمان بيومي (دكتور) : [الإخوان المسلمون والجماعات الإسلامية في الحياة السياسية المصرية ١٩٢٩ - ١٩٤٨] طبعة القاهرة سنة ١٩٧٩ م .
- الزهراني (عبد الحميد) : [المؤتمر العربي الأول] - وثائق - طبعة القاهرة سنة ١٩١٣ م .
- سعيد حوى : [الإسلام] طبعة القاهرة سنة ١٩٧٧ م .
- سعيد قطب : [من أجل خطوة إلى الإمام على طريق الجهاد المبارك] طبعة القاهرة سنة ١٩٧٩ م .
- الشاطبي : [معالن في الطريق] طبعة القاهرة سنة ١٩٨٠ م .
- الشاطبي : [الموافقات] طبعة القاهرة سنة ١٩٧٠ م .
- الشاطبي : [الاعتصام] طبعة القاهرة سنة ١٤٠٠ هـ .

- الطبرى : [التاريخ] طبعة دار المعارف . القاهرة .
- الطهطاوى (رعاية) : [الأعمال الكاملة] طبعة بيروت سنة ١٩٧٧ م .
- عبد الصاحب الدجلى : [الشعرية] طبعة النجف سنة ١٩٦٠ م .
- عبود الزمر : صحيفة [النور] العدد ١٥٥ فى ٢٧ فبراير سنة ١٩٨٥ م .
- العيسى (عبد الغنى) : [المؤتمر العربى الأول] - وثائق - طبعة القاهرة سنة ١٩١٣ م .
- عمر بن الخطاب : [خطب عمر بن الخطاب ووصاياه] طبعة القاهرة سنة ١٩٨٥ م .
- الكواكبى : [الأعمال الكاملة] طبعة بيروت سنة ١٩٧٥ م .
- لوثر وب ستودارد : [حاضر العالم الإسلامى] طبعة بيروت سنة ١٩٧١ م .
- لويس عوض (دكتور) : مجلة [السياسة الدولية] - القاهرة - عددى يوليو وأكتوبر سنة ١٩٧٨ م .
- مجمع اللغة العربية : [المعجم الوسيط] طبعة القاهرة سنة ١٩٧٢ م .
- محمد رشاد خليل (دكتور) : مجلة [الدعوة] عددى جمادى الأولى وربيع الثانى سنة ١٣٩٨ هـ .
- محمد عبده (الإمام) : [الأعمال الكاملة] طبعة بيروت سنة ١٩٧٢ م .
- محمد عمارة (دكتور) : [فجر اليقظة القومية] طبعة القاهرة سنة ١٩٧٥ م .
- العروبة فى العصر الحديث : [العروبة فى العصر الحديث] طبعة القاهرة سنة ١٩٦٧ م .
- الأمة العربية وقضية التوحيد : [الأمة العربية وقضية التوحيد] طبعة القاهرة سنة ١٩٦٦ م .

- : [مسلمون ثوار] طبعة بيروت سنة ١٩٧٩ م .
 : [العرب والتحدى] طبعة الكويت سنة ١٩٨٠ م .
 : [موقع الوهابية من حركة التجديد] - دراسة - مجلة
 [الموقف العربي] عدد أكتوبر سنة ١٩٧٩ م .
 : [الحزب الوطني الحر] - دراسة - [مجلة الإذاعة
 والتلفزيون] عدد ١٥ مايو سنة ١٩٧١ م
 : [المعتزلة وأصول الحكم] طبعة بيروت سنة
 ١٩٧٧ م .

محمد فؤاد عبد الباقي : [المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم] طبعة دار
 الشعب . القاهرة .

مسلم : [الصحيح] طبعة القاهرة سنة ١٩٥٥ م .

المقرئى : [الخطوط] طبعة دار التحرير . القاهرة .

المكاشى طه الكباشى (دكتور) وقائع جلسة محكمة أم درمان - السودان - رقم
 ١ - بتاريخ ٥ فبراير سنة ١٩٨٥ م .

المهدى (محمد أحمد) : [منشورات المهدية] طبعة بيروت سنة ١٩٦٩ م

المودودى (أبو الأعلى) : [نظرية الإسلام السياسية] طبعة بيروت سنة
 ١٩٦٩ م

: [واقع المسلمين وسبيل النهوض بهم] طبعة بيروت سنة
 ١٩٧٥ م .

: [الإسلام والمدنية الحديثة] طبعة القاهرة سنة
 ١٩٧٨ م .

- الندوى (أبو الحسن) : [ماذا خسر العام بالخطاط المسلمين] طبعة بيروت سنة ١٩٦٥ م .
- النسائي : [السنن] طبعة القاهرة سنة ١٩٦٤ م .
- النويرى : [نهاية الأرب] طبعة دار الكتب المصرية .
- وينستك (أ . ح) : [المعجم المهرس لألفاظ الحديث النبوى الشريف] .
 طبعة لندن ١٩٣٦ - ١٩٦٩ م .

رقم الإيداع ٨٧ ٨٨٤٠
البرقم الدولي ٣ - ١٦٧ - ١٤٨ - ٩٧٧

مطابع الشروق

القاهرة ١٦ شارع جرارد حنبلي - هاتف: ٧٧٤٨١ - ٧٧٤٨٨ - برقية: مشرق - تلغراف: ٩٣٥٥١
تسويروت ١ ص ١٦٤ - هاتف: ٢١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٧١٣ - برقية: مشرق - تلغراف: ٩٣٥٥١

To: www.al-mostafa.com